تذكار الصبا



محمد لطفي جمعة

تذكار الصبا

تذكار الصبا

ذكرى ١٩ مارس

تأليف
محمد لطفي جمعة



تذكار الصبا

محمد لطفي جمعة

رقم إيداع ٢٠١٣/٨٩١٦
تدمك: ٤ ٢٩٣ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: سحر عبد الوهاب.

المحتويات



صورة المؤلف محمد لطفي جمعة.

الجزء الأول

قبل اللقاء

هذا الكتاب

لست أروي قصة ولا أتحدث حديثًا مسليًا ولكنني أسجل فضل الله عليّ وأحمده على رزق كريم، وقد صادف مجيء هذا الرزق معرفتي بهذه السيدة في هذه الظروف وفي المكان والزمان المعنيين، جنيف ربيع سنة ١٩١٠.

ليس هذا الكتاب قصة ولا سردًا للتحف ولكنه تسجيل للأحاسيس والمشاعر والعواطف في فترة قصيرة، ولكنها من أكثر الفترات سعادة بل لعلها أسعدها في تلك الأيام وكل ما سبقها ومعظم ما لحقها.

محمد لطفي جمعة

ذكرى ١٩ مارس بعد ثلاثين عامًا

بقلم محمد لطفي جمعة

ما يزال هذا اليوم بعينه وذاك التاريخ برقمه يمر به فيذكّره حادثة من أهم حوادث حياته وأثرًا من معالم الطريق في سبيل وجوده، ونقطة ارتكاز في دائرة تكوينه، فيبدو اليوم والتاريخ تارة كأنه كوكب قطبي ثابت لا يتحول، ونورًا هاديًا في ديجور الليالي والأيام، وطورًا كأنه سهم من كنانة القدر أصاب فأدمى واستحال انتزاعه، ومرة أخرى كأنه كأس خمر معتقة سبقتها فرحة وصحبتها نشوة وتلتها سكرة وأعقبتها صحوة مريرة أليمة.

ويبدو التاريخ واليوم حينًا كأنه يد بيضاء كريمة فتحت له مغاليق الفكر والنظر والإدراك، وأطلعته على آفاق فسيحة كان لم يبلغ مداها بحكم سنه وقلة تجاريبه، وأنه بعد مضي الأعوام وانسلاخ الليالي والأيام وكر الساعات وفر الدرجات وانطواء صفحات الدهر ليشهد بين الخيال شبحًا كشبح بياتريس التي قادت دانتي في سياحته القدسية إلى الأعراف والبرزخ والجنة والجحيم، وإنه ليجلس أحيانًا في يوم ١٩ مارس في أحد الأعوام التي تلت تلك الحادثة العجيبة مسندًا رأسه بين راحتيه ويسأل نفسه ترى كيف كانت تكون الحياة لو لم يقع في هذا النهار ما وقع ولو لم ألتق بمن التقيت به؟ وهل إذا عدت إلى ذلك التاريخ وخيّرت بين قبوله واقتحامه بما جرى فيه، أكنت أقبل عليه وعليها أم أعرض عنهما جميعًا، تاركًا سير الأقدار في المجهول الأعظم الذي لا أعلم ما وراءه وقد يكون خيرًا مما جرى أو شرًّا منه؟

نعم إن الماضي منسي ومن الخير أن ينسى في رأي بعض الناس؛ لأن ذكراه بخيره وشره أليمة على النفس، فإن كان خيرًا تألمت النفس من الحاضر، وإن كان شرًّا فإنه تنغيص وتحريك للأسى.

ليل ١٩ مارس سنة ١٩٤٧

قبل اللقاء

١

رحلة البحر

كانت رحلة البحر متعبة على الرغم من أن البحر كان في أول السفر هادئًا، والباخرة الألمانية «البرنس هنريش» التابعة لشركة نورد ويتش لويد كانت فخمة مريحة وعدد المسافرين قليلًا، فقد تغير وجه البحر فجأة وساءت الأحوال حقًّا واضطرت الباخرة للوقوف في عرض البحر وغضبت الطبيعة واصطلحت العناصر على معاكستنا وصرنا فعلًا كالريشة في مهب الريح واشتد البرد في ١٠ أبريل، وتدثرنا بالمعاطف وزادت حاجتنا للطعام وأسعفتنا الباخرة بالأغذية ولا سيما الحساء والشاي واللحوم الباردة في كل ساعتين تقريبًا، ما عدا وجبات الطعام الدسمة السخية.

وكنت وحيدًا على ظهر الباخرة أي: لا صديق ولا رفيق ولا مؤنس أو مواس. وكنت جمعت شجاعتي وعزمي لهذه الرحلة بعد نضال طال من فبراير إلى آخر مارس وغادرت مصر والربيع في أوج ازدهاره وسمت نضارته والشمس ساطعة والجو دافئًا والحياة ضاحكة. وكان هذا الصحو وذاك الجمال وتلك الحياة الوليدة والنور المتدفق تعين على تخفيف آلامي والإقلال من قوة المعركة الدائرة في صدري. فقد كانت المسألة صراعًا بين الحياة والموت والنور والظلام والمستقبل البسّام والأمل الضاحك المستبشر، وبين المستقبل العابس واليأس القاتل وخيبة الرجاء وأنا الوحيد الطريد الغريب الوجه واليد واللسان أهاجر في طلب العلم والرفعة، وخدمة الوطن ولا أطلع أحدًا من الخلائق على سري ولا أبوح لأحد بما انطوت عليه جوانحي ولا أعتمد على أحد ولا أركن إلى أحد ولا أنتظر معونة من أحد، وكنت إذ ذاك لا قليل الإيمان وحسب بل كنت عديم الإيمان بتاتًا لا لشدة ما لقيت

من الظلم والأذى والأسى؛ بل لأن قلبي لم يتجه نحو النور الإلهي. لكنني كنت أشعر قوة غامضة تدفعني وتشجعني وتأخذ بيدي وتيسر لي الأمور المهمة في أوقاتها.

وربما كانت غريزة الحياة ودفعة الشباب والغيظ من الظلم والغبن والكيد من الغفلة المحيطة بي، وموت القلوب والأرواح حتى تخيلت مصر كلها مقبرة كبيرة أو قرافة لا حدود لها، وأنني أجوس خلال الموتى ولا بد لي أن أخرج من هذا المكان الذي يملأه الصمت والسكون ويسود عليه الظلام. إن هذه الحالة النفسية لم تغادر ذاكرتي وما زلت أشعر بها في كل الأوقات. كنت قبل سفري ألتمس المعونة من كل إنسان بكلمة أو بسمة مشجعة أو دعوة صالحة أو شعاع أمل فلا أجده حتى هؤلاء الناس الذي كانوا أصدقائي وأحبائي ورفقاء حياتي في المدرسة وجلسائي في النادي والمقهى، وجيراني وإخواني وأخداني وخلاني ما أكثر هذه الصفات في اللغة العربية وما أقل معانيها في عالم الحقيقة! فصممت وتوكلت على ماذا؟ تركت أهلي وبيتي وكتبي — وهي أعز الأشياء عندي وثيابي وكل ما اقتنيته وأحببته في ثماني سنين من أثاث ومتاع وذكريات وأشياء ألفت رؤيتها ولمسها، تركتها في بيت جميل في الحلمية الجديدة وقد اكتشفت بعد عودتي أن معظمها سرق وتبدد وضاع إلى الأبد.

لنرجع إلى الباخرة في صباح ١١ أبريل سنة ١٩٠٨.

وقفت فجأة وأذاع القبطان علينا نحن جماعة المسافرين — وما أشبهنا بالناجين في سفينة نوح — أننا وقفنا لا لعطل في الآلات ولا لعجز عن مواصلة الرحلة أو التغلب على هياج البحر؛ ولكن توقفنا لأن الباخرة التي سبقتنا شلزويج قد جنحت وأن باخرتنا مكلفة بإنقاذ المسافرين الذي ساء حظهم أكثر منا، ثم رأيت منظرًا عجبًا — قوارب النجاة تفصل الواحد بعد الآخر من باخرتنا والقارب الواحد يحركه عشرون بحارًا ويخوضون به غمار الأمواج التي أصبحت كالجبل، والأعجب أن تلك الأمواج كانت تنشق وتبلع القارب بالبحارة وتنطبق الأمواج عليه حتى لنعتقد أنه لن يظهر على وجه الماء، فتخرج من صدورنا آهات وحسرات ويبدو علينا الوجوم والخوف، وبعد عشر دقائق أو ربع ساعة يطفو القارب الذي حسبناه قد غرق فيعود إلينا الاطمئنان، وتخرج أصوات الفرح من أفواهنا، وقد نسينا أنفسنا وبقينا هكذا طول اليوم وبعض الليل وكانت تلك القوارب تعود إلينا محملة برجال ونساء مدثرين بأغطية من الصوف والفرو والجلود، ثم يقدم لهم الخمر والطعام ويتولى أطباء وممرضات تدليكهم وإنعاشهم أعني إنقاذهم من الموت.

تصور هذه الحال التي صادفتني في أول رحلتي!

الأرمنية الحسناء

وفي تلك الفترة — أيام معدودة — رأيت امرأة صبية جميلة علمت أنها أرمنية ظنَّتني تركيًّا فتحدثت إليَّ فأخبرتها أنني مصري فكلمتني بالعربي، ودعتني إلى صالون الباخرة وكان تقريبًا خاليًا وأخذت تسليني بالحديث والابتسام، ثم أخذت تدق على البيانو وتغنّي بالتركية والأرمنية بصوت جميل، وترنو إلي بأعين دعجاء، وترنو إلي بنظرات ذات معنى وقد فهمت كل مقاصدها، ولكنني كنت في شغل شاغل أكاد لا أعي معاني الكلام العادي فما بالك بغزل هذه الصبية الحسناء الناضجة؟ واعتبرت أنها مبعوثة الشيطان جاءت لتفتنني أو تسحرني لتحولني عن غايتي وكانت في مستهل العقد الثاني، وأرى تمام العقل وكمال الحكمة أن أفر من النساء لا تعلقًا بأهداب الفضيلة فإني لا أبرئ نفسي، ولكن لشدة امتلائي بأملي ومقصدي، فقد ملكت غايتي كل مشاعري. وبذلت الأرمنية الحسناء كل جهودها واستدرجتني إلى خلوة إثر خلوة حتى في ظلام الليل وشدة البرد في أركان خالية بعيدة عن كل رقيب فأزداد نفورًا وأحذق فن التخلص، ولكنها لم تيأس إلا عند وصولنا إلى مارسيليا، وعند الوداع رمتني بنظرة جمعت البغضاء والحقد والاحتقار، ولو استطاعت أن تقتلني لفعلت. ومع هذا كله صافحتني وضغطت يدي وأعطتني بطاقة باسمها وعنوانها في باريس. وكانت البطاقة معطرة، فوقفت في ديوان الجمرك أعالج دهشتي من قوة أمل المرأة وشدة عنادها وكيف أنها عزّ عليها أن أفلت من يدها مع أنني لم أكن شيئًا مذكورًا بين بقية الرجال المسافرين. ولكن المرأة لا تقبل الهزيمة وهذه بذاتها لم تعلم حالتي ولو علمت لعذرتني، والمرأة كما علمت بعد ذلك بالخبرة تعفو عن كل إنسان وتنسى كل سيئة، إلا أن تعرض نفسها ثم يُعرض عنها، إنها تذكر ذلك وتنسى كل شيء دونه ولو كان المال والبنون بل الحياة.

لقد اعتبرت هذه الحادثة أول انتصار أحرزته على المرأة عدوة الرجل وآماله وتطلعه إلى المجد، أول انتصار على نفسي، أول جهاد خرجت من معركته فائزًا. وبعد أن بعدت عني وغابت عن نظري قلت: كان الله لك وأعانك فإني أعطف عليك وأشكرك؛ لأنك أحببتني ولو لأجل معصية ولست بالرجل الذي يحب وليس في فتنة مال أو جمال أو جاه فماذا رأيت أو وجدت في، وقد ودعتني وهي تشك في رجولتي، فلا ملام ولا عتاب فالحق بيدها.

الوصول إلى ليون

ووجدت نفسي في ثغر مرسيليا وحيدًا ومعي حقائبي، وركبت مركبة إلى محطة السكة الحديد لألحق بالقطار السريع إلى مدينة ليون، وكان المطر ينهمر والمنظر كئيبًا مقبضًا فقلت: هذا الغيث فأل حسن لأشجع نفسي والحزن يكاد يقتلني، وجرى القطار السريع بنا في الدرجة الثالثة.

ووقفنا في محطات الوسط وقفات طويلة أورانج وأفنيون وفالنس وفيين، وكل وقفة نصف ساعة ودعوة إلى المقصف وفرصة لشراء الطعام والشراب ولا سيما الفاكهة والنبيذ.

وقد طال السفر ولكنني لم أنم ولم أذق طعامًا ولا شرابًا، وبلغنا ليون (محطة بيراش) عند نصف الليل، حسرة جديدة وخشية من عدم الاهتداء إلى فندق، ولكنني وجدت خارج الباب مركبة ضخمة عليها اسم فندق الغرباء فقلت: أي فندق أليق بي من هذا الخان الذي يحمل الطائفة التي أنتمي إليها، ألست غريبًا في مدينة ليون وفي المطر والربيع الذي انقلب شتاءً، وفي الليل البهيم ولم يكن معي أحد، وكانت المركبة فسيحة وعالية وعجلاتها من الحديد بغير إطارات من المطاط والحوذي متعجل وحزين لقلة الأضياف، والصيد الذي يعود به (وهو أنا) ضئيل هزيل فأخذت العربة تهتزّ وتترجرج وتتدحرج على أحجار الشوارع القلقة، فتذكرت كلمة دي كونسي؛ لأنني كنت قرأت "oh! stony heated Oxford street" آه يا شارع فيكتور هيجو أيها الشارع الذي قدّ قلبه من الصخر.

المدينة كئيبة مظلمة، تلك التي دعوتها بعد ذلك ليون الزاهرة، أين أزهارك في هذا الليل البهيم وتلك الوحدة القاتلة. ولو علم العالم أنني كنت أحمل في كيس حزام تمنطقت به خمسة جنيهات إنجليزية (فقط لا غير زيادة!) لضربني المشفقون بالسيوف، تلك المغامرة في سبيل العلم والوطن والشرق لا يؤيدها سوى خمسة دنانير. أهذا قلب من الحديد أم عقل من الورق الرقيق؟

بلغت فندق الغرباء فاستقبلتني غادة حسناء وضحكت لي ورحبت بي ولم أفهم كلمة مما قالت، غير أنها وضعتني حيث أستحق في غرفة في الدور الثالث مطلة على حوش خراب لقاء خمسة فرنكات. فلم أنم في البقية الباقية من الليل وتيقظت مع الديكة، وأسرعت بالنزول وقصدت إلى كلية الحقوق وطرقت باب البواب ولم ألاحظ أن الجامعة مغلقة في عطلة عيد الفصح «باك». وسألت عن الأستاذ إدوار لامبير، فقال لي البواب: «وا أسفاه يا سيدي! إنه مسافر في الريف»، ففهمت بالإشارة وعدت أدراجي يائسًا. وفهمت

أنه لا بد أن يعود وأن الكلية سوف تفتح أبوابها بعد أيام، وسرت في الطرق على غير هدى حتى مررت بحانوت مساح أحذية وعليه إعلان «غرف مفروشة للإيجار»، فدخلت إليه ومسحت حذائي، وأشرت إلى الإعلان فأفاض في الكلام بفرنسية مخنَّثة مطاطة ووضع في يدي ورقة بعنوان، فخرجت ووصلت إلى عمارة بالدور السابع بشارع فيكتور هيجو، ووقع نظري على مدام كابيه، وهي امرأة سمينة منتفخة كالبالون، شقراء بخراء فضحكت لي وأبرزت أسنانًا صفراء عريضة متعرجة وأدخلتني إلى غرفة فسيحة فاستأجرتها فورًا ودفعت لها أجرة شهرية مقدمًا واكتشفت بعد ذلك وبعد فوات الفرصة أنها أيضًا على حوش تصفر فيه الرياح، ولكنني نقلت أمتعتي من فندق الغرباء مغتبطًا بوداع الخادمة الحسناء. وقلت: لعل في وجهي ما يمنع نساء ليون عن أن يسمحن لي بالنظر إلى شوارع بلدهن!

ثم بحثت عن مطعم فاهتديت إلى مطعم في شارع ستيلا فوقه بيت مغلق يسمونه كذلك؛ لأنه يبقى مفتوحًا طول الليل، ودفعت ثمن الطعام غداءً وعشاءً لشهر كامل وكل هذه العجلة ليست بسبب أمانتي أو حاجة العملاء لمالي القليل، ولكن لأضمن البقاء مجرد البقاء ساكنًا طاعمًا ثلاثين يومًا على الأقل — كل هذا وذاك ولم أفطر — وقصدت بمحض البحث والمشي على الأقدام تحت المطر مكتبة في ساحة بلكور، وطلبت من الرجل كتابًا في القانون الروماني وآخر في الاقتصاد السياسي وورقًا وكراسات وقلمًا وسألته عن الثمن، وعرضت عليه الثمن وتكلم طويلًا ففهمت أنه يمهلني إلى أن أعود لأخذ بقية الكتب بعد عطلة عيد الفصح، وطلب اسمي وعنواني ودونهما في ثبت عنده وقد وثق بي لشدة ما كان يبدو على وجهي من البساطة والذهول وسلامة النية وكلها تبعث على الثقة، وكانت هذه هي النقطة المشرقة الوحيدة في الرحلة.

وعند الظهر دخلت إلى المطعم وتناولت الغداء وهو لا ريب مطهي بشحم الحلوف، ولكن الخضر طازجة جميلة، حمص أخضر وبطاطس (بشائر) صغيرة الحجم ولحم لا أدري من أي جزء من الذبيحة وأية فاكهة.

ونقلت متاعي من الخان وصعدت إلى غرفتي في الدور السابع ٢١٥ درجة من درجات السلالم الخشبية الرحبة، فكنت ألهث وأتأوه وأستريح ويدركني دوار، فأتخيل أنني في السفينة وأشعر بدقات قلبي ووخزات في صدري فأفرح بها؛ لأنها في سبيل العلا والمجد!

ولم أكد أستريح حتى دق الباب ودخل عندي مسيو فاڤر، وهو المخنث السمسار ماسح الأحذية وطلب مني أجر الدلالة والحلوان فناولته خمسة فرنكات فأخذها كالمفجوع

وثرثر كعادته، وابتسم وأصلح بيده طاقية شعره المصطنع المتقن ووضع في يدي بطاقته وانصرف بعد أن قال: إن غرفتي جميلة ولكنها باردة ثم صنع بشفتيه وأسنانه صوتًا عجيبًا يشبه اصطكاك الأسنان من البرد «برّ ... برّ ...»، فشعرت بالقشعريرة، وكأن القطب الشمالي انتقل إلى مسكني ... ولو لم يتأفّف هذا الرقيع لتحمّلت البرد.

مقابلة مصري

ألقيت نظرة على البطاقة فإذا بها تحمل اسم شاب مصري وعنوانه «موسيو أ. م. شارع بواساك»، فأسرعت بالنزول، ها هو مصري من عملاء السمسار يقيم في ليون، فالبدار البدار إليه لأسمع صوته ينطق باللغة التي أفهمها. وكنت أستوقف الرجل أيًّا كان وأقدم له البطاقة وأقول له: «غريب etranger طالب etudiant»، فأشفق عليّ أحدهم وقادني إلى الشارع وهو يثرثر وأنا أقول له: نعم. نعم. نعم يا سيدي. ولا أدري ما أقول حتى بلغت بيت صاحبنا وهو يقطن غرفة منعزلة في الدور الأرضي وفي الحوش — أيضًا الحوش الثالث منذ وصولي — بئر عليه تنبيه بأن ماءه لا تشرب مع أن البلد يرويها نهران الرون والسون! ورأيت صاحبي الذي عرفته في مصر؛ لأنني رأيته مرة واحدة أصفر اللون ممتقعًا هزيلًا منكمشًا، فتصنع السرور للقائي سرورًا حزينًا واجمًا. وقال: «ليس هنا عادة الترحيب بالقهوة وأنا لا أدخن. قد اخترت هذه الغرفة السحيقة؛ لأنها فسيحة؛ ولأنها بعيدة عن أصحاب الدار ولي فيها كل الحرية أستقبل فيها البنات في أي وقت من الليل والنهار»، فدهشت لصراحته ولكنني ضغطت على ضروسي بأنيابي وضحكت لأظهر له أنني أفهم هذه الرغبة في الحرية الشخصية لاستقبال البنات، وبعد قليل دخل علينا شاب آخر قال: إنه طالب طب وهو أصفر الوجه خامل متداع كالجدار الذي يريد أن ينقض، ففرح بلقائي؛ لأنه يحب أن يسمع أخبار مصر ثم قال لي للوهلة الأولى: إنه بهائي وإنه مبعوث أحد الأمراء ليتم دراسة الطب لينشر البهائية في مصر. فتخيلت أنني في حلم، ثم سأل صاحب الغرفة عن حالة الإفراز فصمت الرجل ثم غمز بعينه للطبيب خشية اطلاعي على سره فقال له: أليس هو الآخر رجلًا وسيحدث له ذلك عشرات المرات ثم ضحكا. وقال الطبيب: إن صاحب الغرفة مريض بالبول الحار الذي يصاب به كل طالب على الأقل سبع مرات ولا يعدّ رجلًا دون ذلك، ففهمت أنه يشير إلى المرض السري المعروف باسم الجزيرة التي نفي إليها عرابي باشا. فانقبضتُ لبشرى الطبيب بأنني سأصاب به عشر مرات وقلت في نفسي بصوت غير مسموع لهما: «كذبت والله أيها البهائي الملعون

في الأرض والسماء، فلن أصاب به؛ لأنني لن أخلو بامرأة قط قبل أن أتم عملي وأعود إلى مصر، إنك متكهن كذاب وكذّاب أشر». إذن هذه كانت عيادة لا زيارة، وصاحبي لا يحب الغرفة المنعزلة لأجل الحرية بل لأجل البنات الملوثات. ولأمر ما جدع قصير أنفه وسكن بجوار البئر المرة المذاق.

ولما انتهى التوتر الذي أصاب المجلس سألاني عن عنواني وغايتي ودراستي، وسبب وصولي في أواخر السنة الدراسية وكيف أقدمت على جامعة فرنسية، وأنا لا أتكلم كلمة بتلك اللغة ولا بد من حادث جسيم دعاني إلى السفر، وأنه لا يوجد في المدينة إلا طالبان أو ثلاثة يدرسان الطب وأنهم من أبناء الأغنياء. وهل اتصلت بأحد من الأساتذة، وفي أي فرقة أنا، وهل حصلت على شهادة الدراسة الثانوية، وهل أحمل شهادة الميلاد إلى آخر تلك الأسئلة التي غايتها العرقلة وظاهرها المعونة والمساعدة، ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب، فأجبت على كل سؤال بسؤال آخر فيه نكتة أو حيلة أو لغز، حتى مال ميزان النهار واستأذنتهما في الانصراف.

العودة إلى الفندق

عدت إلى غرفتي القريبة من السماء وتذكرت البيت المشهور: نلت أسباب السماء بسلم!

فقلت: المقصود به أنا، فالدور السابع قريب من السماء الأولى على الأقل!

وفتحت حقيبة الكتب وأخرجت قاموسًا وكراسة وقلمًا، وبدأت أقرأ كتاب القانون الروماني على ضوء مصباح من الغاز؛ (لأن الغرفة كانت مظلمة نهارًا وليلًا وليس بها إلا النافذة المطلة على الحوش). لقد فنيت في الأفنية، فناء الفندق وفناء غرفتي وفناء صاحبي العاشق الذي صار من شهداء الغرام، وكان يدّعي أنه جاء ليون ليدرس فلسفة سبنسر! إنك لا تدري مقدار اللذة النفسية والمتعة الروحية والحماسة العقلية التي شعرت بها في ذلك المساء حتى كدت أنسى العشاء أو أتهاون في أمره، لولا أنني خشيت أن صاحب المطعم يطمع في مالي القليل فينكر ما قبضه.

وكنت أشعر بالذل وأنا أخطو بعتبة المطعم لحقارته بالنسبة إلى المطاعم التي عرفتها في مصر وفي أوروبا في سياحتي الأولى (سنة ١٩٠٦)، ولكنني رضيت بنصيبي وقلت: أي فضل لي على مجاوري الأزهر وقد تخرج منهم الزعماء والعلماء وقادة الفكر في كل القرون وهم يفترشون الحصير، ويأكلون التوابل والأفوال وعيش الذرة وفتات الجبن ليلًا ونهارًا. ولكن ها هنا إدام من لحم وخضر وحساء ولحوم وفواكه، نعم إن الدهون مريبة والذبائح

أو الموقوذة مشكوك فيها، ولكن الضرورات تبيح المحظورات وقد أخبرت صاحب المطعم أني لا أشرب النبيذ وأشرب بدله ماء فيشي أو إيفيان، فأحضر لي قنينة فلما فرغت ملأها من ماء نهر الرون على أن ثمنها لا يتجاوز قرشين.

طالب طب مصري

ولكن الليلة حدث أمر عجيب حقًّا، فإن صاحب المطعم لفت نظري إلى شخص جالس ودعاني إلى الجلوس معه فدهشت جدًّا؛ لأنه طالب طب قديم من أبناء الأعيان الكبار، وفرحت به حقًّا؛ لأني عرفته في مصر معرفة حسنة فكان أول سؤال له: من دلّك على هذا المطعم. كم تدفع للشهر؟

ولما علم قيمة ما أدفع قال لي: إن الرجل أكرمك؛ لأنني أدفع كذا، وقد اكتشفت بعد ذلك أنه خدعني حبًّا بالخديعة وكزازة ودناءة نفس؛ لأنه يدفع أقل مني مع أنه يتجرع النبيذ ظهرًا وعشاء ورجاني أن أقول لصاحب المطعم: إنه هو الذي دلّني عليه وهو الذي حدد الثمن الذي أدفعه.

وكانت دهشة ثانية.

وهذا الرجل ورث مالًا كثيرًا ونهب أموالًا أكثر وقضى في التعليم أضعاف ما يقضيه أي طالب في أنحاء العالم، ورسم خطة حياته في الوظائف والمواريث والزواج ونفذ الخطة كلها؛ لأنها كانت لا تتعدى بطنه وفرجه وكيس نقوده.

وإذا كانت النفوس كبارًا تعبت في مرادها الأجسام

ولهذا الكائن العجيب نوادر وقصص وأخلاق شاذة، ولا أدري إن كان على قيد الحياة أم قضى، ولكنه على كل حال أحيل على المعاش من زمن طويل. إن بعض المسلمين من الأجناس الدخيلة كالزنوج والترك والجركس يحيرون الألباب، والذي فتح عيني أنني لم أكن طالبًا حديث العهد بالحياة، بل كنت مارستها من قبل ممارسة طويلة وعركت الدهر وعركني ... في ظني.

جار جديد

وبعد ثلاثة أيام حملت إليّ الأقدار جارًا جديدًا هو الشقيق الأصغر لرجل من أعظم رجال مصر تعبت الدنيا في تعليمه. فلما توفي العظيم أرسلته الأسرة ليتعلم في ليون رجاء أن تكون كارثة الموت هذبت من طبعه، فجاء بخيله ورجله وأحمال من الثياب (حتى ثياب المرحوم) والعصي الثمينة والحلي النفسية وبعض الأثاث الخفيف الذي كان يحمله المرحوم في رحلاته ونقودًا ذهبية، وصكوكًا على المصارف ومكاتيب الثقة Lettres de Credit وبالجملة كل ما يتخذه أبناء اللوردات والبارونات في رحلة تعليمية طويلة، ثم إنه لا يحمل كتابًا ولا كراسة ولا أثارة من رغبة في التعليم، بل يحمل بين ثنايا صدره وأحشائه كل الرغبات المكتمة والظاهرة في الاستمتاع بكل الشهوات، وكان في الباخرة التي جنحت ولا أدري كيف اهتدى إلى الدور السابع في الركن الخفي الذي قدمته لي الحياة، ولا بد أن يكون قد عثر على موسيو فاڤر الوسيط كما عثرت فقاده إلى وكر مدام كابيه، فلما رأت أثاثه وجهازه وحقائبه وطروده وشحناته ومعاطفه وعصية وقفازاته وقبعاته (وكلها موروثة)، أيقنت أنه صيد سمين حقًّا ولا بد أن تكون قد نفحت الوسيط السمسار حلوانًا لم يحلم به في حياته ففغر فاه وتمشدق، وأخرج من الكلام ما لم يخرج شيخ الحواة من فمه. ثم قدمت للضيف القديم العزيز أفخر غرفة في البيت، وهو قاعة الصالون وبه الكوف (كهف) بسرير فخم وله باب سري على السلم من آثار حياة العشق؛ لأن المرأة الفرنسية تدخر فراشًا وبابًا سريًّا لمغامراتها أو الرجال يتواطئون معها؛ لأنهم الذين يبنون هذه البيوت والغرف والأبواب، ويضعون تصميمها ويجلبون أثاثها، فيجعلون للغرفة العامة الشريفة لاستقبال الأضياف في وضح النهار، سردابًا وبابًا لاستقبال أعز الأضياف لزوجاتهن أو عشيقاتهم، فيمكنه أن يصل ليلًا ويغادر فجرًا.

فإن المرأة بعد أن تستوثق من رتاج بابها تستقبل حبيبها في الصالون، وتسمر وتشرب وتتنقل ثم تنعطف بعد الهياج الجنسي إلى كهف الغرام. فكان فرح جاري بهذا المدخل والمخرج فوق كل فرح؛ لأنه المكان الذي ينشده طول حياته، فلما هدأ روعه وألقى عصي التسيار؛ لأنها كانت أكثر من عشر، التفت إليّ وعاهدني من تلقاء نفسه على الاستقامة والجد والاجتهاد؛ لأنه يعرف أنني أعرفه. فلم أصدّق حرفًا مما قال ولكنني تظاهرت بتصديقه. وقد عدّ هذه المصادفة أسعد مصادفة في حياته، وأنها علامة التوفيق إلخ.

وبعد لقاء الترحيب انقطع لترتيب متاعه وتصفيف ثيابه وقمصانه وأربطة عنقه ومعاطفه وثياب التفضل والأحذية والمباذل، فصار معرضًا ممتعًا حقًّا، فقلت له: يا فيهم (لأن هذا كان اسمه) أين الكتب ألم تحمل معك أي كتاب بأية لغة لتقرأه ولو للتسلية فقال: غدًا ترى!، ولكنني لم أره؛ لأنه احتج واعتذر برغبته في رؤية المدينة واعتماده على مصاحبتي، فاعتذرت له وقلت له: إنني هنا سأقرأ ليلًا ونهارًا حتى تفتح الجامعة أبوابها.

وواظبت على عملي وقراءتي وخروجي للغداء والعشاء في مطعمي، وبعد يوم حضر عملاق طويل هزيل ذو لحية سوداء أشبه ببوريس كارلوف في أبشع أدواره، فقدمتني مدام كاپيه للعملاق بوصفه حليلها وهو في الحقيقة خليلها وصناعته سمسار تجارة متجول يغيب أيامًا وليالي يطوف ما يطوف ثم يأوي إلى بيت قعيدته اللكاع البخراء الشقراء.

فعرض هو لا هي علينا أن نتناول إفطار الصباح معًا في المطبخ؛ لأن غرفة الطعام مؤجرة لي وبها هي الأخرى الكوڤ (كهف الغرام)، ولكن ليس لها باب للخروج؛ لأنها لا نافذة بها إلا المطلة على الحوش.

فقبلنا العرض لقاء ١٥ فرنكا في الشهر، والإفطار مكّون من قهوة وحليب وزبد وخبز على الطريقة الفرنسية، وقد رأيت بعد يومين أن السيدة تعد لكل منا فنجانًا صغيرًا ولحسة زبدة وكسرة خبز، بينما أعدت لعملاقها سلطانية ضخمة بالحليب والقهوة تذيب فيها ربع رطل زبدة. ورأيت تذمر جاري بالعربية وبالنظرات فقلت له: صهٍ هذه ضريبة وزيادة في الأجر فاعمل كما أعمل، فإنني أفطر مرة ثانية، ثم جاهرت بالود للعملاق والبخراء فكنت أصب في سلطانيته حليبي وزبدتي، فازدادت المرأة تقديرًا لخلقي، ثم قال الرجل: إنه سيقدر لي هذا الجميل ويوصي بي الأساتذة ليسهلوا لي النجاح؛ لأنه صديقهم جميعًا بغير استثناء، وأنا أعلم يقينًا أنه لا يدري أين مقر الجامعة، فشكرته وقلت: صبرًا. أما صاحبي فكان يغمز بعينه ويهمس ويتأفف؛ لأنه يريد أن يأخذ بكل حقه (حلفًا) ولم يلبث العملاق أن سافر وخلا البيت كعادته وكان فيهم عندما رأى دسامة الشقراء البخراء حاول أن يلقي عليها شباكه فاستجابت فكانت تضطجع على مقعد فسيح، ثم تنبطح وبين يديها قصة غرامية.

ستيفاني

وفي الليلة الثانية رأيت فتاة مليحة ادعت المرأة قرابتها ولكنها ريفية حسناء جدًّا اسمها ستيفاني، وبعد الغروب نزل فهيم وعاد محملًا بخيرات السهر والسمر والمنادمة من طعام وفاكهة وحلوى وقنينة من شراب لزج لذيذ الطعم شديد النشوة سريعها اسمه «بندكتين» عليه صورة قسيس سمين يعصر خمرًا؛ لأن هذا الشراب الجهنمي لا يصنع إلا في الدير، ودعوني إلى الصالون وهو غرفة، ومدّوا المائدة وأقسم عليّ أن أشرب كأسًا من البندكتين لأجل خاطره وإنقاذًا للموقف (أي موقف؟) وإثباتًا لرجولتي؛ لأن كل الرجال في فرنسا يشربون البندكتين، ولكني أكلت قليلًا من الألطاف التي حملها ولا سيما الفاكهة ورأيت البخراء تنتشي وتضحك وتغني وتغتلم وكذلك ستيفاني، ثم إن المرأة قالت للفتاة: «قومي يا استيفاني مع صديقك الشاب وعلميه بضع كلمات فرنسية؛ لأنه لا يجيد الكلام بها». فنهضت استيفاني على استحياء وسحبتني في وداعة الحمل إلى غرفتي، وفهمت أنا وهي أن هذا الجلاء كان ليخلو الجو لجاري والشقراء، وجلست ستيفاني لقائي وأغلقت الباب وأضاءت النور.

كانت جلسة لا تنسى ولذا أحببت أن أسجلها وما زلت حتى اليوم أدهش، وأعجب كيف أوتيت العزيمة والقوة لأتقي الوقوع، فقد تذكرت الوعود والعهود والماضي والمستقبل، وأنا في سكرة الشباب وحرارته حيال هذه الفتاة الناضجة الجميلة الوادعة، ولكن الجزء الواعي من عقلي أسعفني وزادني إسعافًا جهلي المطبق باللغة، ولكن هذا الأمر لا يحتاج إلى لغة. بيد أنني تناولت كتابًا في الهيروغليفي وأخذت أخط أحرفًا وصورًا، وأحاول تعليمها لغة أجدادي وهي صامتة ساهمة متحرقة. وكنت إذا لمستها مصادفة وشممت أنفاسها أكاد أفقد صوابي فأقول لنفسي بلغتي: «اخشع يا فلان ... تذكر ... قاوم ... اذكر تلك الأرمنية على الباخرة وكيف نجوت منها ... إنها كانت بلاءً طارئًا فهذه مقيمة ...»، ولما مضت ساعتان وأيقنت استيفاني أنني ميئوس مني مع أنني شعلة نار، قالت لي: أظن أنك متعب جدًّا. فنم في فراشك وأنا بجوارك في الكوف المطبخ فإذا احتجت إلى شيء أثناء الليل فما عليك إلا أن تدعوني، ثم نهضت ومدت إليّ يدها فقبلت أناملها شكرًا. فاحمر وجه الفتاة وانفجرت باكية وخرجت وأغلقت بابي، وارتميت على فراشي منهوك القوى خائر البدن مختبل الفكر وأغمضت عيني.

إنني لم أر استيفاني بعد ذلك أبدًا، وفي الصباح رأيت كيف نجوت للمرة الثانية من حبائل المرأة وحمدت الله حمدًا جزيلًا.

ولا يذهب ظن قارئ ناقد إلى أن في هاتين الحادثتين وما تلاه مما يقرب منها من نوع الصراع بين رغبات الشباب والتمسك بالاستقامة، تلميحًا إلى اللطيفة اليوسفية! فلم يكن هناك فرعون ولا يوسف ولا زليخا على ظهر الباخرة الألمانية ولا في شارع هيجو في ليون! ولكن هذا لا يمنع أن شابًّا في العشرين من عمره من مواليد مصر المشهورة في كل القرون بالتعلق بالشهوات والاستهتار وإساءة استعمال الحرية بمجرد التخلص من الرقباء عندما يجد نفسه طليقًا تعرض له الفتنة، وتعرض عليه المتعة وهو في أشد الحاجة إلى تلبية صوت الطبيعة، ثم إنه يعرض عنها مختارًا ويجاهد نفسه وبدنه:

خرجت أجرُ الذيل تيهًا وإنما   يتيه الفتى إن عف وهو قدير

رحم الله محمود سامي البارودي الذي وعيت شعره، وعملت به من سن السابعة عشرة.

نعم إنني كنت في حال نفسية لا تسمح بالمرح وكنت طريد الظلم من بلدي ومجبرًا على ترك مدرسة الحقوق ومرغمًا على الاغتراب قليل المال عديم العون، ضعيف الأمل جاهلًا بلغة البلاد مستهدفًا لاضطهاد الإنجليز، بل والحكومة المصرية بعد نهاية دراستي التي لم أبدأها، كل هذه أمور من شأنها أن تصرف النفس والذهن عن احتضان أرمنية حسناء اهتاج البحر الهائج رغبتها أو عن فتاة ريفية حسناء في بيت داعر خرقاء بخراء شقراء جلبتها لتفتن شابًّا أجنبيًّا. ولكن هذه الحال النفسية ذاتها سلاح ذو حدين، وكما أنها تقصي الشاب عن الشهوات فهي خليقة بأن تغريه بالاستمتاع ولو ترويحًا للنفس وانتهازًا للفرص. ولكن الذي نفعني لم يكن المنطق ولا موازنة الأدلة ولا الإيمان الديني الذي يعدل قوله تعالى: «رأى برهان ربه» ولكن الغريزة وحدها، غريزة البقاء والطموح والوفاء مع نفسي، وبغض الظلم ورغبتي في أن أنجو بتحقيق أملي والخلاص من شماتة الأعداء.

اجتمعت هذه العناصر كلها فأنتجت هذه النتيجة ولم يكن الأمر نتيجة الوحي والإلهام. هذه حقيقة أقررها وقد علمت فيما بعد أن كل مرة انتصرت فيها على نفسي ازددت قوة على المقاومة، كأنه تدريب على الجندية أو رياضة بدنية تقوي العضلات وتشد أزر الرجل.

ولأرجعْ الآن إلى الجهاد الأصغر، فقد عرفت حالة البيت الذي أعيش فيه وحقيقة الجار المستهتر، ولا سيما ما استجد بينه وبين خليل المرأة وهجوم العملاق على فهيم ليلًا شاهرًا خنجرًا ففر من بين يديه إلى مكان لا يليق ذكره.

وفي هذه الفترة أدركنا مصري كريم هو الدكتور سامي كمال، وكان يطلب العلم واجتمع بالبخراء الشقراء وخليلها العملاق، وكانا يطمعان في مال الوارث الطائش وثيابه وعصيه ويمثلان فصولًا لاستغلاله وإرهابه، ففضحهما الدكتور سامي كمال ودافع عن فهيم، ولما ذكرني انبرى له الرجل والمرأة وقالا: لا داعي للكلام عن هذا الشاب، فليس لدينا ما نقول عنه إلا الخير فإن شاء أن يقيم بيننا فعلى الرحب والسعة، وإن أراد أن يفارقنا فنرد له كل ما دفع ولم ينتفع به. وكنت أثناء ذلك الحوار الذي تبودلت فيه التهم وقيلت: الألفاظ الغليظة «كالأطرش في الزفة» ابتسم حينًا وأهز رأسي أو أعبس إذا ارتفعت الأصوات ولكنني لم أنطق، وأسفر المجلس عن خروج الجار يجرر أذياله وحقائبه وعصية وأحذيته تاركًا معظم ما دفعه للبخراء؛ لأن العملاق قال: (وقد شرحوا لي ذلك فيما بعد) إنه يحتجز النقود بمثابة تعويض عن شرفه المثلوم! يقصد ذلك الركن الخراب الذي يمثل عرضه!

وأما أنا ففرحت في دخيلة نفسي؛ لأنني نجوت من ثرثرته وضوضائه واقتراضه على قلة مالي فرنكات قليلة في أزماته التي لم تكن تنتهي. وأسرف العملاق والشقراء في إكرامي ومجاملتي ظنًّا منهما أنني أبقى معهما طويلًا، وأنا أضمر الفرار بنهاية الشهر الذي دفعت أجرته وقد حرصت على تحسين علاقتي معهما.

٢

لقاء إدوارد لامبير ودعوتي الطلبة المصريين إلى الدراسة في ليون

في تلك الفترة فتحت الكلية أبوابها ولقيت الأستاذ إدوارد لامبير والتحقت بالدراسة، وبدأت أحضر المحاضرات مع الطلاب الفرنسيين ولم يكن في الكلية طالب مصري واحد؛ لأنني البادئ بالدعاية إلى ليون في مصر، فأقبل الطلاب بعد ذلك زرافات ووحدانًا وأنا أحتفظ لكل واحد من هؤلاء الشبان بأعمق الشكر؛ لأنهم لبَّوا دعوتي وأقبلوا وسمعوا نصحي وآنسوا وحشتي، وشرفوا مصر ورفعوا ذكرها عاليًا، ولم يأت شهر نوفمبر التالي (من أبريل إلى نوفمبر) حتى كان في ليون أكثر من خمسين طالبًا، ثم تزايدوا ونموا وربوا

حتى بلغوا في سنتين نحوًا من ثلثمائة طالب في جميع كليات الجامعة ومدرسة التجارة العليا وبقية المعاهد.

وتأسس المعهد الشرقي خصوصًا للعلوم العربية والشريعة الإسلامية، واعتز لامبير بطلابه كما اعتزّوا به، فما قيمة المتاعب القليلة التي امتحنني الله بها في سبيل هذه الثمرة الناضجة الحلوة وتلك القطوف الدانية؟

وكنت أقصد الكلية صباح كل يوم وينظر إليّ الطلاب الفرنسيون نظرة تعجب من الطالب الذي بدأ دروسه في آخر السنة الدراسية، وهو فوق هذا لا ينطق إلا بكلمات قليلة ويتلقى المحاضرات ويدوِّن ما يسمع منها بأحرف عربية تارة وبأحرف لاتينية بنطق إنجليزي، ثم إنني لم أكن ألبس ثيابًا أنيقة كما يفعل معظمهم؛ لأنهم من أبناء الأعيان، وأجلس في ركن قريب من الأستاذ لأتلقى كلامه حرفًا حرفًا وأقول: «إذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن أكون جبانًا»، ثم نظرت في حالي فرأيت أن أقرأ الصحف صباح مساء، وأحضر تمثيل المسرحيات (كان الأجر للطلاب زهيدًا جدًّا وهو فرنك واحد)، وأقصد إلى الاجتماعات العامة وألتقف الكلمات وأغشى المجالس، وأتكلم خطأ وأرجو محدثي أن يصحح أغلاطي، وأبدأ كلامي دائمًا ببضع كلمات محفوظة مثل لتحيا فرنسا لتحيا الجمهورية، أحب ليون حبًّا جمًّا، ونساء ليون جميلات، ورجال ليون شجعان كرماء لضيوفهم، تحيا الحرية إلخ، مما يعين على نفخ أوداجهم ونفش ريشهم؛ لأنهم ديكة أصلاء وانقلبوا رجالًا، ويهز المدح أعطافهم، وهكذا قليلًا قليلًا حتى شققت طريقي.

مرض خطير ونصيحة الطبيب

وأثناء ذلك مرضت مرضًا خطيرًا في القلب والأعصاب، وأظنه من صدمات نفسية، الوحدة والاغتراب والفاقة والتعفف والكتمان والكبت، وفقدت شهية الطعام والنوم، وكنت أتمدد في فراشي عقيب الدروس بالساعات الطويلة لا أملك حراكًا ولا كلامًا، ولا أجد عناية من أحد؛ لأنني أكتم أمري، ولكنني عند الصباح أجمع من ضعفي قوة تكفي لحضور الدروس وأعاني شدة الحر والجوع وزراية المظهر. فلقيت رفيق المطعم ابن الباشا وطالب الطب الآخر الذي لقيته أول يوم عند الطالب المزمن ساكن الغرفة المنعزلة المصاب بالبول الحار (سيلان)، فشخص الأول الحاقد عليّ مرضي بأنه مرض القلب في آخر أطواره وأشار عليّ بالعودة إلى مصر أو دخول المستشفى لأنهي أيامي الأخيرة.

فتدخل الطالب البهائي وفنّد آراءه؛ لأنه كان أعلم منه وخالي الغرض غير حاقد عليّ، فنصحني بالذهاب إلى الأستاذ الدكتور مويسيه، وهذا الطبيب العظيم رجل لا أنسى فضله ما حييت، وإني مدين له بعد ربي إلى علمه وعطفه وأدبه ومواساته.

فقد تفَّرغ لي وفحصني فحصًا كاملًا، وهز رأسه، وقال: ليس بأحشائك الباطنة أي مرض عضوي. ولكن قال لي: هل لك صديقة صغيرة Petite amie؟

فاستفسرته حتى فهمت منه أنه يقصد إلى عشيقة من العاملات أو الطالبات أتنزه معها وأخلوا بها وأغازلها وأقضي منها وطرًا، فأجبته نفيًا وعللت عفّتي بخوفي من الأمراض الجنسية. فهز رأسه وقال: أي مرض جنسي يصيبك سواء أكان زهريًّا أو سيلانًا أنا كفيل بعلاجه أما المرض الذي يصيبك من الكبت والحرمان فلا قبل لي بعلاجه فإن امتنعت عن سماع نصحي، فخير لك أن ترحل إلى بلادك، فإن الكبت والرطوبة هنا وقيظ الصيف تصطلح عليك فتؤذيك ويعقبها مرض خطير. ثم وصف لي نظام طعام خاص ومياه معدنية ورجاني أن أدعوه في أي وقت أو أطرق باب عيادته متى شئت ولم يتقاض مني إلا أجر الطلاب وهو عشرة فرنكات مع أن عيادته مائة فرنك، وقد اتبعت نصيحته ولزمت عيادته طول إقامتي في أوروبا.

أما نصيحة العشق فقد أضمرت أن أخالفها معتمدًا على الله، وكذلك العود إلى الوطن فقد صممت أن أموت بعيدًا عن بلدي، وأن لا أعود إلا إذا أتممت دراستي وجاهدت ضد أعداء الوطن في كل مكان؛ لأنني بجانب ذلك الذي وصفوه بالعفة كان مصحوبًا بخجل شديد، فلا أذكر أنني تبعت فتاة في الطريق ولا نطقت بكلمة غزل ولا شربت خمرًا حتى النبيذ لم أذقه أثناء إقامتي، وما شربت الشاي والقهوة بنهي الطبيب وما دخنت قط! وعندما غادرت عيادة الطبيب شعرت بأنه كتبت لي حياة جديدة، فطلقت المطعم وبدأت أتناول الطعام في غرفتي من صنع يدي وهو حليب وخضر وفاكهة وجبن بغير دسم ولا ملح، وقد صبرت على هذا الطعام أشهرًا.

مصادر رزقي

أما مصادر رزقي فقد فتح الله أبوابها من مراسلة جريدة اللواء وبعض مبالغ ضئيلة أخرى، وكان مجموعها في الشهر لا يزيد عن ١٢ جنيهًا، فلما نشرت في الصحف المصرية أن نفقات الطالب لا تزيد في الشهر عن هذا القدر حقد عليّ الشبان المقبلون على ليون؛ لأنني فتحت أعين أولياء أمورهم وقالوا لهم: إن فلانًا هذا الذي يدعو إلى التعلم في ليون

يعيش عيشة الكفاف بنفقة المحجور عليهم ولم يحسب حسابًا للملابس في برد الشتاء ولا للملاهي والكتب والدروس الخاصة ورحلات الصيف والشتاء وغشيان المجتمع، وتبادل الهدايا في الأعياد فأية عيشة هذه التي يرسمها لنا ويضع ميزانيتها ويكتفي بوصف جمال ليون وأنهارها وبساتينها وأشجارها وشوارعها وجسورها؟

وأنا كنت أعلم هذا كله وأكثر منه وأعلم أنني ظلمتهم بنشر هذه الفكرة الرخيصة، إنما كنت أقصد إلى تيسير الأمر على الآباء؛ ليبادروا بإرسال أولادهم أولًا ثم يرغمون على تسديد مطالبهم بالاتفاق بينهم وبين لامبير، ولكني كتمت هذا الأمر خشية أن يحجم الآباء؛ لأن معظمهم كان يخشى أن يضطهد أولادهم بعد عودتهم إلى مصر؛ لأن ليون كان منظورًا إليها بعين السخط وتعتبر الجالية المصرية فيها طلابًا ثائرين وكارهين للاحتلال وللحكومة المصرية الخاضعة. وقد زاد موقفنا حرجًا في سنة ١٩٠٩ بعد المؤتمر الوطني الذي عقد في چنيف وفي سنة ١٩١٠ عندما قتل الورداني المرحوم بطرس غالي باشا. ثم إن المقالات التي كنت أنشرها في جريدة اللواء ثم جريدة العلم بتوقيع قارئ ناقد كانت بغيضة إلى الرجعيين المصريين.

لم تكن نظرية العقد النفسية ومركبات النقص معروفة ولا شائعة في الطب البدني أو الطب النفساني في سنة ١٩٠٨. ولكنني أفسر حالتي الآن بما قاسيته في حياتي في تلك الفترة وما سبقها ولحقها وأقرر أن هذه الأعراض كاذبة ومفتراة، وأن هذه المتاعب تزيد النفس قوة وأن الجسم يتبع الروح في كل حالاته. والمرجع إلى صفاء الذهن وقوة الإرادة والثقة بالنفس. وعندما أشرقت أنوار الإيمان على قلبي زادني الإيمان انشراحًا وإقبالًا على عملي، ولكن الجهاز العصبي لا ينجو من الاهتزاز فيخلق في النفس حزنًا وهمًّا، وكنت أحاربهما بالتظاهر بالمرح والمزاح والضحك، تجلّدًا أمام الشامتين وصدري ينطوي على نار متأجّجة. وقد أرغمت على الصفح والتسامح حتى صارا فطرة، وقد دلَّتني الخبرة على أن الأقارب والأهل وأدنى الأصدقاء أشد ضررًا على الرجل من الغرباء والأغيار، وأن الدنيا مكان محزن حقًّا والشر سائد حقًّا والخير والحب نادران، وأن الإنسان مهما كان عقله وإرادته وعواطفه لا يستغني في مكافحة الحياة عن الإيمان الصادق؛ ليعتمد على الله ويركن إليه في ذلك المعترك القاتم الغامض المظلم الظالم.

اعترافات چان چاك روسو

كان من أوائل الكتب التي اشتريتها «اعترافات چان چاك روسو» وقد أغراني به بخس ثمنه وضخامة حجمه ووفرة صفحاته، فإن كمية المادة في المطبوعات كان لها قيمة في نظري بجانب نوع الكتب، فإن كان الموضوع يعجبني فأخلق بي أن أسر بتوافر اللذة التي أنالها واستدامتها أطول مدة ممكنة. هذا إلى شهرة هذا الفيلسوف العجيب الأطوار، فقد سبق لي أن قرأت عنه كثيرًا باللغة الإنجليزية فإن غرابة أطوار المؤلفين تعجب الإنجليز عادة، وفطنة نقادهم دلّتهم على أن هذا الحكيم المفلوك القليل الحظ من الدنيا كان أقدر وأخلص نية وأنقى ضميرًا وأجدى على قرائه من ڤولتير الكاهن المنافق. ولا يلومني أحد على هذه الخواطر، فإنني أكتب بصراحة ولا أحب أن أخفي شيئًا إذ ذهب عهد الخوف على الأستار، وليس يهمني الآن رفع القناع عن كل فكرة مهما كانت تفهة ما دامت كانت ذات أثر في تكوين عقلي، لقد أغراني الكتاب وكان في الإغراء بركة، فقد أقبلت على الكتاب بشغف لأستطلع أسرار هذا المعترف العجيب، فجاهدت في المطالعة وقطعت شوطًا طويلًا وتحملت السهر فازددت معرفة باللغة في وقت قصير ووعيت ألفاظًا عديدة نفعتني في قراءة الصحف والمجلات وكتب أخرى وفي الأحاديث والكتابة. فكنت مأخوذًا بالاعتراف، أحظى بقراءته وجعلته ثوابًا لي على ما أقرأ في كتب القانون وكان سلوى وعزاء وموعظة وداعيًا للصبر والتحمل.

وقد وجدت في شخص الحكيم المسكين شبهًا شديدًا بينه وبيني، فقد كان طريدًا شريدًا وقد علَّم نفسه بنفسه، وألقى بذاته في خضم الحياة وهو لا يحسن السباحة فاجتهد حتى أتقنها، وكان على الفطرة غير متصنع ولا متكلف وكنت كذلك، وكان يحب الحق والصراحة وهاجر من وطنه إلى أوطان أخرى في سن تقرب من سني، وكان لا يحفل بالمال إن قلّ عنده أو كثر. إلا خلة واحدة ذميمة كانت عنده أشفقت عليه منها وهو تعلقه بأذيال النساء، وكنت أرى أبغض شيء عندي المرأة ولا سيما التي تتودَّد إليّ لتغريني بنفسها؛ لأنني أعلم أنها تعطل وتعوّق وتستأثر وتنزف قوة الرجل العقلية والخلقية، أما المال فلم يكن لديّ منه ما يكفيها، ولكن بمرور الزمن عذرت روسو؛ لأن حياة أوروبا في زمنه كانت بدون المرأة قفرًا بلقعًا وصحراء مجدبة. فضلًا عن أنه حاول الاتصال بالرجال ولا سيما رجال الدين فرأى منهم ما لم يسر ولا تؤمن عاقبته، وخلة جميلة زادتني به تعلُّقًا وهو حبة الحرية ودفاعه عن الضعفاء ونهوضه لمقاومة أعداء

المساواة الإنسانية، وكانت الرسالة الأولى التي قدمها لأكاديمية ليون «أسباب التفاوت بين البشر» فنالت جائزة. فهذه الأسباب كلها مجتمعة حببَّت هذا الرجل إليّ.

داعية إلى الثورة

أما ذكرى المراجع الإنجليزية التي هدتني إلى كتب روسو فلي العذر في ذلك كل العذر؛ لأنني قبل وصولي إلى مدينة ليون لم أكن أقرأ غير الإنجليزية والعرب لم يكتبوا عن روسو شيئًا فيه غناء لمثلي؛ لأنه ليس مؤلفًا يغريهم؛ لأنه مشهور بأنه من دعاة الثورة الفرنسية وكان المصريون في أول القرن العشرين يخشون ذكر الثورة؛ لأن الإنجليز أرهبوهم وأرعبوهم وأعان الإنجليز على الرعب والإرهاب وغرس بذورهما في نفوس المصريين حب الوزراء والكبراء وطبقة الباشوات للمناصب والمال، وطمعهم في المناصب واعتقادهم — وكانوا على حق — أن الإنجليز وحدهم هم الحاكمون المطاعون، وكانت جرائد الإنجليز تسميهم «أولي الحل والعقد وولاة الأمور» حتى بعد حادثة دنشواي التي لم ينهض لمقاومتها أحد غير مصطفى كامل، وكان سعد زغلول نفسه في وقتها وزيرًا للحقانية (العدل) وكان أخوه وكيلًا له في تلك الوزارة، بل كان أحد القضاة الذين كتبوا الحكم ومهروه بأسمائهم وهو من فريق الباشوات الذين نشئوا من طبقة الفلاحين كما كان أخوه الأكبر، ويزيد فتحي زغلول على شقيقه الذي صار زعيم مصر بعد حادث دنشواي بعشر سنين أنه كان مثقفًا ثقافة فرنسية، وكان عاكفًا على نقل بعض كتبهم إلى اللغة العربية، ولا سيما ما كان ضد حرية الأمم مثل مؤلفات جوستاف ليبون. وكانت غاية فتحي زغلول أن يقاوم النزعة الدستورية في مصر وأن يحارب مصطفى كامل ومبادئ الحزب الوطني. وهذا أمر لم يكن منكورًا في زمنه؛ لأن الإنجليز كانوا أقوياء والمصريين كانوا جهلاء وضعفاء ولا يؤمنون بالوطنية ولا سيما الطبقة المتعلمة المنتفعة بالوظائف وأرادت هذه الطبقة أن تجعل من نفسها أرستوقراطية تتحكم في رقاب الفقراء من الفلاحين وغيرهم، ولم تكن لديهم طريقة غير الزلفى للإنجليز واتخاذهم سادة ليتمكن أفراد هذه الطبقة من اتخاذ الفلاحين عبيدًا.

أرى عند الرجوع بفكري إلى تلك الأيام أن الأفكار تتزاحم عليّ، لا كطالب علم في بلد أوروبي أنا غريب فيه، ولكن كناقد متحرق على تحقيق العدل الاجتماعي في وطنه، أقارن حياتنا في بلادنا بحياة هؤلاء القوم في بلادهم، حياة العقل والخلق والجسد والروح.

تأسيس جمعية مصرية للطلاب المصريين في ليون

أقول: قضيت ما بقي من السنة الدراسية من وقت وصولي في أبريل إلى أوائل يوليو في عذاب النار، وتنقلت في الدور في أحياء شتى حتى اهتديت إلى موليير فقطنت في كنف أرمل حزينة ذات يتيمين تبعث بهما إلى المدرسة في كل صباح، وكنت أواصل الدرس ولا أطمع في التقدم إلى الامتحان في الدور الأول، ولكنني أكافح وأكسب نفقتي بعرق جبيني بالتحرير في جريدة اللواء، وأعمل كشبان أمريكا أنفق معظم ما أربح في التعليم والكتب، وكان قد وصل إلى ليون عشرون طالبًا بسبب دعايتي في الصحف المصرية واقتداءً بي على ضعفي، وكان في مقدمة الذين وصلوا عبد الحليم البيلي وعبد الرحيم مصطفى وأمين عزمي وعبد الرءوف حلمي وإسماعيل كامل وعوض البحراوي ومحمد صادق فهمي ومحمد خيرت وغيرهم عشرات، بعضهم ترك كلية الحقوق الخديوية باختياره كما تركتها مرفوتًا أو مطرودًا لخطبة ألقيتُها في حفلة تأبين مصطفى كامل يوم الأربعين، ففرحت بهؤلاء الواردين واجتهدت في جمع كلمتهم بتأسيس جمعية مصرية للطلاب المصريين؛ ولعلمي بحب الرياسة والتناطح عليها عند كبار الأمة وصغارها محْوت نَفْسي وتواريت واكتفيت بإيجاد الأفكار حتى إذا انعقدت الجمعية العمومية قلت لهم: أقترح عليكم أن تكون جمعيتنا بدون رياسة دائمة بل ينتخب رئيس في كل جلسة أو على الأكثر لمدة قصيرة لا تتجاوز شهرًا. قال أحدهم: ولم هذه البدعة ولم لا ننتخب رئيسًا دائمًا مثلك لأنك صاحب الفكرة، قلت: لسبب بسيط وهو رغبتي في أن يتدرب كل واحد منا على الرياسة ولأجل أن يجود كل عقل بخير ما فيه من الأفكار. ففرحوا بهذا الرأي. وعلى الرغم من الإجماع ابتلانا الله بشخص ثرثار إذا تكلم أشبه صنبور الماء أو نافورة البستان أو نهر الجبل أو شلال الألفاظ الخالية من المعاني يريد أن يكون سكرتيرًا دائمًا بجانب الرئيس المؤقت فوافقت لمجرد الخلاص من ثرثرته ولعلمي بأنه لن يستقر في ليون أبدًا؛ لأنه لا يعرف كلمة فرنسية ولا يريد أن يتعلم؛ ولأنه حصل على تذكرة سفر من مصر إلى لندن ولما مرّ بليون أراد أن يزورها فطاب له المقام أيامًا، ولما أسرف في ملذاته العمياء باع تذكرة لندن بأبخس الأثمان.

أحوال الطلاب المصريين في ليون

كما بلينا بعامي أمّي صنعته خباز في بورسعيد اسمه الغزولي، وثبت على ظهر باخرة هاربًا حتى وصل إلى مرسيليا ومنها إلى ليون وبحث عنا حتى اهتدى. إلى هذا الحد وصلت شهرة المصريين في ليون حتى لجأ إليها الأميون والعاطلون والهاربون من أنحاء القطر. وقد تخذوا قهوة البيت الذهبي Maison d'orée للجلوس ولعب النرد والسمر فترتفع أصواتهم إلى عنان السماء، وتتعدى حدود القهوة إلى الطريق حتى يسمعها المارة، فكنت أمر بساحة بلكور فأسمع ضوضاءهم فأعلم أنهم في المقهى، فإذا خلا المقهى منهم وكان فيه ألف جالس لا تسمع لهم صوتًا ولا تسمع منهم إلا همسًا. فإذا جلست إليهم وكان هناك فرقة موسيقية علت أصواتهم على أعلى آلات العزف، ولو كانت من النحاس، بل ولو كان بينها بوق إسرافيل أو لو نفخ في الناقور فإنك تسمع أصواتهم ولا تسمع الناقور!

ثم إذا جلست تسمع عشرين صوتًا في وقت واحد فلا تعي شيئًا ولا تفهم رأيًا ولا يتاح لك أن تدرك قصدًا مما يقال.

ولذلك أخذت أتجنبهم بالتدريج توفيرًا لوقتي؛ لأنهم كانوا يجلسون هناك بالساعات الطويلة كآبائهم وإخوتهم في مقاهي مصر وهم يتكلمون العربية العامية فلا لغة فرنسية حفظوا ولا علمًا وعوا، وكان بعضهم يقامر على النرد ثم يختلفون فتشتعل نيران الشجار بينهم كعوام الأمم الأخرى، وبلغني أن أحدهم قال لهم يومًا وهم في حرارة الشجار والمقامرة والفراغ والكسل والثرثرة: يا لشماتة أعدائنا فينا!

قالوا: ماذا تقصد؟

قال: أهذه حياة طلاب علم اغتربوا في سبيل المعرفة ورفعة الوطن. ثم سرد لهم أخطاءهم وقال: إن بعضهم لا يعرف باب الكلية. وبعضهم لم يره لامبير ولا مرة وبعضهم مقيم في الريف، وقد احتظى واتخذ السراري وأخذ ينفق عن سعة إيراد أطيانه في صعيد مصر ويتكلم بلسان عربي بلهجة أهل الصعيد. ورأيت كل ذلك وعانيته وأنا صامت أتحرق وأرجوا أن يعتدل مزاجهم بعد أن يطفئوا جذوة الشباب؛ لأن المصري إذا فلت من المراقبة يكون كالشبل أو كالمهر الذي شم رائحة الحرية للمرة الأولى فيهيم على وجهه، ثم إن الشباب شعرة من الجنون.

أنبغ الطلاب

على أن هذه الدفعة الأولى التي وردت أواسط ١٩٠٨ وأواخرها وأوائل ١٩٠٩ انطوت على أنبغ الطلاب ومثلهم كطلائع المهاجرين من مكة إلى المدينة، وقد أعانهم الله على النجاح، فحلقوا في أجواء القانون والأدب والتاريخ والاقتصاد والسياسة وسائر العلوم الفرنسية باشتياق وإقبال حتى حازوا أعلى الدرجات، وظهر منهم نوابغ وفحول هم دعائم النهضة الحديثة التي بدأت في أوائل القرن العشرين في مصر، فالحمد لله على ذلك، وهم الذين أجابوا دعوتنا لعقد المؤتمرات الوطنية في جنيف وباريس وبروكسيل في ١٩٠٩ و١٩١٠ و١٩١١، فكانوا جيش مصر المجاهد وتلاميذ مصطفى كامل وأبناءه البكر، وهم الذين نهضوا بأعباء ثورة ١٩١٩ بعد أن غرسوا بذورها وتعهدوها بالسقيا، وهم الذين نفخوا في رماد الأمة فأشعلوا النار المقدسة في قلوبها.

دع لنا جزائرنا

فالتربة الفرنسية صالحة لنماء النهضات بلا ريب إذا لم تكن لفرنسا فائدة في إخمادها وإطفائها كما شهدت بالتجربة. فقد حدث في تلك الأيام أن تقدم جزائري اسمه ابن علي فخار وهو مسلم من تلمسان إلى امتحان الدكتوراه، ونجح وقدم أطروحة (تيز) في القراض وهو نوع من المعاملات النقدية المعروفة في الشريعة وتقدم بثيابه الوطنية لفحص أطروحته بالكلية أمام الأساتذة وحضر المصريون جميعًا وفاز بدرجة عالية، وتأثرت جدًّا بنجاحه وكان بيني وبينه مودة وكان يكلمني بالفرنسية؛ لأن الفرنسيين نجحوا في تجهيله وأبناء وطنه باللغة العربية، فكان إذا كلمني بها بلهجة أهل الجزائر لا أفهمه وإذا كلمته بلهجة مصر لا يفهمني، فاضطررنا نحن العربيين من شمال أفريقا أن نتكلم بلغة أعدائنا الأجنبية. فلما كان يوم الاحتفال بأطروحته أردت أن أتخذه قدوة وأؤدي له تحية وأشجع المصريين، فكتبت مقالًا مسهبًا في وصف الاحتفال ونشره اللواء، وجاء فيه عفوًا قولي: «إن أهل الجزائر وسائر شمال أفريقا عرب مثلنا ومسلمون يتطلعون إلى الحرية والاستقلال، فمتى يأتي اليوم الذي ينضم فيه شمل جميع العرب تحت لواء الحرية بعد خلع نير الاستعمار والاستبداد، إنني أرى في الأفق وميض برق، وأتخيل السيد الأستاذ ابن علي فخار من حملة الشعلة التي تضيء المستقبل»، ونشر اللواء هذه المقالة في صدره وورد في البريد على بعض الطلاب المصريين بإمضائي «قارئ ناقد» في شهر يونيو ١٩٠٨.

وحدث في يوم وصول البريد بهذا العدد من اللواء أنني غادرت الكلية مبكرًا حوالي الظهر، وقابلت ابن علي فخار ولكنه لم يرني ورأيت في يده اللواء منشورًا ووجهه غاضب وممتقع ولم أفهم لهذا الامتقاع سببًا. وقصدت إلى منزلي وبعد قليل وافاني رسول من قبل الأستاذ لامبير يطلب مقابلتي فأسرعت إليه، فوجدت في يده عدد اللواء ووجهه أصفر كالكركم يقطر غيظًا وجبهني بقوله: يا عزيزي لطفي إنك خربت بيت ابن علي فخار تحت ستار الوحدة في الدين والعواطف، وسوف يطرده المجلس البلدي في ليون من وظيفته التي هي مصدر عيشه وأسأت إليه من حيث أردت الإحسان.

فقلت له: وكيف كان ذلك يا أستاذي الأعز؟

قال: خذْ ألست كاتب هذا المقال؟

قلت: نعم.

قال: إنك تدعو إلى الثورة في الجزائر وفي شمال أفريقيا. اعمل معروفًا فينا واترك لنا جزائرنا وتونسنا ومراكشنا واصنع ما بدا لك في الإنجليز دفاعًا عن مصر.

قلت: إنني أمجد كلية الحقوق وأستجلب الطلاب المصريين وألوّح لهم بالمجد وأعمل على جمع كلمتهم حولك، وأنت حامل لوائنا ووالدنا والداعي لخيرنا ومؤسس نهضتنا وصديق مصطفى كامل وشريك جهاده في آخر سنة من حياته.

فلم أنل من الرجل غايتي ولم تنفع معه حيلتي.

وقال لي: ولو! اصنعْ جميلًا واترك لنا شمال أفريقتنا (هكذا) واصنع بالإنجليز لأجل وطنك ما بدا لك. لقد أسألت إليّ شخصيًّا.

فقلت له بحزم يكاد يكون يأسًا: لم أعلم قبل اليوم أن تونس والجزائر وشمال أفريقيا ملك لكم بل هي ملك أصحابها.

قال: لو رأيت رأس ابن فخار (أي: وجهه) وما عليه من الغضب والقنوط لفهمت قولي.

قلت: ولكن يا سيدي إنه ليس كاتب المقال بل أنا، وليس الموعز به؛ لأنه لا يفهم شيئًا ولو كان يفهم لعدّه مفخرة. فأنا لا أبالي به، ثم إنك علمتنا التضحية والبذل في سبيل الكرامة فاستقلت من منصب نظارة مدرسة الحقوق الخديوية لأجل كرامتك، ولم تخضع للإنجليزي دنلوب فكيف تعيب علينا الدعوة للحرية؟ سلام عليك.

وخرجت غاضبًا وصممت على أن أطلب تحويل اسمي إلى كلية باريس أو بوردو أوديجون (هذا جائز وسهل)، فبعث في أثري بالأستاذ عزيز ميرهم وكان طيب القلب

فقال: خير وسيلة للمخرج أن تعتذر للأستاذ لامبير وتكتب خطاب أسف لابن علي فخار فلم أر جوابًا على كلام هذا الرجل الطيب (ميرهم) إلا نظرة جهنمية من النظرات التي أنستنيها مذلة طالب العلم في البلد النائي، ووحدة المسكن، ولكنني وجدتها الساعة وأدركها هو وأدرك ما وراءها وقال: «أنا ما لي وما لك قل وافعل ما بدا لك أنا واسطة خير ليس إلا» قلت له: أنت تحلم يا عزيز وتتكلم كأهل الكهف! ثم اطمئن فإنني عقدت العزم على مغادرة ليون إلى الأبد. فقال: كيف تترك ليون؟ إن لامبير يبني عليك كبار الآمال، ويتنبأ لك بمستقبل عظيم. قلت: لو كان هذا حقًّا ما صدمني في أعز شيء لدي ومع ذلك فالبركة فيمن دعوت ولبى دعوتي السلام عليك.

وعدت إلى منزلي. وبعد قليل تنازل الأستاذ الكبير إدوار لامبير بزيارتي، فخجلت واعتذرت إليه عن خلو داري من مظاهر الفخامة والغنى وقلت له: اعتبرني مجاورًا في الأزهر. وضحك قال: إنهم في الأزهر يعيشون على الحصير في حالة تقشف تكاد تكون كزهد النساك، ما هذا الذي سمعته من ميرهم إنك اعتزمت على الرحيل ومن ذا الذي يتركك تفعل ما تشاء قبل أن تدخل الامتحان الأول؟ ألا ترى لي حقًّا عليك أرشدك إلى ما فيه الخير حتى تتم دراستك، هل تكبدت كل هذه الأهوال ليشمت بك دنلوب وهيل (ناظر مدرسة الحقوق) وقمحة (وكيلها) وكل أعداء مصطفى كامل، وتزيد فيك شماتة ديرو زاس ذلك الفرنسي الذي نسي وطنه؟ أمازح أنت؟ ومن يقابل فريد بك عند وصوله بعد أسبوع، ومن يلقي دروس الشريعة الإسلامية بالفرنسية على إخوانك في العام المقبل؟ أتريد أن تهجر المعسكر بعد التجنيد وتفر من خدمة وطنك. فضحكت وقلت له: إن ميرهم لم يفهم قصدي أنا أسافر بعد زمن في أواخر يوليو لأستريح في سويسرا أو هوت سافوا إلى نهاية العطلة المدرسية ليس إلا.

وفي نهاية الحديث قمت مع أستاذي وصحبته إلى باب داره زيادة في تكريمه لتنازله بزيارتي، وما أنا في العير ولا في النفير وأنا أضعف أبناء وطني وأقلهم شأنًا.

دعوات لامبير إلى مائدته

وكان هذا الرجل الفاضل قد غمرني بفضله وعطفه، وبالغ في إكرامي وأكثر من دعوتي ودعوة إخواني إلى ضيعة له في ضواحي ليون (كولونج سيرسون)، ولا سيما بعد أن غادرت زوجته الضيعة وبقيت أختها وهي صبية مليحة كريمة؛ لأن مدام لامبير كانت شحيحة فإذا دعانا لامبير للعشاء ونحن عصبة لا تعدّ لنا إلا لونًا واحدًا من الطعام

وتقول: خذوا كفايتكم أيها السادة من هذا الطبق وهو المفرد العلم والصحن الأوحد في المائدة. ولما علمتُ ذلك كنت أتعشى قبل ذهابي إليها، وأتعفف وأمتنع عن اللحم والقهوة والنبيذ والحلو كعادتي، فإذا مرَّ بي وعاء الحمص الأخضر أتناول ثلاث حمصات وأقول بالعربي لإخواني: لأجل أن لا أخرج من المولد بلا حمص، فلما ترجمت للامبير كاد يغمى عليه من الضحك. ولما رأت السيدة زهدي قالت لي بمسمع من إخواني وهم يأكلون ملء بطونهم ليتعظوا: إن موسيو لطفي ملك من السماء إنه لا يأكل اللحم ولا يذوق النبيذ ولا يدخن، ويتحدث على الطعام يعظكم لعلكم تهتدون!

فلما سافرت للاصطياف وخلفتها شقيقتها وكانت فاضلة وجميلة وعذراء وحسناء، وترأس المائدة لثلاثين شابًّا مصريًّا يتأنقون ويتعطرون ويتزينون، أخذت تتفنن في طهي الطعام وتعديد ألوانه والإكثار من دجاج بريس (يشبه الدجاج البجاوي بمصر وهو أسمن الدجاج وأفخره)، وقال لامبير: «عليكم يا أبنائي الأعزة أن تأكلوا وتمرحوا فإن المنزل في يد سخية تود صاحبتها أن تسرفوا في الأكل حتى تتذكروا وطنكم الكريم الشهير بأطايب الطعام، فلا تخشوا أحدًا ولا تخافوا رقيبًا ... إلى أن تعود مدام لامبير».

وضحك فضحكنا وشمر الفتيان عن سواعد الجد، وفتحوا اللها وأبرزوا الأنياب والأضراس وأنشبوا المخالب والأظفار في الأطباق، ورووا حديث استغفار الأوعية للاعقيها، فقالت الآنسة: أشكركم على أنكم خلعتم شرفًا على مائدتي التي هي مائدتكم. وفي آخر حفلة ارتجلت خطبة قصيرة في ذكر مآثر لامبير وزوجته وهي أولى الكلمات التي نطقت بها بالفرنسية في جماعة، وكنت من قبل أخشى أن أخاطب مفردًا مذكرًا كان أم مؤنثًا دع عنك المثنى والجمع.

مقاساة

لقد قاسيت أثناء إقامتي الأولى في ليون في هذه الأشهر الأربعة صنوف الحرمان بأنواعه، وذقت ألوان المرض وشعرت بألوان من الآلام بسبب لا يدركه أحد إلا إذا وقف عليه.

إنني غادرت المدارس الثانوية فاشلًا في الحصول على الشهادة الثانوية في أواخر سنة ١٩٠٣، وتعقدت في وجهي أسباب الاستمرار في الدراسة، وتغيرت ظروف حياتي فسخطت على الحياة وغضبت على التعلم وضاقت في نظري سبل النجاح وأرغمت على العمل لأكسب القوت الضروري والكساء، وتعلقت بالأدب والصحافة فعملت فيهما وحسنت حالي بعد قليل وادخرت مالا تمكنت به من السفر إلى أوروبا سنة ١٩٠٦ وعدت

واشتغلت بالتحرير والترجمة وتعودت السعة في العيش والبذخ في النفقة، فلما رأيت أن أعود إلى التعليم من جديد وطلب الحقوق في بلاد الغربة، نضب معيني وجف مصدر الكسب، فاضطررت للقناعة بالكفاف بعد أن تعودت طول حياتي سعة الرزق، ولكنني استهنت بكل شيء في سبيل تحقيق غايتي، قاسيت الحرمان في كل باب، وترفعت عن كل شيء لا يترفع عنه من كان في سني، وقاسيت القيظ في ليون وهو أشد من حرّ مصر ثلاث مرات، وكدت أمرض بضربة الشمس مرات، وتعودت السير على أقدامي مسافات طويلة، وأنا أتصبب عرقًا وأشعر بالدوار وقد حكمت على نفسي بقصر غذائي على الخضر والفاكهة دون اللحم والنشويات، ففقدت المقاومة مع الإجهاد في الدرس، واعتكفت في كسر بيتي معظم الوقت لأحفظ نفسي من التبذل مع إخواني الطلاب المصريين، وكان بعضهم أكبر مني سنًّا ولكنهم ينظرون إلي نظرة الإعزاز والتعظيم، فأردت أن أحتفظ بهذه المهابة لأخدمهم، وبقيت بثوب واحد لا أبدله ثمانية أشهر واكتشفت أخلاق ثيابي وتمزيق نعالي ولم أتعود أن أرقعها؛ لأنني كنت في مصر أربح ثلاثين جنيهًا في الشهر وأصنع ثيابي من أجود الأصواف وكذلك أحذيتي من أفخر الجلد.

فيا هول اليوم الذي ذابت فيه نعالي وحالت ألوان ثيابي، وتمزقت أقمصتي ولم أستطع أن أصنع ثوبًا جديدًا ولا أشتري حذاءً لامعًا وأنا في أعز وأحلى أيام الشباب! وحولي شباب وراءهم ثروات طائلة ينفقون منها على مطالبهم، ورضيت أن أروح وأغدو بثوب شتوي ثقيل باهت اللون كنت ألبسه وأعتز به في شهر طوبة في مصر فقبلته في بئونه في ليون القائظة وهو من صنع ألكسندر الكبير الطرازي الشهير بلندن فبقي من آثار النعمة، وقرأت في تلك الأيام في درس الأستاذ منيون شعر دانتي «ليس أقسى على النفس من تذكر النعيم في أيام الشقاء» وأنا أريد والأيام تريد ولامبير يريد أن أكون زعيمًا لهؤلاء الطلاب الأغنياء ورئيسهم ومقدمهم وباقعتهم فكيف السبيل؟ ليس لي إلا الانزواء. فكنت أحرق الإرم وأعض على شفتي ولساني، وقلت: لو علمت أن هذا الثوب سيصحبني في هذا البؤس بعد أن سمعت مصطفى كامل باشا يعجب به ويسألني أين حكته ومن صانعه؟ فأجيبه وأنا منتفخ الأوداج صنعته في لندن يا سعادة الباشا! لو علمت مستقبل هذه البدلة لأحرقتها قبل أن يكتب عليّ هذا البؤس المرير، وكذلك الحذاء الذي أخذ يتحول بالتدريج إلى سلفه حذاء أبي القاسم، أنا الذي كنت أكرم قدمي بتفصيل الأحذية المدهشة من أفخر الجلد المسكوفي اللين العطر أروح وأغدو وقدمي على بلاط الشارع معرضة لمسمار يخرقها، وقد يكون مسممًا. كما أخذت أمشي كمن يمشي

على قشر البيض على مهل أتبين مواضع القدم كالأعمى الذي يتحسس وشعرت بطائف من الجنون يكاد يلتهم عقلي.

ولكنني لم أسخط ولم ألعن ولم أغضب ولم أذرف الدمع ولم أحن إلى الوطن والأهل؛ لأنني كنت قوي الأمل وأتوهم أنني قوي الإرادة. وقلت: لو لم أفرض على نفسي العفة عن النساء واللحوم والخمر والدخان، فماذا كانت تكون حالي؟ لقد ألزمت نفسي الحرمان فلم أشعر بكل آلامه واكتفيت بأن أبعث إلى مصر في طلب ثلاث أو أربع بدلات من التي خلفتها وبعضها جديد لم ألبسه. ولا أدري أية غفلة وأي خبل جعلني أتركها ورائي مختزنة تأكلها العثاء في الصناديق القديمة المهجورة في البيت المتروك، لقد فررت من مصر بأعز ما عندي وهو أملي وطموحي وخلفت كل شيء من أعراض الدنيا عدا قليلًا من الكتب، ولم يفكر أحد من أهلي في إغاثتي بإرسال صندوق وجيه يشمل ثيابي وبعض كتبي، فكنت من الأعيان النبلاء في قلبي ومن أهل الفاقة في مظهري.

فأخذت قلمي وكتبتُ كتاب استنجاد ليرسلوا إلي بعض البدل وبعض النقود، وأنا أتحرق واليأس يكمن في قلبي من إجابة طلبي، ومن تلك الأيام نشأت في نفسي فكرة الخوف من المطالبة بحقوقي، وأسأت الظن بكل من أرسل إليه في طلب شيء هو من حقي. إن لم تكن هذه عقدة نفسية فماذا تكون؟ إلى اليوم أتردد وأكاد أتأكد أن لا يصلني شيء مما أطلب، وفقدت الثقة في معظم الناس، ولعمرك تلك الثقة إذا فقدت لا تعود، ثم ازددت زهدًا وبغضًا للمال الذي كان يجري بين يدي في أوقات لم تكن لي به حاجة ملحة ثم تلاشى ونضب وأنا في أشد الحاجة إليه، أليس هذا ما يطلق عليه الإنجليز لفظ "frustration" خيبة الأمل والرجاء؟

وحدث أنني شعرت من لامبير أنه أشار من طرف خفي في استحياء أنه مستعد لمعونتي بقرض حتى يصل المال إلى يدي، فضحكت أمامه وشكرته وعدت إلى غرفتي لأبكي وألازم الفراش ثم تجنبت لقاءه، ولم يتركني المصريون بألسنتهم في تلك الفترة فاتهموني بالتكبر والتعاظم والتعالي والتعالم وغموض الحياة وأنني لا أقابلهم؛ لأنني أخلو بمعشوقة غريبة الأطوار مثلي، وذهب بهم الخيال إلى وصفها كأنهم رأوها وترامت إلي غيبتهم، فعذرتهم والله وضحكت ذلك الضحك الذي قيل: إنه كالبكاء.

٣

ماري مادلين

حدث في ليلة من ليالي القمر في يوليو أن زارني في بيتي أحمد طاهر وهو طالب طب من أصلاب باشا تركي وأم زنجية، وكان شديد الدهاء سيئ الطوية، فدخل علي بحيلة أنه جاء ليزورني؛ لأنه اشتاق إلي، ثم استدرجني للخروج معه إلى بارك تيت دور «بستان رأس الذهب» وهو في أقصى المدينة، ولكنه أشبه البساتين بهايد بارك وكان المنظر جميلًا ونور القمر يغمر الأشجار والأزهار والهواء عليلًا، ولم تسبق لي زيارة هذا البستان فحمدت له هذه المكرمة، وعلى وفرة غنى هذا المولد فقد كان شحيحًا إلى الدرجة القصوى حتى ليحاسب على السنتيم (الجزء المئيني من الفرنك) أي: أنه دوانيقي وكان محبًّا لنفسه لأعلى درجة ولم يخطئ قط من وصف هذا الصنف بقوله: «ابن الأمه ما ألأمه»، وانظر إلى الدور الذي لعبه معي وأنقذني الله منه.

فإنه بعد فترة قصيرة في البستان اشتبك في سرعة البرق بامرأتين إحداهما قصيرة بادنة ذات صوت أجش وطبع خشن تطلق على نفسها اسم «تيريز راكان»، وهو اسم امرأة من دواعر إميل زولا تتواطأ مع خليلها على إغراق حليلها ليخلو لهما الجو، وكان اختيار المرأة لهذا الاسم لم يأت عرضًا ولا مصادفة بل قصدًا لتدلك على ميولها وطبعها، وسرعان ما تأبط طاهر ذراعها كأنه يعرفها من سنوات. وكانت تصحبها فتاة كزهرة الربيع جمالًا وطهارة، تبدو عليها المسكنة والحياء والاضطرار لمصاحبة تلك القصيرة الدميمة الجبارة التي اختارت «العبد والعصا معه».

ورأيا أن يتخلصا مني ومن الفتاة البريئة بتركنا معا، وتوغلا هما في أدغال البستان وبقيت الفتاة معي صامتة في ضوء القمر وتكاد الأرض تنشق وتبلعني، فأنا في أقسى الحرمان وفي أشد الزهد والنفور، والفتاة ذات حسن وبراءة لها وجه وضاء وشعر فاحم ويدان كالعاج دقة ولونًا، ناطقتان كأن أناملها ألسنة عذبة تشير وتنطق ولها نحر جميل عقلت فيه حلية فضية تنتهي بصليب، ولكنها في شدة الخجل والطهارة. فقالت لي بعد طول الصمت: ما اسمك وأين تقطن وماذا تدرس؟ فأجبتها وسألتها عن اسمها فقالت: ماري مادلين (اسم مقدس طاهر)، فقلت لها: ولم تصحب مادلين تيريز راكان الفظيعة الفظة الغليظة القلب والشفتين، فحدجت بي الفتاة وقالت لي: لقاء مصادفة، ومن أين لك هذا الأسود أمن أهل مارتينيك (جزيرة يملكها الفرنسيون)، فضحكتُ وشر البلية ما

يضحك، وقلت لها: إنه زنجي أفريقي. فضحكتْ وقالت مثلًا فرنسيًّا يقرب من قولك: وافق شنٌّ طبقه. وأخذت «تدندن» بصوت رخيم وتنشد أغاني بريئة كالأطفال لتسري عن نفسها في رفقة رجل «لوح» مثلي لا يشعر بمحاسنها ولا ينطق بكلمة إعجاب أو حب، وهي لا تعلم ما بقلبي من الحنين والخوف والشك، وأخيرًا قالت لي: لا بد أن صاحبك قطع شوطًا بعيدًا مع تلك المخلوقة المرعبة، ففطنت إلى قصدها وأنا جد جذلان بأنني أتكلم مع فتاة كلامًا يمت إلى الحب ولو بأضعف صلة، وقلت لها: اسمعي يا آنسة مادلين! إن الطبائع تختلف فأنا مثلًا رجل خجول، ولا يمكنني أن أتمتع بحريتي مع فتاة إلا إذا عرفتها مدة طويلة وحدثت بيننا ألفة حقيقية، وأنا احترامي للفتاة يأبى علي أنتهز الفرصة وأتصل بها على عجل في ليلة قمرية في بستان عام بعد لقاء مصادفة، هذه حقيقة حالي فلا تصفيني بالجمود أو الفتور، لا تنسبي إليَّ التقصير في حق جمالك، فتناولتْ يدي وضغطت عليها وقالت: وأنا كذلك، واقتربت مني حتى لاصقتني فأشعلتني ولكن همومي كانت أثقل من أن تستخفها تلك الملاصقة.

ثم مالت إليّ وقالت: أين تقطن؟ قلت لها: شارع أوجست كومت رقم ٥٦. قال: وأنا أقطن على مقربة منك فنحن إذن جيران. أتستضيفني الليلة؟ قلت لها وقلبي يرتجف من الانفعال: على الرحب والسعة. قالت: وهل صاحبة البيت ثقيلة تنهاك عن الضيافة؟ قلت لها: وأنت هل تقبلين المبيت خارج بيتك؟ قالت لي: أنا لا يهمني، فقلت لها: وأنا لا يهمني.

قالت: إذن ماذا يدعو لبقائنا هنا وقد أوشك الليل أن ينتصف؟

قلت لها: وأنا أريد التخلص منها بكل حيلة: وصاحبتك أتتركينها؟

قالت: قلت لك: لقاء مصادفة، ثم إنها بعد أن عثرت على هذا الزنجي لن تفارقه حتى الصباح؛ لأنها تشم الأثير وسمعتهما يتهامسان باسمه.

قلت لها: وما هذا الأثير؟ قالت: وأي طالب أنت؟ إنه مخدر قوي ينفعهما في الحب. أراك بسيطًا مثلي. هيا بنا ودع تيريز راكان مع عبدها. ونهضتْ وأخذت بيدي وتأبطت ذراعي وهي تدندن مرحة وتثرثر، فشعرت بنشاط ونسيت نصف همومي، وأسرعنا الخطى حتى خرجنا من باب البستان وأنا لا أدري ماذا يكون من أمرنا، ولكنني أشفقت على الصغيرة التي رضيت بي واعتمدت عليّ، لقد اعتمدت على جدار متهدم وعاشق معدم!

وأخذنا نسير في الشوارع التي يغمرها نور القمر كأننا ذاهبان حقًّا إلى بيتنا وهي معتقدة ومتأكدة. حقًّا إن الإيمان ينقل الجبال وهي تهذي وتبدي وتعيد فرحة طائشة

كالفراشة. وأنا سابح في بحار التفكير لأخترع حيلة للخلاص منها، أو توصيلها إلى دارها على الأكثر. وكنت من دقيقة إلى أخرى أنظر إلى عنقها المحلَّى بحلية الصليب الفضية وإلى عينيها الدعجاوين، وشعرها الفاحم وصدرها البارز وقدها التارز وثوبها الرخيص الأنيق وقبعتها المحلاة بثمرة الكريز وأزهاره.

وأخيرًا قالت لي: اسمع يا موسيو (كقولك: اسمع يا هذا) إن التقبيل جائز في نور القمر ولو في الشارع. ألم تألفني بعد؟ فخجلت من نفسي وقبلتها في جبينها وقد اخترت جبينها؛ لأنني أعلم أن القبلة فيه رمز الوداع ودليل البراءة والابتعاد عن الشهوة، فضحكت وقالت: يا لك من عفيف تقبل قبلة الوالد والأخ الشقيق ... ألم يستهوك غير جبيني؟

قلت لها: لأنه وضاح عال مشرق. فراقها ذلك وضغطت على يدي، ثم لصقت بي وأخيرًا دنونا من البيت، بيتي ووقفنا فقالت: ماذا بك؟

قلت لها: هل أنت مصممة على قبول ضيافتي؟

قالت: أنا التي طلبت ضيافتك ولكن إذا كان هذا يحرج موقفك أو كنت متأخرًا في سداد الأجرة حتى تسهر العجوز لمراقبتك والتضييق عليك، فأنا لا أجبرك ولا أحرجك ولكنني سأشقى طول ليلي وربما غداة غد أفهمت؟

وعندما قالت هذا الكلام انتفضت حاقدًا على الدهر وعلى الليل والقمر، ولاعنًا أحمد طاهر وتيريز راكان والصيف والقيظ والشتاء والأرض وبعض كواكب السماء، وعاودتني شجاعتي ومجازفتي وفتوتي ويأسي ... وقلت لها: صهٍ يا آنسة! تفضلي اصعدي. لسنا في حاجة إلى نور الثقاب فإن السلالم مضاءة.

فتقدمت وداست الدرج في رشاقة وخفة كخفة من يدب دبيبًا وتبعتها وتصنعت الضوضاء لأطمئنها. وكانت مدام جيجال التي أسكن عندها أرملة طيبة القلب شهدت باستقامتي وسوف تلتمس لي عذرًا؛ لأنها متمسكة بي لما وجدت من الراحة في جواري، وصعدنا وفتحت الباب ودخلنا وأنا أتكلم بصوت مرتفع لأنفي فكرة الخوف عن مادلين. ودخلنا وأشعلنا ضوء المصباح ودبت الحياة في الغرفة التي لم تشهد قبل هذه الليلة ولا بعدها صورة امرأة، ولم يرن في أركانها صوت أنثى ولم يتعطر أثاثها بأريج بنت من بنات حواء.

ولما جلست مادلين في ضوء النور القوي بعد ضوء القمر الباهت ظهرت لها محاسن كانت خافية، وأنعمت النظر في جبينها الذي قبلته وأنفها الجميل وأذنيها الصغيرين

وشفتيها الرقيقتين وعينيها الدعجاوين المشعتين ينبعث منهما وهج غريب. اضطجعتْ على مقعد رحب وخلعت حذاءها لتستريح ولم يكد يستقر بنا المقام حتى سمعت نقرة خفيفة على الباب، فارتجفت الفتاة مذعورة وامتقع وجهها، وأما أنا فقد صممت على القتال والشجار لو أن الأنثى جيجال نطقت بكلمة أو نبست ببنت شفة عتابًا أو تصنعًا للغضب لكرامتها، فإن عندي من أخبار نساء ليون ما يكفي لرجم شياطين بلاد الجمهورية الثالثة كلها!

وفتحت الباب على مصراعيه ورأيت وجه السيدة وقلت: «ادخلي من فضلك» فارتبكت وقالت: شكرًا لك يا سيدي ولكني جئت لأسألك إن كنت في حاجة إلى خدمة أقدمها بين يديك. عندي لحم بارد وجبن ومربى البرتقال، وعندي بيض أستطيع أن أعده لك عجة أو مخفوقًا أو أنضجه قرعًا وقلعًا وخبز طازج، فضحكت وسألت مادلين وقلت لها: ألك يا عزيزتي ma chére في شيء من هذا؟ فاحمر وجهها وقالت: كلا، فبادرتُ مداد جيجال وقلت: بما أنك أرقت بسببي وتفضلت عليّ فكأنك قرأت ما في نفسي بعد نزهة طويلة متعبة، فهاتي من كل ما ذكرت نصيبًا. فقالت: حسنًا يا سيدي، وخرجت وهي تغلق الباب وراءها، فنهضت مادلين ووقفت أمام المرأة مصادفة وقالت: كيف تكلف العجوز كل هذا التعب في هذا الوقت من الليل؟

قلت لها: أوتظنين حضورك عندنا لا يساوي وليمة فاخرة.

فدنت مني وطوقتني بذراعيها وقالت: وأنا التي أسأت الظن بك، وحسبت أنك تريد التخلص مني فتلقاني بهذا الكرم. هل تمت الألفة بيننا فتسمح لي أن أقبلك … في جبينك دقة بدقة؟

واستأذنتُ مدلين في الانزواء خلف ستار لأخلع ثيابي وحذائي خشية أن تلحظ ما لحقها من بوار، ولبستُ ثياب الراحة ووضعت فوقها عباءة دمشقية اشتريتها من الشام في سنة ١٩٠٣ من سوق الحميدية، وهي من آثار الغنى القديم وهي من الحرير المخطط بألوان زاهية، ووضعت على رأسي طاقية سوداء مزركشة بالقصب هندية الصنع وانتعلت خفين حمراوين (كتنلة)، فلما رأتني بهرت وقالت: «سلطان مراكش»، فضحكت وسري عني وكأن حملًا ثقيلًا رفع عن كاهلي، وشعرت بما لم أشعر به من شهر سبتمبر في السنة الماضية منذ عزمت على طلب الحقوق في مصر وتركت عملي الذي كان يدر علي ثلاثين جنيهًا في الشهر، تركته باختياري وضحيت به في سبيل العلم والوطن … وقذف الرحمن في قلبي طمأنينة غريبة، كانت فارقتني، فقلت: هذه بوادر القنوط؛ لأنه إحدى

الراحتين، ولكنني كذبت هذا الشعور الأخير وبدأت أفرح من قلبي، فاستبشرت خيرًا وتفاءلت بقدوم مادلين إلى غرفتي.

وسرعان ما دقت السيدة جيجيال الباب ففتحت لها ودخلت وبين يديها خوان عامر أشبه شيء بسماط العرب لما حوى من الأصناف المتعددة، فقد كان البيض كالمشمش الحموي، وأضافت إلى الأصناف التي ذكرتها قطعة ضخمة من الزبدة، وأحضرت رغيفًا ضخمًا من خبز ليون الذي هو أقرب إلى الفطائر منه إلى خبز القمح، فنهضت مادلين وأعانتها بوضعه على المائدة ثم قالت المرأة في حياء: إنني أعلم أن موسيو لا يشرب النبيذ وإلا فإن عندي منه قنينة معتقة من تعبئة سيكار، فلمعت عين مادلين ونظرت إلي مبتسمة فقلت لجيجال التي تضاعف حبي لها: إنني من شاربي الماء وماء إيفيان وفيشي، ولكن هذا لا يمنع أن الآنسة تشرب النبيذ. ففرحت المرأة وقالت: لك ذلك يا سيدي. وعادت بقنينة طال عليها القدم دفنها راهب في كهف قديم، وفتحتها بدون إذن مني وخرجت وردت الباب وراءها وهمست في أذني «إن الأطفال نيام» فقلت لها: اطمئني، تشير إلى خوفها من ضوضاء العاشقين إذا سكروا ليلًا حتى يقلقوا الرقود ...!

وكان منظر مادلين وهي تقبل على الطعام في رقة واستحياء مع شدة الشهية منظرًا جميلًا حقًّا يبعث السعادة في القلب، ثم تبدت لها محاسن كانت خافية ولكنها بعد أن تذوقت النبيذ قال: لا يليق بي أن أواكلك وأنا في ثيابي ... ولكن ليس لدي قميص للنوم ... فقلت لها: خذي قميصًا من أقمصتي. وفتحت الدولاب أو الصوان (ما أثقلها كلمة!) وأخرجت قميصًا من أيام العز موشّى الأطراف بخيوط حمراء وكأنه مقصوص على قدها.

فلبسته وخرجت ضاحكة ... وملأت علي المكان مرحًا ... وغسلت وجهها وأيديها وتطيبت ببقايا طيب عثرت عليه في قنينة، فرأيت منها وهي في ثياب النوم منظرًا عجبًا، وبانت خفايا محاسنها وأعجبني تأنقها في تناول الطعام، ولا سيما رقة أناملها وكيف كانت تفتح شفتيها فيفتر ثغرها عن لآلئ ثناياها، وكيف كان يجري النبيذ وهو كالياقوت السائل وراء جيدها الشفاف، فيكاد يُرى لرقة بشرتها وبياض عنقها كأنه من فضة ناصعة البياض لامعة الأديم، وقد حدثتني نفسي بتقبيل عنقها وكان أشبه بعنق الظبية طولًا ونقاءً وحسن لفتة، فحرمت نفسي، يا لي من أحمق مريض! غضضت طرفي وأغلقت أذني وأخرستُ صوت الطبيعة الصارخ، إنه لجبن يستوجب الندم. إنه لذنب يستحق الاستغفار ذلك الجمود، ذلك البرود، ذلك التزمت، ذلك التحرك، ولكن أقسم غير حانث إنها شجاعة نادرة.

أخذت مادلين تأكل وتثرثر وتختلس النظر إلي ولسان حالها يقول: «تن تن تن! يا لك من ماكر. يحوي بيتك هذه النعم وتبدو صامتًا خجولًا ولا تتجرأ علي، كيف تهاودك نفسك على الصبر عني، ما أنت ما سرك ما خبرك، ألغز أنت؟ لو لم أطلب ضيافتي عليك بنفسي لخفتك وخشيت على نفسي من هذا الغموض والإبهام»، ولكنها كانت أذكى من أن تقول شيئًا من هذا ولكن عينها كانت تنطق بهذا وأكثر، وكنت آكل قليلًا جدًّا وأدس لها الطعام وأرغبها فيه وأطمع أن تأتي عليه كله.

وبعد أن أكلت حتى شبعت وانتعشت نهضت وقالت: «أحب أن أغسل يدي وفمي وأنظف هذه الصحون والأوعية، فلا أود أن تظن السيدة أنني مكسال»، وفي أقل من لمح الطرف فعلت ما أرادته، ثم أخذت تقلب في كتبي ودعتني للجلوس بجوارها على المقعد الطويل العريض، وأخذت تدعوني بألفاظ التدليل والتحبب، وبدت في عينيها يقظة الفراش وقالت لي: كفانا حديثًا، قم إلى سريرك ونم فلست أقصد إلى أن أقلقك طول الليل، وإن كان لا يهمني السهر الطويل وسأقضي بقية الليل على هذا «الشيزلونج» ويكفيني غطاء هذا القباء (تقصد العباءة) المخططة، ويبدو لي من جماع حالك أن فراشك لم يلمسه جسم امرأة فلا أحب أن أكون البادئة.

فقلت لها: لم تجر العادة يا مادلين بأن ينام الضيف في أقل الفراشين راحة للبدن.

قالت: لنتكلم بشيء من الصراحة، حبًّا بالله، حبًّا بالعذراء المقدسة أنا التي أقحمت نفسي عليك وفرقت بينك وبين الزنجي وإن كان فراقًا لا يؤبه له؛ لأنه صحبة كما أرى لا تلائمك. وقد خلصتني من رفيقة السوء ثم أكرمتني ودعوتني إلى مائدتك فأطمع في فراشك، فإنك إن ضجعت بجواري وهو ما يجب عليك أو ما جرت به العادة فإما أعجبك وإما أكربك، فإن أعجبتك فلن تلقاني غدًا إلا إذا التمستني. ولا أرى يا صاحبي أنك ممن يجرون خلف المرأة العابرة، فتشتاق إلي ويمنعك حياؤك أو استقامتك أو ندمك فيكون في بعض هذا ألم لك، وأنا من جانبي إن أحببتك لا يطاوعني قلبي أن ألقي بنفسي تحت قدميك، لا تكبرًا ولكن حرصًا على مودتك؛ لأن كل معروض يهان ولا سيما في الحب. وإما لا أعجبك فتبغض فراشك وتلعن الساعة التي لقيتني فيها. فسكت طويلًا وأنا شديد الإعجاب بعقلها وتحليلها وإصابتها الحق في كل ما قالت، كما أعجبني جمالها وأدبها في حديثها وطعامها ونظافتها ودقتها على فقرها الظاهر، وهو ما ألقى بها بين براثن تيريز راكان.

وقلت: ما كان أشد عذر الخلفاء الذين دفعوا مئات ألوف الذهب في جارية فطنة أديبة حلوة الحديث أو حسنة الصوت. وما أعظم الفطنة عند هؤلاء الفتيات الفقيرات

اللواتي تقابلهن كل يوم بالمئات في الطرق، وذكرت طبيبي مويسيه وقلت: ما أمكرك يا سيدي عندما قلت لي: خذ لك صديقة صغيرة تسري عنك وتسليك في وحدتك، ما أصدق تشخيصك وأحكم علاجك.

ثم قلت لها: اسمعي يا مادلين! مستحيل أن تنامي على هذا المقعد، وإذا سمحت لي فإنني أضطجع بجانبك! قالت: باختيارك أم تورطًا؟ فضحكت وقتل: مختارًا راجيًا بإلحاح.

وقامت فأطفأت المصباح ونامت.

إن ما جرى في تلك الرقدة لا يهم أحدًا في العالم، ولكنه يهمني وحدي في علاقتي بربي وبري بوعدي ووفائي بعهدي.

إن مادلين كانت كالطفل البريء، لم تكد المسكينة تلمس الفراش بجنبها في الساعة الثالثة بعد نصف الليل حتى أخذ الكرى بمعاقد أجفانها، وقد فعل النبيذ المعتق أفاعيله بعد التعب.

ولكنني أنا لم أنم وأنا الذي تمنيت طول الليل وزوال النوم ووقوف الصبح عن الطلوع، وأنا الذي استمتعت بجوارها وترديد أنفاسها وعبق عطر الأنوثة منها، وأنا الذي سهرت على نومها فلم تأخذني سنة، ولا أمنت الظلام عليها وعجبت لاطمئنانها واستسلامها وتقلبها، ما أعظم تلك اللذة من كل شيء، أن ترى الفاكهة الناضجة، وتشمها وتضمها وتلمسها ثم تصونها، وتكتفي بلونها ورائحتها ويعز عليك أن تخدش قشرتها بيدك أو أسنانك.

إنني أكاد لا أصدق نفسي لو لم أكن متأكدًا ومفيقًا وواعيًا؛ ولذا قلت: إن الفصل في هذه القضية من اختصاص الحاكم العادل العالم وحده. نعم قد عراني الندم بعد ذلك بسنوات، ليس الندم على فضيلة وهي نعمة سابغة، بل الندم على هذا الاستمساك القاتل، وتلك التضحية السخيفة، وخشيتي أن يلتقي نظري بها في اليقظة فترميني بنظرة حقد واحتقار وشك في أنني رجل ... ولكن ما علي، أنا هكذا يا مادلين ولا تسأليني ولا تخطئ في فهمي، ألم تلقي رجلًا جليدًا كأهل الأسكيمو أو القطب المتجمد الشمالي، تالله لو أنني صنعت من خشب أو من ثلج لتحرك الخشب وذاب الجليد، لحى الله عهد الشعراء الذين خرجوا يجرون الذيول تيهًا؛ لأنهم عفوا وهم قديرون.

ومع ذلك فقد وجدت منطقًا سقيمًا وعقلًا عليلًا أنهكه التعب وأعصابًا متعبة أدت إلى النقيضين، شدة الرغبة الصارخة وشدة الوفاء وحرمة العهد الذي أعطيته وأخذته؛

ولذا كوفئت وعوقبت، كوفئت بحسن العاقبة وعوقبت بالحرمان، وقد كانت تلك محنة كاملة وامتحانًا قاسيًا، ولعل شدته أعانتني على أن أجوزه بنجاح! ولم أنم في تلك الليلة إلا غرارًا وفتحت عيني في الصباح فألفيتها نائمة مستغرقة في النوم، نوم الأطفال، نوم براءة الملائكة، إنني لم أر ملكًا ولكنني تخيلته عندما أخذت عيني بالسلام والسكينة والابتسامة الطاهرة، وأول ما أخذ بصري أهداب عينيها ووضوح جبينها وانسجام تقاطيعها وسواد شعرها وغزارته، ورأيت قميص النوم منحسرًا عن ساقيها فتناولته وسترتها في حنان وعطف وبقيت أتأملها في خشوع ثم دنوت منها وقبلتها … في جبينها … ويظهر أن قبلتي كانت حارة؛ لأنها ملآنة بأشواق الليل والنهار والأشهر الطويلة، ففتحت عينيها وصارت ابتسامتها ضحكة مرحة وقالت بصوت جميل: صباح الخير يا سيدي (طعنة نجلاء). هل نمت جيدًا؟ لقد نمت أنا نومًا هنيئًا وحلمت أحلامًا سعيدة.

فقلت لها: نامي واستريحي فليس إلا الفجر ولا تنهضي إلا في الضحى، ولا بد أن تفطري في الفراش؛ لأنني علمت بالخبرة القصيرة أن الفرنسيين يعتبرون الإفطار في الفراش من أكبر النعم.

فقالت: كما تشاء ثم أغمضت عينيها وتقلبت على جنبها الأيمن.

رسول البنك

نهضت ولبست ثيابي وتسللت وقابلت مدام جيجال وهي تعد الإفطار لولديها، وطلبت إليها أن تعد إفطارًا حسنًا. فابتسمت لي وقالت: هل نمت براحة؟ قلت: نعم شكرًا لك وكانت تحوم على شفتيها كلمة تريد أن تقولها. فشجعتها وقلت لها: وأنت؟

قالت: دع الشباب يمر! Laisser passer, Jeunesse تريد بذلك أن تقول لي: إنني أعرف الشباب وأعذره، فقلت لها: آه لو تعلمين يا سيدتي! أرجوك أن تعدي إفطارًا حسنًا. فقالت: سيكون لك ما تشاء، ريثما يفطر الصبيان.

فانحدرت إلى الطريق واشتريت بعض الصحف ولشد ما غاظني قلة المال في يدي في هذا النهار. كنت أود أشتري لضيفتي فاكهة وهي رخيصة لأشهدها تأكل الكريز بشفتيها فيجتمع في نظري فاكهة أنبتتها الأرض وفاكهة خلقها الرحمن وأبدعها. فليس من المبالغة في شيء أن تشبَّه الشفاه الجميلة بثمر الكريز. وكنت أود أن أرى ثناياها تقضم خوخة ناضجة من خوخ ليون الشهي وألوانه تشبه لون خديها، وكنت أود أن أشتري لها أزهارًا ولو قليلة لتشم عطرها في الصباح وكنت وكنت. ولكن اليد قصيرة

والعين بصيرة، لعن الله الحاجة في هذا الوقت وفي كل وقت … ثم تخيلت هذا الصباح الناشئ وكيف يتلوه الضحى وذهابي إلى الكلية وخروجي ظهرًا ثم الغرفة التي ستوحش بعد انصراف الفتاة، فإنها لا بد منصرفة ثم المساء. ولعنت مرة ثانية وثالثة ذلك المولَّد طالب الطب الذي سبب لي تلك النعمة التي تصحبها نقمة الذكرى والندم والحسرة والعودة إلى الوحدة التي اختفى شبحها سواد ليلة قصيرة وأنا لا أدري ما يتلوها وأخشاه.

أليست هذه الحياة عذابًا أليمًا في سبيل المجد والعلا. أين هما وكيف السبيل إليهما، إن الطريق شاقة وعسيرة ومتعثرة ووعرة، وأردت أن أطيل الغيبة عن البيت وقلبي لا يهاودني؛ لئلا تتخذ الفتاة من غيبتي إشارة وإذنًا بالانصراف وقد تكون هي حاقدة عليّ؛ لأنها على كل حال امرأة، وأجمل امرأة في العالم لا تملك أن تعطي أكثر مما وهبتها الطبيعة وها هي عرضته ومنحته في سماح ودعة وسخاء … ولكن المعروض عليه تنحى في لطف وأدب فهل يكفيان في الاعتذار. ولكن في حقيقة الأمر ما عذري؟ وهل تفهم مادلين العهود والوعود وآمالي وظروفي وخوفي من النساء. وها هي نظيفة سليمة جميلة وما لها وللتعفف وفتنة النساء، إنها تريد ما تفهم من لفظ «الحب» عند الفرنسيس لا أكثر ولا أقل. ولا بد أنه وقر في نفسها أنها لم تعجبني أو أنني على الأقل عنين، يا لها من فضيحة فإنه لن يدخل في ذهنها أي عذر أبديه لها فخير لي أن أتخلص من هذه الأوهام وأعتبر هذا اللقاء وتلك الليلة كأنها لم تكن، وأن أعمل كل جهدي على نسيان الذكرى بعد أن أودع الفتاة وداعًا حسنًا. وبعد أن صممت واعتمدت وتوكلت عدت إلى البيت مطمئنًّا.

لقد حازت مدام جيجال إعجابي عندما عدت إلى البيت، فإنها احترمت حقوق الضيافة ولم تقتحم غرفتي لتنسيقها بعد خروجي كعادتها في كل صباح، ودخلت الغرفة فوجدت مادلين قد تيقظت وشمرت عن ساعد الجد وأعادت إلى غرفتي نظامها وتنسيقها وتزينت وجلست كأنها زوجة عاقلة مشتاقة، فقابلتني مرحبة فرحة وهي تدعوني بقولها: سيدي «موسيو»؛ لأنها لم تر لها حقًّا في رفع التكليف بيننا ولتذكرني أني تركتها كما لقيتها، ولم أنتفع بفرصة الخلوة الصحيحة التي منحتني إياها وكنت أبتسم كلما رنت في أذني كلمة سيدي ولم أقابلها بالمثل وأدعوها بالآنسة، بل دعوتها مادلين وهو اسم قديسة طاهرة.

وبعد دخولي بلحظة دخلت مدام جيجال بمائدة الفطور وفيه حليب وقهوة وزبدة ومربى وجبن ونقانق ليونية (سجق) وفاكهة وخبز طازج، فأكلنا هنيئًا مريئًا وكانت

الساعة التاسعة تدق عندما أخذنا نتأهب للخروج، أنا للكلية، وصاحبة الليلة إلى أين؟ قالت: إنها ذاهبة إلى طبيب الأسنان فعجبت وأنا أرى ثناياها كاللؤلؤ وإن كانت لم تعض على العناب بالبَرَد، فضحكتْ وقالت: أحببت الحلوى كثيرًا وأكثرت من أكل الشوكولاتة والجاتو والملبس وأنا بسبيل حشو أحد أضراسي، فأدركتني الغيرة من لمس الطبيب المجهول خدها وفمها وسماع تأوهها، فحاولت أن أحولها عن العيادة وأقنعها بسلامة أضراسها كأنها أصبحت ملكي ... يا لبلاهة الإنسان، ثم تذكرت تصميمي الأخير على نسيانها فقلت لها: «الحق بيدك يجب العناية بالأضراس فهل أصحبك إلى عيادة الطبيب إن كانت في طريقي».

قالت: كما تحب ولكن لا أريد أن أقصيك عن خطتك وكفى ما أخذت من وقتك بفضولي وتطفلي يا سيدي. لا بد أن يكون صاحبك الزنجي وصاحبته البشعة قد سبحا في بحور عميقة طوال الليل، ولعلهما لا يفترقان هذا اليوم إن كان ذاك الزنجي ممن يستهويه التلذذ بالآلام، فإن هذه الغولة خبيرة بهذه الفنون المرذولة، ولعل العذراء تحميني من لقائها فلا بد أنها تعتبر مصاحبتي تعويذة مباركة مذ أعثرتها على صاحبك الذي هو أقرب إلى الأوشاب منه إلى الطلاب، وليس من طرازك أنت ولعل هذا التخالف شفيع لي عندك لاجتماعي بها فنحن نقيضان كما أنت نقيض ذاك الأسود. قلت: ولكنك لا تغفرين لي أنهما سبحا في بحور عميقة بينما أنت وأنا لم نتعدَّ الشاطئ بل نحن لم نقرب منه، فضحكت وفهمت قصدي كما فهمت قصدها. ووقفنا ودق قلبي، واستعدت لتوديعي. ثم قالت وهي غضبى: إن أردت أن تقبلني قبلة الوداع وأقبلك قبلة الشكر فأرجوك أن لا تقبلني في جبيني، فإننا لم نلتق حتى تودعني. وهممت بأن أجيبها، وإذا بجرس الباب الخارجي يدق ثم سمعت صوتًا عاليًا وخطوات تسرع واضطربت مادلين ولم أدر لاضطرابها سببًا، ودخلت علينا مدام جيجال بغير استئذان وهي تلهث وقالت: إن رجلًا رسميًّا بالباب وعلى رأسه قبعة عريضة وفي صدره سلسلة وفي يده محفظة كبيرة وهو يسأل عنك يا سيدي.

فقلت لها: دعيه يدخل فورًا وزجرت بمادلين التي امتقع لونها وراء ستائر الفراش، وجلست مطمئنًّا وبعد لحظة دخل الرجل وبيده قبعة نابوليونية وحياني بأدب جم وقال: هل أنت السيد ماهوميت (محمد) لفتى (لطفي) جوما (جمعه) الطالب بالجامعة؟

قلت: نعم أنا.

قال: ألديك يا سيدي وثيقة تثبت شخصيتك؟

قلت: نعم وأبرزت له تذكرة الكلية وبها اسمي وصورتي، فنظر فيها بغير اكتراث وقال: إشعار من بنك كريدي لونيه، وناولني إياه فوقعت عليه باسمي ثم فتح محفظته وأخرج نقودًا ذهبية (يا له من عصر ذهبي!) أخذ يعد ألف فرنك، ثم أخرج إشعارًا آخر فيه مائتا فرنك وعدها من أوراق البنك الفرنسوية. ثم أخرج إشعارًا ثالثًا فيه مائة وخمسون فرنكًا وعدها ورقًا وقطعًا فضية ثم قال: ألف وثلثمائة وخمسون فرنكًا تمام يا سيدي؟ فنظرت إلى النقود مكدسة على المنضدة وأنا ذاهل، ثم طلبت منه كل إشعار على حدة لمراجعتها في ظنه ولكن للتأكد من أنها باسمي حقيقة؛ لأنني دهشت من وصول هذه النقود بهذه الكمية، وأنا في أشد الحاجة إليها وخشيت أن تكون لغيري لا لي وأن البنك وعماله قد أخطأوا، فلما أيقنت أنها باسمي ابتسمت وناولته خمسة فرنكات فابتسم الرجل واعتذر وقال: محظور علينا يا سيدي أن نقبل أي نفحة من النقود التي نسلمها إلى أصحابها وحياني وخرج مسرعًا. ومددت له يدي لأشكره فلم يرها، وخرج لا يلوي على شيء.

فجلست خائر القوى؛ لأنني ممن يدخرون الانفعال من طول ما مارسته، جلست صامتًا حائرًا مذهولًا. كيف وصلت إلى يدي هذه النقود في تلك اللحظة؟ لقد استغثت بطلب المدد من أشهر ولم يصلني جواب ولا رد ولا بشرى ولا إنذار بهذه النعمة … أيحدث أن كل مطالبي استجيبت في وقت واحد ووصلت إلى يدي في هذا اليوم السعيد. هل في ضيافة هذه البنت البريئة فأل سعيد، أم أن في تعففي وصبري سر الاستجابة. لقد احتقرت المال في هذه اللحظة ونظرت إلى ثيابي وحذائي الممزق وقدمي التي تطأ بلاط الشارع منذ شهرين وجواربي العتيقة المرقعة، وبدلتي الشتوية التي تغيَّر لونُها ونصلت صبغتها، وهذه هي الثياب والجوارب والحذاء التي تركت فيها مصر في شهر أبريل. هل أفرح بالمال أم أفرح باستجابة الطلب أم بتوافق المصادفات؟ ونسيت مادلين في مخبئها ولم أرض أن أمس النقود ورأيتها كجذوة من النار أو كثعابين صغيرة، إنني لا ريب مريض، أو أن الحرمان والوحدة وسوء المظهر قد أصابت نفسي بعقدة من نوع جديد!

وما زلت متراخي المفاصل وناديت بصوت منخفض: مادلين. اخرجي. الرجل رسول البنك، لا رسول الشرطة ولا رسول الكلية. فخرجت وهي ممتقعة وجلست بجواري خائرة هي الأخرى وقالت: كنت أشعر أنه سيمد يده إلى عنقي ولكنه لم ينظر في ناحيتي، ولم تنظر إلى المال قط.

فقلت لها: انظري هذه النقود وصلت إليَّ لقدومك فقدمك قدم الفرح والسعد!

فقالت: ما هذا الهذر؟ إنها مرسلة إليك من زمن طويل ولا علاقة لقدومي بها.

فقلت في نفسي: «هذا هو الفرق بين المعقولية الشرقية والمعقولية الغربية. نحن نتفاءل ونتطير وهم لا يدركون ذلك ولا يعونه ولا يشعرون به».

ثم قالت: لعله حظ ذلك الزنجي.

فعبست وقلت: أعوذ بالله بل حظك أنت

قالت: وأين تضع نقودك أتحملها كلها معك أو تتركها في غرفتك؟ لا بد أن تُودِعَهَا في البنك وأن يكون لك دفتر شيكات كما يفعل الأغنياء الذين لا أشك أنك منهم وإلا ما بعثك ذووك لتتعلم في هذه البلاد البعيدة بالنسبة لهم. ولم يكن هذا قد خطر ببالي؛ لأن خمسين جنيهًا مع وفرتها في ذلك الزمن لم تكن مما يودَع في المصارف.

فقلت لها: ألا تتركيني أفرح بالنقود على الأقل يومًا وليلة أروح وأغدو بها حتى أنسق طريقة صرفها.

قالت: بل أبق معك ما يقضي الضرورة؛ لأن الطرق هنا ولا سيما في الليل غير مأمونة، وماذا يضرك ما دام المال يبقى محفوظًا في الخزانة تطلب منه ما تشاء، ويمكنك أن تدفع بالورق بدلا من أن تحمل النقود.

قلت: هذا حسن سأبقي معي ثلثماية وخمسين فرنكا وأودع ألفًا.

قالت: كلا هذا كثير بل يكفي أن تحمل في جيبك خمسين فرنكًا ثم تدبر أمرك. ألا تكفي خمسون فرنكًا يا لك من مبذر!

قلت: حسن إذن أودع ألفًا ومائتي فرنك وأستبقي مائة وخمسين فرنكًا (ستة جنيهات بحساب الزمن الماضي).

قالت: أنت حر في مالك ولكن ما دمت تفضلت واستشرتني، فأنا لا أنصح بأكثر من خمسين فرنكًا. وإذا سمحت لي بمرافقتك بضع دقائق فإنني لا أفارقك حتى تودع نقودك وتأخذ علم الوصول، فإني بهذا وحده أطمئن على وداعك.

قلت: كما ترغبين هيا بنا، لا ريب أن يوم الكلية قد ولى وضاع علي.

قالت: ليس فيه ضياع؛ لأن الرجل كان يتعب في الوصول إليك إن لم يجدك في بيتك، ونزلنا فوقفت مادلين وقالت: الأفضل أن نتخذ مركبة تذهب بنا إلى المصرف مباشرة. فأعجبت بتدبيرها وقلت لها: أن نسير حتى تصادفنا مركبة على رأس الجسر. قالت: كذلك واجعلني على يمينك.

وسرنا وقابلنا حوذي فحملنا إلى مصرف «سيتي جنرال»، وهو بنك محلي ليوني فأودعت نقودي وأخذت دفتر الشيكات والإيصال، واستبقيت خمسين فرنكًا لا أكثر كما

أشارت الفتاة الشفيقة العفيفة الأمينة، ولم نكد نخرج من باب المصرف حتى مدت لي يدها وقالت: الوداع يا سيدي إنها في حالتنا أدق من قولنا: «أوريڤوار»، فأخذت يدها بشيء من العنف وقلت لها: ما هذه الجفوة المتصنعة! … حقًّا إنك قاسية أهكذا يفترق الأصدقاء؟ قالت: لقد تأخرت عن عملي … ومديرة المصنع جافة الطبع وهي على مقربة من هذا المكان. قلت: ولكنك قلت: إنك تقصدين إلى طبيب الأسنان! قالت: نعم ووقت عيادته مضى وانقضى. قلت: اعتذري لمديرة المصنع برسالة هوائية (خطاب أزرق مستعجل) قالت متبرمة: لا بأس إذا شئت.

فتناولت يدها وقبلتها (وهي تشبه يد الموناليزا الجوكونده) وقلت لها: أرجوك أن تختاري الطريقة المثلى لنقضي هذا اليوم معًا، وإن شئت أن تعتذري لأحد وقد قبلت دعوتي لتطمئن بحريتك، قالت: نعم وأختار إذا شئت أن نذهب إلى شاربونيير الحمامات وهي من الضواحي القريبة نصل إليها بالقطار من محطة سان بول. ففرحت بهذا الاقتراح فرحًا شديدًا؛ لأنني كنت أفكر في مغادرة ليون بأية وسيلة.

قالت: ولكن لا بد لنا أن نتزود بالطعام.

قلت: عجبًا … شاربونيير الحمامات! ولا يكون بها مطعم.

قالت: أجل بها مطاعم وفنادق وكازينو وحمام ومياه معدنية وبستان فخم وقصور وفيها كل ما تشتهي النفس، ولكن لهذا كله ترى أهلها يبالغون في الأثمان والأجور. ونحن أهل ليون لا تخدعنا المظاهر هيا بنا نتزود. فدخلنا عند بدال وفاكهي وخباز وخرجنا محملين بما لذ طعمه وخف ثمنه. وتذكرت حذائي وشعرت بالخزي بعد أن حضر المال ولكن قلت: لا أظهر لها أنني كنت أنتظر الفيض لأشتري الأحذية والقمصان. ولعلها لم تلمح ذلك الحذاء وإن هي لمحته فلعلها لا تنسبه إلى الحاجة بل إلى البوهيمية وهي من خلال الحكماء والشعراء وإن لم أكن منهم، ثم إنها هي التي نهتني عن حمل النقود كلها أو معظمها.

يوم في شاربونيير

وبلغنا محطة سان بول والقطار على وشك القيام، وبلغنا مدينة الحمامات بعد نصف ساعة وأثناء الطريق سألتها عن عنوانها في مسكنها وعملها فقالت لي: من الخير أن لا نتوغل في التعارف ويكفينا من الأمور ظواهرها. ولنفترض أننا سفينتان صغيرتان تقابلتا في الظلام. قلت: ولكننا الآن في وضح النهار وفي قطار يقطع البر، لا سفينة تمخر

البحر قالت: لست مثلك ألعب بالألفاظ؛ لأنني شبه أمية ولكن أقول لك: إننا نتم سهرتنا وأنا ما أزال في الليل ... يا لها من ماكرة لا تترك ثأرها. كانت تزداد في نظري قدرًا وقيمة وأعجب بفطنتها وخلقها فهذه الأجوبة المسكتة تزيدني حيرةً وتلهفًا ... ولم يبق على إقامتي في ليون قبل رحلة الصيف التي عزمت عليها إلا يوم أو يومان بعد أن حل الله عقدتي على مقدمها. هل أصطحبها. هل أحملها معي وأشركها في هذا الرزق الذي ورد إلي يوم قابلتها ... ولكن كيف أنبش عش هذه المسكينة وأنقلها من بيئتها، هل أتخذها خليلة في الحل والترحال، أهذا ما أراده الدكتور مويسيه بقوله: «اتخذ صديقة صغيرة» أتكون مادلين تلك الصديقة الصغيرة التي قصد إليها طبيبي. إن عقلي وقلبي لا يقبلان أن أصطحبها زمنًا مهما طال أو قصر ثم ألقى بها في نهر الحياة. محال علي أن أعبث بطهارة بنت تثق بي وإن لم تكن عذراء ثم أتخلص منها بأهون سبيل، ومحال علي أن أخرجها من مهزلة الحب إلى مأساة الإجهاض أو من نعمة الاطمئنان إلى الكارثة الوحدة والحاجة بعد أن تذوق راحة الارتكان إلى رجل.

يجب علي أن أكون بعيد النظر ومخلصًا لنفسي على الأقل. وإني أقرر هنا بعد طول الخبرة والتجارب أن الوفاء والإخلاص من الفضائل التي تنفع الإنسان في نفسه وروحه وتضره في الحياة الدنيا وفي معترك الوجود الأرضي، وأن صاحب الفضائل معذب ومحتقر ومعدود مجنونًا وأبله؛ لأن الدنيا تسير على دولاب الرذائل. ولكن صاحب الفضائل لا يمكنه التخلص منها ولو تصنعًا فهو مقضي عليه أن يعيش فاضلًا، فإن حاد قيد شعرة تواطأ عليه كل الشرار ومزقوا جلده لا لخروجه على الفضائل، حاشا، بل لسابق طاعته للفضائل، ثم إنهم لا يأمنون جانبه لانطباعه على الخير، أقول هذا كله وأكثر منه وأنا لا أدري ما هو الخير وما هو الشر، ولكنها فطرة يفطر عليها الإنسان. إن منطق الواقع كان يقضي عليه أن أعمل بنصح الطبيب وقد تهيأت لي الظروف المواتية وأقضي الساعة واليوم والليلة، ولا أبالي بما يحدث بعد ذلك مثل ألوف الشبان.

لقد مسني الضر من تمسكي بالأفكار الراسخة. هل كان الحق في جانبي أم في جانب من قال: «فاز باللذة الجسور». إنني لم أستطع الجواب على هذا السؤال، وقد غرقت في الفكر حتى نسيت مادلين وهي موضوع تفكيري وقد أخذت تمثل أمامي جنس حواء وجميع بناتها لشد ما كنت متهوسًا بالفضيلة وبحساب النفس. وكنت أكبر بكثير من سنواتي العشرين على كثرة مما حاربتني الدنيا. وفجأة شعرت بمادلين تلتصق بي وإذا نحن في نفق حلق الذئب (چوردي لو) إحدى محطات ذلك الخط الصغير الموصل

إلى شاربونيير. فقلت: يا لها من ذات شعور مرهف لعلها أحست أنني مشغول بها، فأرادت أن تذكرني أنها جالسة بجواري.

يا له من يوم سعيد حقًّا، شاربونيير على قربها من ليون ملآنة بالنور والماء والخضرة والبساتين ذات الثمار والأزهار وليون قاتمة كئيبة يملأها الضباب والرطوبة والظلام والبرد شتاءً، والقيظ صيفًا، لِمَ لم أقطن هذه الضاحية بل لم لا أقطنها في المستقبل، إن في هذه الزيارة فتحًا جديدًا، لقد أخذت النعم تتوالى علي في صحبة هذه الفتاة، ولكن لعله استدراج شيطاني فلا تخدعني تلك المصادفات، إنها غريبة التواتر والوقوع في يوم وليلة.

ولما غادرنا القطار تغيرت أطوار مادلين وظهر عليها المرح والفرح بالطبيعة الباسمة، وصارت كتلميذة مدرسة في نزهة، فجاريتها وصعدنا إلى الغابة الملتفة الأشجار وطفنا بالحدائق وأكلنا ما حملنا حتى أتينا عليه وتزودنا ثانية من دكاكين شاربونيير، وجلسنا في الكازينو وتفرجنا على الحمامات وشربنا من الماء المعدني الحديدي، ورأينا في مدخل الحمامات مجموعه من المرايا المقعرة والمحدبة والمنحنية تبدو فيها أوجه الناس وأبدانهم تارة عريضة وطورًا طويلة ومرة مربعة أو مثلثة على صورة مضحكة.

فقالت: هنا يستغلون غفلة الأضياف فإن الناظر لا يضحك من نفسه ولكن يضحك منه الآخرون وهو يدفع على ذلك أجرًا.

وعندما خيم المساء قلت لها: متى يغادر آخر قطار هذه البلدة، فإنني أريد أن نبقى في نور أمس كما كنا في بستان رأس الذهب.

قالت: طيب، ولا بد أن تعود إلى بيتك مبكرًا لتعوض الليلة البارحة.

قلت لها: اسمعي … لا بد أن تقضي الليلة معي.

قالت: لم؟

قلت: لسبب بسيط وهو أنني لا أستطيع أن أقضي الليل بدونك في مسكني، فإن لم تعودي معي وتنامي في فراشي فلن أنام ولن أعود ولا بد أن أنتقل منه أو أغادر البلد فلست متقدمًا إلى الامتحان في هذا الشهر.

قالت: لا مانع عندي وإن كنت لا أستطيع أن أغيب عن أهلي يومين متتالين، ثم إنني يا صاحبي لا أنفعك، وإن كنت أنت خشبًا أو حديدي الإرادة فلست مصنوعة من معدنك، وقد بدأت أتعلق بك وهذا الحب الأفلاطوني لا يعجبني، ولا يدخل في تكويني ولست أرضى به.

فأدهشتني تلك البنت بصراحتها وجرأتها وحمدت لها حرية الفكر وشجاعة القول، وأدركت أن تلك الشجاعة مستمدة من سلامة العقل وصحة المنطق ولا يضيرها فقرها، فقد كانت هادئة الطبع هدوء النبل وقد قعد بها الدهر، فلم تنل حقها من التعليم والتهذيب وأرغمت على العمل في مصنع القبعات لتنال القوت والكساء، ولكنها لا تبهرها النعمة؛ لأنها طيبة الأرومة ولا تداجي لأنها تبغض النفاق وكانت قوية الإرادة في الخير من حيث أظهرت الحرص علي بعد عشرة ليلة كالخبز القفار بغير إدام، وضعيفة الإرادة في الشر بدليل مرافقتها لتيريز راكان تلك الضبعة الشبيهة بالقرش والحوت الجشع الذي يلتهم أضعاف جسمه الناعم الغادر التي اختارت الأسود ولاذت به وتركت مادلين لي؛ لأنني بدوت لها خجولا لا أغري مثلها ولا تغريني. هذه واقعة معقدة حقًّا فأردت أن أقسو على مادلين وأعتصرها لأستخرج خير ما فيها وشر ما فيها، إن كان في كيان تلك البريئة التي لحقها ضيم الحياة شر.

فقلت لها: كل ما تقولين صدق ولا ريب فيه ولكن قولي لي بغير مداراة ولا مواراة أكنت تفضلين أن تتبادلي وتلك الضبعة إذا اختارك الأسود وترك صاحبتك لي؟ فوقفت البنت وقفة غضبى وقالت: أما هذا فأبدًا مطلقًا مهما طال الأجل! Ca jamais de la vie من تظنني يا سيدي؟ وأبرقت عيناها … إن ذاك الأسود يموت ويهلك دون أن ينال قلامة ظفر مني ولو ركع أمامي ركوع العابد Oh non إنني رأيتك ذا حياء تؤثر السكوت ولا تطيل النظر، ولا تتهجم وهذه صفات أعجبتني وقد صدقت فراستي. وبعد يا موسيو فلان فإننا أسرفنا في التحليل كما قترنا في التركيب، وأرى أننا لن نبلغ غاية. إن الحب هنا في ليون (ولم تقل: في فرنسا) ليس يقصد به إلى الزواج ولا الأولاد، بل الاستمتاع الوقتي وأخطر ما فيه الأمراض والإجهاض وأنا سليمة من الناحيتين؛ ولذا أحرص على نفسي ولا أجازف أبدًا. ولكنك شاب موسوس ومثلك كثير وهؤلاء ينتهون نهاية حزينة؛ لأنهم يفقدون الرجولة Teny خذها فقد قلت لك كل شيء، أنا لست جاهلة جهلًا مطبقًا نعم لا أقرأ الطان والفيجارو والكتب الضخمة كما تقرأ. ولست طفلًا غريرة، إن عمري واحد وعشرون سنة كاملة، أنا كبيرة وأغلب الظن إن صادفني كثير مثلك أن أتوج القديسة كاترين! فسألتها من تكون تلك القديسة. فضحكت وقالت: أنت لا تعرفها إنك ما زلت أخضر القلب لين العود، سانت كاترين يا حبيبي قديسة تحمي العوانس فإذا بلغت إحدى العذارى خمسًا وعشرين سنة انضمت إلى صفوف العوانس، وانضوت تحت لواء تلك القديسة البغيضة. أكلمك بهذه الصراحة فلا تغضب لقد صنعت لي كل شيء في

مقدورك وأنا اخترتك على عيني وأقحمت نفسي على بيتك وأكلت زادك وقضيت يومي معك، وكنت سعيدة حقًّا فما وراء هذه النزهة وذلك القمر؟ نعود من جديد إلى غرفتك فترانا تلك العجوز، وتتهمني بالعشق والاستمتاع وأنا بريئة منها allons donc.

وسرنا في طريق المحطة وقد ملأتني تلك العاملة الصغيرة باليأس ولمحت ذلك في عيني فقالت: اسمع إننا صديقان Camarades رأيتك اليوم تهم بحمل نقودك كلها وهذه علامة السخاء والجود، ورأيت بيتك منظمًا نظيفًا وعلمت أنك لم تقرب النساء من قبل أو أنك قربتهن ثم تبت وترهبت وتنسكت. وأنا لا أريد أن أحولك عن فكرك لعلك تدخل الدير من يدري. إن في ليون كلية فخمة لعلم اللاهوت. ثم يا صاحبي ماذا يدعوني لأتدخل في شئونك. أنا دعوت نفسي أمس إلى بيتك وأنت تدعوني الليلة. فمن الغبن أن أرفض دعوتك ولست بنتًا مفتونة، وهذا الحب الأفلاطوني لا بأس به ولو مرة في العمر فهيا بنا نضحك ونلعب ونلهو ونتعشى ونسمع الموسيقى، أو نشهد التمثيل ثم نعود معًا إلى البيت كما عدنا أمس ونحن نوهم نفسينا ونوهم الناس أننا عشاق بحق. أتدري أنها لذة عظيمة؟!

فبدأ الغضب الحق في عيني ولعب الغيظ على شفتي، وكاد لساني يتحرك بما لا أحب فكظمت غيظي وقلت: مادلين ... روِّحي عن نفسك وهدئي من روعك. إن هذه أمور لا يتكلم الناس فيها ولا يتعمقون لا صراحة ولا تلميحًا.

قالت: ولم وإذن فيم يتكلمون؟

وانطلقت مبتعدة عني كما لو كانت سهمًا فارق قوسه. ولم تلتفت نحوي، وسارت بخطى ثابتة لا تلوي على شيء.

في مدينة النور

١

اللقاء الأول

لم أنس لقاءها على جسر شوردون، فقد كنت أسير متنزهًا في حديقة مونيونون في وقت العصر، فسمعت صوتًا يناديني فالتفت فإذا بالمليحة الملحة على الإفريز الآخر، وقد أمسكت بمظلة بيضاء وجعلت في يديها قفازين من الحرير الأسود تظهر الأنامل وتخفي الكف والمعصم وتصل إلى المرفق وهي مما يتحلى به نساء الطبقة العالية، فصافحتني وكلمتني كلامًا لا في العير ولا في النفير فلم أطل معها الوقوف.

وبعد أيام لقيتني في إحدى المكتبات وأرشدتني إلى كتب حديثة العهد بالظهور، وذكرت أسماء كتب قديمة جديرة باطلاعي، فاشتريت بعضها واشترت هي كتابًا أهدته إليَّ وافترقنا، ثم دعتني وقالت لي: إننا نسهر بعد العشاء منفردين، فلم أبطئ هذه المرة وذهبت بعد العشاء كما أشارت، وكان جمال الليل فاتنًا وكان القمر يتوسط كبد السماء فجلست معي في الشرفة الكبيرة المطلة على البحيرة والجبال، وتوارت أمها عن نظرنا بعد استقبال قصير وترحيب حار.

كنت ما أزال أشعر نحوها بنفور وإن يكن قد خففه رؤيتها في وسطها الطبيعي، السكن والأثاث والكتب والأمومة واللغة الروسية التي كانت ألفاظها تتناثر على مسمعي من فمها وفم أمها، ولم يكن منظر الطبيعة إلا ليزيد هذا الوسط ألفة وحرارة طبيعية.

أخذت المليحة الملحة ترحب بي وتشعرني بسرورها بوجودي، وكأنها أرادت أن تثبت لي أنها امرأة من بيت وأن لها أهلًا ومنزلة وأنها ليست من جوارح الطير ولا من ربات الجمال والمغامرات، وأنها بهذا وذاك تكون في نظري أكثر كرامة وأكثر قبولًا لدي.

ولم تكن تعلم أن بروشيه بثنائه عليها وعلى مواهبها قد أكمل الصورة المرغوبة، ورسمها في ذهني رسمًا زاهي الألوان، فلو عرفت ذلك لزادت غبطتها.

ولكني أخذت أسأل نفسي، علام كل هذا الاهتمام بشخصي ... ولست ممن يطمع فيهم النساء ولا سيما من كانت كهذه الحسناء ميسورة وأديبة مشهورة تجرر أذيال العز، وتصحبها أمها في رحلة طويلة؟

لعلها بلهاء أو مخدوعة أو هاوية درس أخلاق بعض الرجال ولا سيما الذين تظن أنهم من نوع خاص.

أما الجمال فلست من أربابه، وأما الشباب والفراغ والجدة، فقد كنت شابًّا ولم أكن ذا مال ولا فراغ إلا بما تسمح به حياة الطلاب أثناء العطلة الصيفية، ولكن لعلها رأت في عيني صورة أثارت عاطفتها، ولعلها شعرت بحركة روحي وقلبي شعورًا باطنيًّا غير ناطق.

كانت هذه هواجسي، ولكن الحقيقة التي علمتها بعد ذلك علم اليقين أن ما قضت به الأقدار بيننا كان محتمًا أن يقع، فكانت أكثر حساسية وأسرع إلى أداء واجبها نحو الطبيعة والقدر. لقد كان شعور المرأة فيها قويًّا مبادرًا ملبيًا، وكفاها أن تراني فترة قصيرة في بيت دي ناڤا حتى شغلت بي، وما زالت تتعقبني وتلتمسني وتسأل عني «صرخة الطفل» الذي في عالم الغيب أو صيحة المرأة التي لم تجد مثلها المنشودة في الرجال يزينه الذكاء والهدوء واطمئنان القلب.

وها هي اليوم قد استدرجتني إلى عشها الأنيق حيث أمها كأم الطير حارسة، كل هذه الخواطر مرت بذهني مرور البرق كسلسلة صور متحركة.

وبعد هنيهة اعتذرت الأم بحاجتها إلى قضاء عمل بيتي وحيتني وانصرفت، واختلت المليحة الملحة بضيفها.

وقد حصل لي من الانفعال ما يحصل لكل شاب يخلو بامرأة شابة جميلة ذكية، وكنت محرومًا من مثل تلك الخلوة، حكمت بذلك على نفسي لأول عهدي بالإقامة في أوروبا لأجل التعليم، ولكني لم أكن وثابًا ولا قناصًا ولا نهازًا للفرص، وهذه هي الصفات التي لا تعجب النساء.

قامت المرأة وخطرت أمامي وتحدثت إلي واستعملت فتنتها ومحاسنها فكنت خجولًا، وتحدثت إلي في الأدب وفي الثورة وفي التاريخ وفي تولستوي وفي نهضة روسيا، وكانت بالطبع أوسع مني اطلاعًا بحكم نشأتها وإقامتها في أوروبا الشرقية والغربية، فبهرت

وسررت وتمكنت بالتدريج أن أستل كثيرًا من نفوري منها، ولكنها لم تجذبني الجذب الكامل إليها.

وبعد فترة قضيتها ودعوة حارة للعودة ووعد فاتر مني بالرجوع كلما أحسست بالشوق، هممت بالقيام، فاستوقفتني وقالت لي: أرى من حديثك أنك غير ملم بأخبار ثورتنا الروسية التي بدأت منذ خمسين عامًا ولها أبطال عالميون مثل … وسردت على سمعي أسماء عشرات الرجال والنساء، وعددت كتبهم وتضحياتهم وتعذيبهم وسجونهم في سبيل الحرية القومية.

كانت المليحة الملحة تلبس ثوبًا أزرق من الحرير لاصقًا ببدنها يكاد يبدي تقاسيمه، وجلست على مقعد طويل. وأخذت تتحدث إلي في هذا الزخرف الجميل الذي اختص الله به سويسرا.

وتكلمنا في الأدب والفن والجمال والسياسة وهي تبطن الحب والولع، وأخذت تتلوى في وحدة الليل وضوء القمر، وخضنا غمار العواطف والأهواء في حذر شديد من ناحيتي، وكنت كلما أمعنت في الاستسلام بالكلام اشتد حذري وخوفي، وقد أثبتت الأيام أن حذري كان أصدق من هواي. وقد صور لي خيالي أن النساء الروسيات خطرات بالفطرة، وربما كانت الكثرة منهن أعينًا وآذانًا للقيصر، ولكن ماذا يهمني القيصر وألف فردة من أسرة رومانوف، وأي سر مكنون أو علم مصون يكون لدي حتى تبذل هذه الأنثى الذكية الحسناء عقلها ولسانها في استدراجي للحصول عليهما؟

وقالت لي: أنا مطلقة وقد نزحت من بلدي لأبتعد عن زوجي، وقد خرجت لصيد الأسماك مع دي ناڤا في قارب ثم قصرت عن هذه الرحلات خشية أن تغار زوجته وهي امرأة دميمة جدًّا، وقد عرفت دي ناڤا في ميلانو مذ كان محررًا في جريدة «أفانتي» الاشتراكية، ثم لقيته هنا مصادفة، ولا أدري كيف قبل أن يتزوج من هذه المرأة.

هل اجتمعنا في حياة سابقة؟

في تلك اللحظة، وكانت الساعة الأولى بعد نصف الليل وصلت النشوة إلى منتهاها، وقد هاج سكون الليل ورنين صوتها في هذا السكون سائر أشجاني وحواسي، فقلت في نفسي: علام أجالس هذه المرأة وهي تحدثني عن رجل آخر؛ لتثير غيرتي ولا تريد شيئًا آخر، فعلام أخرج على طبعي وأقوام فطرتي؟

وفجأة لمحت أناملها وهي تتكلم وتشير بها فطرق ذهني أنها أنامل ناطقة وأن راحتيها تكادان تشعان نورًا، وأنهما صنعتا من البللور الشفاف أو من الفضة البراقة،

ومنحتا قوة النطق والإشارة فصمت وأغضيت، فقالت لي: ما بك يا سيدي؟ هل أنت متعب؟ ترى أنه آن أوان نومك وأنني أعوقك وأرغمك على السهر إلى هذه الساعة من الليل؟

فظننت أن هذا القول منها إذنًا رقيقًا لي في الانصراف، فنهضت متعبًا وقد تجهّم وجهي؛ لأن أمامي طريقًا طويلة شاقة سأقطعها في سواد الليل منفردًا حتى أبلغ منزلي الخلوي، فلم تمانع ووقفت هي الأخرى لتوديعي ولم تحاول منعي أو استبقائي … فقلت وأنا أودعها: أستودعك الله ولكن قبل أن نفترق أقول لك شيئًا واحدًا وقد قلت لي أشياء كثيرة، أتعلمين لم جلست وأطلت الجلوس حتى هذه الساعة من الهزيع الأخير من الليل؟

قالت: هذا بيتك وأنت فيه دائمًا على الرحب والسعة في أي وقت من أوقات النهار أو الليل.

قلت: لم يشعر الإنسان أثناء التقائه بإنسان آخر لم تسبق بينهما معرفة أنه شديد الانجذاب إليه، كأنهما اجتمعا في حياة سابقة كما يرى بقعة من الأرض فيتذكر على الرغم منه أنه سبق له أن رآها ووطئها ويكون في الحالتين كأنه في حلم عميق، حلم يقظة وصحو لا حلم نوم ونعاس؟ أتجيبين على هذا السؤال؟ وهل شعرت يومًا بهذا الشعور أو مثله؟

فامتقعت وترنحت وقالت: اجلس. أرجوك أن تجلس قليلًا. ليس علينا رقباء إن أمي نامت من زمن طويل وهي عميقة الرقاد فلا يهزها صوتنا إذا تكلمنا حتى الصباح.

قالت: متى خطر ببالك هذا الخاطر؟ وإلى ما تقصد بقولك؟

قلت: لم أقل: إنه خطر ببالي أو وقع لي ولم أقصد إلى شيء معين.

قالت: لقد شعرت هذا الشعور ومر بقلبي.

وكانت منفعلة بادية التأثر، وكنت قد صممت على شيء لا بد أن أنفذه في تلك الليلة قبل أن أنام.

قلت: هذا حسن وهذا الذي أردت أن أعرفه، أستودعك الله يا سيدتي.

ومددت إليها يدًا ثابتة فمدت إلي يدًا مرتجفة، وعاد روحها يطل من عينيها وأطالت مصافحتي وهي تقول: لا بد تعلم أن تقبيل أيدي السيدات عند اللقاء أو الوداع عادة محتومة في وطننا، وقد نقلها الفرنسيون عنا.

قلت: أعلم ذلك ولكني لم أحاول مطلقًا.

قالت: هل أصحبك إلى نصف الطريق.

فضحكت وقلت: أينا أحق بأن يصحب صاحبه إلى داره، وهبي أنني قبلت فكيف تعودين أنت بعد ذلك في الساعة الثالثة بعد نصف الليل؟ ألا تعلمين أنني أقيم في بيت بروشيه الذي تعرفينه معرفة جيدة ويعرفك كذلك هو وزوجته.

قالت: أعلم ذلك، ولكن من قال: إنني أصل إلى بيته؟ قلت: نصف الطريق ولم أزد وإن شئت أن تبقى فلك أن تبقى، وإن شئت أن تتحول من بيته إلى هذا المنزل القريب فأنا كفيلة أن أعد لك مسكنًا فيه لتكون على مقربة مني.

قلت: سأتحول حتمًا. سأتحول ...

وخرجت أضرب في ظلام الليل على غير هدى وقد عقدت عزمي على شيء لا بد أن أفعله قبل أن يتنفس الصباح.

سرت وسط الحقول والحدائق والشوارع تكاد تكون خالية إلا من رجال الشرطة والمتخلفين عن فرشهم أمثالي.

فلما وصلت باب البيت دخلت وأنا أجد نفسي غريبًا وقد بدأت الوحشة تدب في نفسي، وقد فعلت هذه المرأة أفاعيلها حتى بغضت إليَّ الحياة التي كنت ألفتها في العزلة والدرس في عشرة عجوزين طيبي القلب والخلق، بروشيه وزوجته.

ولما صعدت إلى غرفتي الجميلة المطلة على البساتين النضرة وعلى جبال سويسرا وبحيرة ليمان لم أر فيها شيئًا من الجمال الذي رأيته عصر هذا النهار نفسه، وهذه أعراض مرض جديدة أخذ يدب في أوصالي، ولكنني كنت قد عقدت النية على عمل أعمله قبل أن يغمض جفني وقبل أن يطلع الفجر.

ولكن الفكرة التي طرأت علي أخذت تنمو وتكبر وتتضخم وتملأ عقلي وقلبي، هل صحيح أنني عرفت هذه المرأة في حياة سابقة وأنني كنت عنها عميًّا في اللقاء الأول وما تلاه؟ أم أن الرغبة والليل والحرمان خدعتني وهيأت لخيالي هذه الصورة الفاتنة، هل عرفتها قبل ذلك؟

وفجأة تذكرت كلمة حكيمة «الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»، ولكن هل هذا التعارف وقع في حياة أخرى أم في عالم الوجود الأزلي قبل الميلاد الأرضي؟

نعم لقد شعرت بانجذاب إلى أشخاص معدودين، واتحدت أقداري وأقدار آخرين في طفولتي وفتوتي ومراهقتي، ولكني لم أشعر بهذا الخاطر بوضوح وقوة كما شعرت

به هذه الليلة. ولكن إذا طرأ هذا الخاطر وكان حقًّا فلم لا أتذكر طروف تلك الحياة السابقة؟ وهل انفعلت هذه المرأة؛ لأنها أحست بما أحسست به؟ أم لأنها بخبرتها السابقة للرجال والحب (حتمًا) قد علمت أن هذه مبادأة أو أنها حيلة ابتدعتها لأقول لها: يخيل إلي بل أكاد أعتقد أنني عرفتك قبل الليلة، وأننا تحاببنا وتعاشرنا فهيا نعشق عشقًا جديدًا!

إن كان هذا فكرها فقد أخطأت خطأً جسيمًا، فقد كانت الفكرة قوية عندي وقد تملكتني بحيث لم أشعر بميل جثماني إليها على الرغم من تلويها وتثنيها وتصنعها ورفع ذراعيها إلى رأسها، وتشبيك أناملها الناصعة الشفافة فوق شعرها الفاحم وهذا وضع أنثوي فاتن للرجل.

ولو كانت رغبتي أقوى من عقلي لأقبلت عليها، فإن امرأة تجالس شابًّا في شرفة بيت إلى ما قبيل الفجر لا تفعل ذلك وهي تعلم أنها لا تتلقى الحكمة من فيه، وأن شابًّا في مثل سني لا يفعل هذا إكرامًا لذكائها وفطنتها، وأن امرأة تلح هذا الإلحاح وتتبع رجلًا هذا التتبع لا تفعل هذا حبًّا في فلسفته ولا طمعًا في ماله فلم يكن لي مال.

إنني أقبل كل تعليل إلا أني كنت مخدوعًا في شعوري وفكرتي. إن هذه حقيقة ثابتة مطلقة لا بد أن نكون التقينا. ولكن متى وأين؟

هذه نعمة الله على الإنسان إذ لو وعى ماضيه لهلك وجن، وانشغل بالماضي عن الحاضر وبالحاضر عن المستقبل وضاعت عليه الحياة ضيعة لا تعوض، فالذي خلق الحياة الأخرى والذي جمع بين الأرواح في أدوار وأطوار سابقة لا يعلم مداها إلا هو، هو أيضًا الذي منحها نعمة النسيان، ويكفي أن تشعر بأنك رأيت وعرفت، ولو أن الذي عرفته آتٍ من أقصى الأرض.

تم هذا اللقاء العجيب بمصادفة عجيبة، وقد ترعرع التعارف ونما وبدأ ببغض من ناحيتي وإقبال شديد من ناحيتها، وإعراض تام من ناحيتي وإعجاب وتعلق ناحيتها، وبقدر ما كنت مصممًا على القطيعة والفرار، كانت مصممة على الاتصال والتمسك بي.

هل أعد هذا فوزًا لها وهزيمة لي؟ أم أعده لقاءً محتومًا وقضاء مقدرًا، وبداية الأمر ما يزال عني خفيًّا وهو مدون ومسجل في كتاب القدر؟

ولكن كنت عقدت عزمي على عمل أعمله قبل أن يتنفس الصبح.

دخلت إلى غرفتي وأضأت نورها وأخذت أحزم كتبي وثيابي وأربط أوراقي؛ لأنني عزمت على الرحيل مبكرًا عن لوزان بل سويسرا بأسرها، لقد كان الفرار الأول والأخير من امرأة.

لم يكن من السهل أن تقهرني أو تغلبني على أمري أو تجبرني على التعلق بها امرأة كائنة من كانت.

أليست هي التي تعقبتني من بيت إلى بيت، وهي التي استعملت دهاءها لتجرني إلى بيتها، وهي التي كنت أفر منها وأتحاشى لقاءها وهي التي استبقتني إلى ما بعد نصف الليل لتقول لي: لعلك دخت من طول السهر وشعرت بحاجة إلى الرقاد، لتزحزحني.

ولو أنني عرفت روحها في عالم آخر أو حياة أخرى فلم تكن وحيدة بين سكان ذلك الكوكب المجهول أو الجنة الموقوتة، وربما كان العثور على غيرها أولى من العثور عليها.

وبعد أن فرغت من حزم أمتعتي والاستعداد للرحيل، قضيت البقية الباقية من الليل في اختيار المكان الذي ألجأ إليه.

لا بد أن يكون مكانًا أكثر حركة وأملًا وأرحب صدرًا وأطلق حرية، واستعرضت مالي وحسبت حسابي وأخرجت الخرائط، وقست الأبعاد وتذكرت المدن والبلاد، فإذا اسم يبرز أمامي من بين الأسماء كشعلة مضيئة «باريس».

إلى باريس

في الصباح الباكر حملوا إلي الإفطار فلم أذقه، واستدعيت مدام بروشيه وسددت لها حقوقها، ففجعت العجوز بخبر ارتحالي قبل إنذارها، وتشددت في بقائي أسبوعًا وأسرفت في الوعود بزيادة العناية بإقامتي وتغيير غرفتي إن شئت وتبديل طعامي إن رغبت «فقط وحسب لا تفارقنا على هذه الصورة المفاجئة!»

وكانت المرأة شيخة في السبعين من عمرها، قصيرة القامة بقدر ما كان زوجها طويل القامة، وكانت مجعدة الوجه ولكن وجهها يشعّ بنور الفضيلة والصبر والكفاح، وزوجها شيخ أشيب يكاد يكون ملكًا كريمًا نقي السريرة محبًّا للخير العام بعيدًا عن الأثرة صديقًا لعظماء عصره، ملمًّا بتواريخ العالم والآداب والعلوم، خبيرًا بجملة من الألسن يجيدها، وهذا هو الآخر جاء يستبقيني ويرجوني ويستعطفني حتى أوشكت أن أشفق عليهما، فأبقى وأنقض عزيمتي، وظننت أن زيادة الدفع يلهيهما عن الإلحاح في إطالة إقامتي، فنقدتهما ما يعدل إقامة أسبوع فغضبا وتأسفا وعاتباني على اتهامي إياهما بالطمع في مالي. وأخيرًا قلت لهما: إنني أفر من امرأة وإنني لا أطيق العزلة بعد الآن ولا أحب الاقتصار على طلب العلم وإطالة الدرس، فإن هذا ينخر شبابي ويوهن عزمي ويشعرني بكهولة مبكرة وأنا في الثانية والعشرين من عمري، فلست راهبًا ولا

خلوتيًّا ولا صومعيًّا ولا زاهدًا ولا مستغنيًا عن الحب ولا عاجزًا عنه، كفاني قراءة ودرسًا عشرين عامًا، أكاد أموت من الغيظ والحرمان. لست أطيق بعد ذلك صبرًا، أتريدان أذبل في هذه المدينة الساكنة كأنها حسناء ميتة، أتريدان أرى البحيرة والجبال والقمر والوديان ونور القمر ثم أعود إلى غرفتي بين أربع حيطان؟ فافسحا لي الطريق حتى أنجو بنفسي قبل أن أغرق أو أحترق.

ولقد بللت دموع بروشيه لحيته كقطر الندى على باقة من أزهار الفل اليانعة، وأخذ يلهج وا ولداه وا طفلاه! لقد فهمتك.

وبكت امرأته كما تبكي الأمهات عندما يجدن أبناءهن في حرج يبدأن بالغضب ثم ينتهين بالحنان والألم، وخرجت مسرعة وهي تقول: اتركه يا بروشيه فقط وحسب أريد أن أصحبه إلى القطار. لا تدعه يسافر دون أن أعد له الغداء والعشاء فإن السفر إلى باريس طويل.

أما بروشيه فلم يتمالك نفسه وهو يقول: لقد خرجت زوجتي العجوز، الحق معك وأنا معك … أنت أحق الناس بالعناية وأجدرهم بالمحبة. أنت صريح أنت شريف! فقط وحسب عليك أن تحافظ على نفسك لا تخاطر بحياتك وصحتك.

ثم قال هامسًا: من المرأة التي تفر منها؟ أليست هي هذه الروسية الثرثارة؟ … هي بلا ريب أكاد أقسم على ذلك … لا تنظر إليها ولا تكترث لها. فقط وحسب أقول لك: إنها ليست جديرة بهذا الشرف، شرف فرار رجل مثلك من مطاردتها ما لم تكن قد وقعت في حبائلها وأحببتها. وهذا أيضًا إن كان قد حدث فأعرض عنها يومًا تنسها في عشيته … الوداع يا صديقي الوداع يا ولدي، لا بد أن أصحبك إلى القطار وأوصيك أن تكتب إلي كلما شعرت بالاحتياج إلى مشورة صديق خبير.

ثم انحنى وقبلني في جبيني.

ولكن هذا كله لم يزعزع عزيمتي، لقد صدقت نيتي على الرحيل إلى باريس، وقال بروشيه: إني أفرح إذ أراك تسافر إلى باريس مدينة النور وعاصمة العلم والسياسة والاجتماع وسرة الدنيا ومعرض الفنون، وأوصيك بغشيان المكتبات العامة والمتاحف، وأحذرك من النساء!

وكنت أحب كل الذي أوصاني به.

غادرت محطة لوزان دون أن أودع المليحة الملحة، ولما صرت في القطار أخذت آكل مما أعدت لي مدام بروشيه، ووصلت في الهزيع الأخير من الليل، فانتظرت في «الاستراحة»

حتى الصباح، ورحت أضرب في طول العاصمة وعرضها حتى اهتديت إلى فندق «نوتردام دي لسبرانس» — سيدتنا ذات الأمل — في شارع فوجيرار على مقربة من مونبارناس وميدان المرصد ومدرسة الفنون الجميلة وكنيسة سان چرمان ومعهد الأكاديمي وشارع رين وبولڤار راسپاي، وكان لي بها عهد قديم منذ عامين (١٩٠٦)، إذ وردت العاصمة شابًّا طروبًا متفرجًا لا متعلمًا ومشتاقًا لا مساقًا، ومتطلعًا لا ضائقًا.

فلما استقر قراري في الفندق أخذت أجوس خلال الميادين والطرق، فرزت حدائق فرسايل وقصرها، وتخيلت ماري أنطوانيت جالسة على المقاعد الصغيرة في غرفة جلوسها التي ما زالت على حالها بعد موتها.

وما زلت في باريس أقرأ وأكتب وأشهد التمثيل في أرقى الملاعب، وأغشى مجالس الأدباء والعلماء حتى نسيت المليحة الملحة وتوارت في خزائن الذاكرة ذات المغاليق المحكمة الأقفال.

إنها لم تشفق علي ولم تراع شبابي وزعمت أن قولي: «لقد نشعر أحيانًا في حضرة شخص أنا التقينا به في عالم آخر» — هو من بحران الحمى أو من تعب السهر، إن لم أكن قد اتخذته حيلة ابتكرتها لأستدرجها. لقد كنت مخلصًا وصادقًا فعبرت عن خاطر عابر.

ولكنني كنت أنتقل رغم نفسي إلى تلك الشرفة بلوزان، وأرى بعين الخيال أيدي تلك المرأة البعيدة، تلك الأيدي الناطقة المتحركة التي كانت تعين لسانها في توضيح فكرها والإفصاح عن خواطرها، وشعرت بأنني كنت في تلك اللحظة منذ أيام وليالٍ معدودة أغلي غليان البركان، وأن تلك المرأة كانت تختبرني أو تجربني أو تشعلني بنيران الرغبة فيها تحت ستار الأدب والفن والروح وما إليها من اصطناعها. لقد فررت منها ونجوت بعقلي وقلبي.

متحف جوستاف مورو

نزلت في تمام السابعة من الفندق واخترقت پولڤارسان ميشيل (بول ميش) وشارع مونسيو ليبرانس وشارع مدام وباب متحف لكسمبورج ومجلس الشيوخ والحديقة الغناء، فدخلتها من بابها البحري وقصدت إلى تمثال ڤينوس، ولم يكن أحد من روادها قد تيقظ، غير أن فتيات باريس العاملات بدأن يردن مخترقات سبلها لاختصار الطريق بين شارعي لكسمبورج وداساس وميدان المرصد ومونبارناس، وكلهن ذوات

ملاحة ورشاقة وفتنة وأناقة، وبينهن السمراوات كالرماح السمهرية والغضات البضات كالدجاج السمين والصفراوات الرقيقات كتماثيل العاج، وكلهن ضاحكات فرحات وقد يكون على كاهل الواحدة منهن ما ينوء به كاهل الرجل، وبعضهن مصحوبات بعاشقيهن وهم على موعد أو في توديع الصباح الذي يتلوه لذة اللقاء عند الظهر أو في المساء.

وكانت لي رغبة من زمن طويل أريد أن أحققها، وهي أن أزور متحف جوستاف مورو، فاتخذت مقعدي في عربة عابرة حتى بلغت متحفه وهو بيته الذي كان يعيش فيه ووقفه على آثاره بعد موته.

كان المتحف بدعة لا مثيل لها، فقد تمكن هذا المتفنن الجبار أن يرسم أعظم الصور في الموضوع والمغزى في لوحات بقدر أظفار الأصابع، وجعل لكل منها إطارًا يناسبها، والعجب في أمر هذه التصاوير العجيبة أنها واضحة جلية كأنها مصنوعة على لوحات كبيرة، ولا ينقصها شيء من التفاصيل التي ترى في الصور الطويلة العريضة، لقد كان هذا المتحف كشفًا جديدًا لي، وقد زرت اللوفر، ورأيت لوحات روبنز مما يقاس بالأذرع والأمتار لا بأطراف البنان.

فهذه رقصة سالومية، ترى عينيها وفمها وانفعال الفن والهوى واضحًا في نظرتها، وترى دقائق جسمها المغطى بالأقنعة الرقيقة، وترى رأس يوحنا المعمدان وعليها أثر الذبح، وترى الدماء المتفجرة من عنقه وعينيه المنطفئتين ولم تغمض أجفانهما. وهذه صورة آدم وحواء والأفعى والتفاحة والشجرة بألوان ظاهرة، حتى أشعة الشمس التي تخترق أغصان الشجرة وأوراقها.

وظننت أنني أدركت السر في فن مورو فقلت: إنه الرسم الدقيق بالقلم قبل التلوين والدهان وأنها الفكرة الثابتة في ذهنه والقدرة على إبرازها، كالشاعر الذي ينظم بيتًا واحدًا فيه كل الجمال والمعاني المرغوبة، والآخر الذي ينظم ديوانًا كاملًا، وصانع العطر الذي يركزه في خردلة والآخر الذي يبيعك رطلًا ببضعة فرنكات ولا خير فيه.

رسالة

وضعت يدي في جيبي مصادفة فعثرت أناملي على أوراق شعرت بأنها غلاف، فأخرجته، فإذا به خطاب بعنواني بقي في قاع الجيب عفوًا وأنا أنقل البريد إلى الحقيبة الصغيرة، وترددت في فض غلافه ثم نظرت فاشتبهت في أن يكون بخط امرأة، وامرأة مجهولة لدي لم أر أثر يدها من قبل، وأخيرًا فتحته فإذا فيه:

لوزان في ١٧

سيدي العزيز

لا بد أنك تدهش من كتابتي إليك. لقد حصلت بعد لأي على عنوانك من الأستاذ بروشيه لقد عذبني كثيرًا حتى سمح لي به. واحتجت إلى وساطة زوجته وأوهمته أنك نسيت لدي شيئًا ثمينًا لا بد أن يصل إليك. وقد قال لي: إنه يفضل أن يبعث به مهما كلفه ذلك على أن يعطيني عنوانك بدون إذنك. إنه محق وشديد التقدير لك، ولو علم اللغو الذي أكتبه إليك لأبى ولو بجدع الأنف أن يبوح لي به. فأرجو أن تعرف له هذا الجميل، ولكنني أعتقد أن هذا الاعتذار لا يقوم شفيعًا لديك.

كيف سافرت إلى باريس «وخنت الود بدون ميعاد»؟ لعلك استأت مني في اجتماعنا بالشرفة. لقد كنت مخبولة وربما فاقدة العقل فلم أستعمل الحذر كله في مخاطبتك ... فغضبت وجعلت بيني وبينك هذه المسافة الطويلة. لقد خرجت من لوزان وغادرتها لتبتعد عني، لقد حدثتني نفسي بذلك وأنت تصافحني، لقد هممت أن أستبقيك لأعتذر إليك وأرضيك مهما كلفني. ولكنني خجلت وأن أعلم أنك تغادر لوزان ولن أراك بعد الليلة، فلو حدث أنني لا أراك فأنا أستسمحك وأسألك العفو. لقد التقينا كما تلتقي السفن الماخرة عباب البحر في الظلام، فلم أستبن معالمك ولم تستبن معالمي وقد سار كل منا في طريقه.

من يدري؟ لعلنا نلتقي. إنني أشعر بذلك بل أكاد أكون واثقة منه. كما كنت واثقًا من أننا اجتمعنا في عالم آخر. ليتني أيدتك وشجعتك فقد كنت صادقًا مخلصًا، إنني أيضًا شعرت بهذا الشعور؛ ولذا اضطربت ووجلتُ ولا أدري لماذا. ليتني لم أفه بتلك الكلمة الخرقاء «لعلك تعبت من طول السهر». بعد أن غادرتني لم أنم. لقد شعرت أنني فقدتك إلى الأبد. ثم عاودني الأمل في لقائك. هل تشعر بذلك. إن مثلك لا يتعب من السهر مهما طال. إنك تعيش في الليل أكثر من عيشتك في النهار، إن حيويتك تبدأ بغروب الشمس وتتقوى بانسدال الظلام، ثم تبلغ أشدها بعد نصف الليل. لقد كنت عمياء صماء حمقاء. إذا سمحت لي فإني أحضر إلى باريس للقائك، إني أعرف شارع فوچيرار ولكني لا أعرف الفندق. ولكن المهم عندي أن أراك. إن لوزان تضغط

على أعصابي، أكاد أختنق من جوها الصامت. لم أتحدث إليك. وعندما بدأت تفتح لي قلبك صدمتك بحماقتي، وكان علي أن أحوطك بالحب والعناية، حب الأخوات والأمهات، إن والدتي تذكرك دائمًا وتقول: (أقسم لك إنني لست مرائية ولا خادعة) أتعلمين يا أوجستا إنه نبيل الوجه والقامة، ألا تذكرين جبينه العالي ونظرته الهادئة الفاحصة وحياءه الجم؟ ولكنها لا تعرف ما جرى بيننا ولو عرفته لأنَّبتني. لقد كانت تحس بك الأنس والحماية وترجو أن تدوم علاقتنا؛ لأننا في حاجة معنوية إليك. فماذا أصنع.

بعده (في نفس الخطاب):

لقد ترددت كثيرًا في إرسال هذا الخطاب إليك وحاولت الاحتفاظ به، ولما امتنع بروشيه عن إعطائي عنوانك قلت: هذه رغبة القدر في أن لا أتصل بك. ولكن امتناعه أذلني فصممت على أن أحصل على العنوان علاجًا لجرح كرامتي. إن سكوتي وقبولي كان معناهما أنني خطر عليك وأنه يقيك شري ويحافظ عليك من شيء يؤذيك. فلم أرض أن أكون شيئًا مؤذيًا لك. ولا أظن أنك أوحيت إلى هذا الشيخ الطاعن في السن أن يقطع بيني وبينك؛ لأنك لو أردت هذا لما استطعت؛ لأنك سافرت متعجلًا في الصباح. لقد قصدت إلى بيته لأعتذر إليك فصدمني بخبر سفرك، حتى لم أصدقه في بداية الأمر.

فلما تحققت تأكدت أنك هجرت لوزان لأجلي. يا له من عار ويا له من ندم، ويا ليتك لم تزرني في بنسيون موران، ولكن الذي كان ووقع كان مكتوبًا. لعلني لا أرسل هذا الخطاب إنما أكتبه لأنفس عن نفسي، إذا وصل إلى يدك فاعلم أنه صرخة إخلاص وعقوبة أنا بها خليقة. لو اطلعت أمي على كل شيء لشاركتني في الاعتذار إليك؛ لأنها أحبتك وأعجبت بك. قالت: إنه سيد من النوع القديم ولو كان شابًّا. إنه وارث فلم أسألها عن ميراثك. إنما هي تقصد ميراث الخلال الكريمة التي كادت تنقرض من الدنيا.

هل تصفح عني؟ إن صفحت فاكتب لي.

(بعده):

ما زلت أتلو هذا الخطاب الطويل وأخجل من قراءته، ولكن مثلي لا بد لها أن تذل نفسها لتكفر عن سيئتها ولو لم أشعر بالميل إليك.

إن بلغك هذا الخطاب فمزقه ولا تحتفظ به.

كيف حالك في باريس؟ هل أنت سعيد وهل تقرأ كتبًا جديدة جميلة؟ وهل لك أصدقاء أو صديقات؟ إن باريس مدينة فاتنة ... وخطرة ولست أحذرك منها ولكنني أخشى عليك فتنتها وفتنة النساء. ليس لي حق في هذا التحذير إنه فضول مني وتطفل. لا شك أنك رزين ومتزن ولا تقع في أفخاخ النساء المنصوبة في كل مكان. يا حبذا لو وجدتك في باريس إنني إذن أصحبك إلى متاحفها ومكتباتها وآثارها وكل جميل وثمين فيها، فإني بها جد خبيرة ولي فيها أصدقاء كثيرون من رجال الأدب والثورة أعرفك بهم جميعًا. ولكن هل يصح هذا الحلم الجميل. أبعث إليك بماذا؟ لقد كذبت على بروشيه لأحصل منه على عنوانك. ولكنني أرسل إليك بعض الكتب وبعض عسل سويسرا، ونصيبًا من جبن جرويير اللذيذ الطعم وفطير صنعته أمي. إنه طرد خفيف أرجوك أن تقبله هدية ولا تغضب علي.

(بعده ... في ساعته ومكانه):

أؤكد لك أنني لا أعرف أحدًا من الرجال ولم أتصل بأحد غير زوجي، ومنذ خرجت من وطني أعيش عيشة الراهبات. صدقني أو لا تصدقني ولكن أقول الحقيقة لأنفس عن صدري. وأنا أعلم أن هذا لا يهمك؛ لأنك كنت تبغضني وكنت أسعى للحاق بك في كل مكان حتى قال لي بروشيه كلمة جارحة تحملتها على مضض: «لم تطاردين هذا الشاب يا سيدتي، إنه طالب مجتهد فدعيه.» هل شكوتني إليه؟ إنها كلمة كبيرة إنها تهمة لي بالخنا وهو يعلم أنني طاهرة الذيل. لقد فقدت احترامه لأجلك ولا ذنب لك ولا أجر لي. لست أدري متى أعزم على الرحيل من هنا إلى باريس، ولكنني أخشى أن أضايقك أو أقطع عليك حلمك اللذيذ، لعلك الآن مع فتاة فرنسية جميلة، باريسية حسناء. فتهزأ بي وبخطابي. إن كان كما أقول فأرجوك أن لا تطلعها عليه. إنهن لا يفهمن عواطفنا وأنت أشرف من أن تبيعني بثمن بخس. مزقْ خطابي ولا تقرأه واجعل ثمن وفائي أنك تصونه عن أعين النساء.

والآن قد أطلت عليك وألحت. إلى اللقاء أو الوداع. لا أدري. عنواني ببنسيون موران وإن شئت ففي شباك البريد سأذهب لأسأل عن جوابك كل

يوم صباح مساء إلى أن يصل كما كنت تذهب لتأخذ بريدك. وكلما مررت ببناء البريد أصعد الدرج لأتذكرك.

أوجستا

فرغت من قراءة الخطاب وأعدته إلى غلافه ووضعته في جيبي الداخلي، ولكني فقدت هدوئي ومسرتي، لقد نغصت هذه المرأة ساعة زماني وسممت مجلسي وعرفت كيف تواجه قلبي.

لقد كتبت ببساطة تكاد تكون إخلاصًا ولا غاية لها من مطاردتي على أجنحة البريد، لقد كان خطها رديئًا جدًّا وغامضًا بل غير مقروء، وكان عليَّ أن أقرأه مرات لأستبين ألفاظه ومعانيه، ولكني قرأته للمرة الأولى قراءة ظاهرة، وقلت في نفسي: إن المهم أن أهملها وأفترض أنني لم أستلم خطابًا ولا كتابًا.

وارتفع قدر بروشيه في نظري ولكني لمته في قلبي، فليس من حقه أن يبوح بعنواني لهذه أو لسواها، وأي ثمين تركته عندها حتى يصدق بروشيه حيلتها، إنه فعل فعل أرباب الفنادق إذ يتجسسون ويبيعون أضيافهم بيع السماح. لعله أراد أن تبقى له يد عندها فباعني وأطلقها ورائي، فما علي إلا أن أغير عنواني وأتحول عن نوتردام دي لسبرانس هذه، وأن لا أترك عنوانًا أو أترك عنوانًا مفتعلًا فلا تتمكن من إيصال صوتها إلى أذني.

لم أحمد الله على شيء حمده على توفيقي إلى الفرار من لوزان إلى باريس، لقد تجسمت مخاوفي وتجسدت عاطفة البغض نحو المرأة في نفسي، تلك المرأة الروسية الغامضة التي حاولت اللعب بي.

٢

جولة في باريس

لقد زرت باريس قبل اليوم زيارة خاطفة في طريقي إلى إنجلترا سنة ١٩٠٦، ولكني لم أر منها شيئًا في تلك الزيارة السريعة غير غرفة الفندق ومكتبة في شارع ريڤولي دخلتها واشتريت منها ترجمة نابوليون بونابرت لبوريين، إذ كان هذا البطل العظيم أحد أبطال خيالي، وزرت قبره وأطللت على نهر السين بنظرة عجلى، ثم برمت بالحياة في بلد كبير لا أعرف كلمة من لسان أهله.

وزرت كنيسة نوتردام دي باري لذكرى هيجو الذي وصفها في أحدب نوتردام، ومررت على «المورج» البشع وهو معرض جثث القتلى والمنتحرين الغرقى، فاقشعر بدني عندما رأيت حسناء صريعة مطروحة على لوح من المرمر ملتفة في رداء أسود وكان وجهها ظاهر الجمال محتفظًا بمحاسنه بعد الموت الأليم، فحزنت وتوجعت وحقدت على الحياة والموت، وأحسست في قلبي وأنا أقطع تلك الشوارع أن في كل خطوة وزاوية قد جرى جانب من التاريخ، وكذلك في كل زاوية وخطوة قد جرت دماء صرعى المبادئ وصرعي الآمال وصرعى الهوى، وأحسست أن الذي يؤذيني اشتداد حساسيتي.

ولم أشعر في زيارتي الأولى بأن باريس البلد الوحيد الذي يفهم الحرية؛ لأن الحرية في نظري ثمرة الصراع الذي جرى في الثورة الفرنسية، أما الحرية المعاشية التي يستمتع بها الرجال والنساء فلم أدركها؛ لأنني لست في حاجة إليها إذ كنت زاهدًا.

ورأيت في شوارع باريس موكبين، موكب زفاف وموكب جنازة ولعلي رأيت هذين النقيضين للمرة الأولى في حياتي، فوقفت وعجبت كيف وقع مشهد الموت على قلوب العروسين الطائرين على جناح المركبة المزدانة بالورود، وكان النعش المستعجل مزدانًا بالورود أيضًا، ما أشق عمل الأزهار! وما أصعب موقفها بعد قطفها، وإنه من الخير أن تموت بعد الاقتطاف فورًا، فإنها لا تدري أتحمل هدية إلى معشوقة مدللة أم زينة لشعر راقصة وصدرها، أم تحفة لعروسين، أم تحية وداع للموتى! ما أضيق خيال الإنسان! لم يجد غير هذه النباتات الزاهية الملونة العطرة ليعبر بها عن عواطفه في الزينة والفرح بالحياة والتقرب إلى الأنثى وتقديس رابطة الزوجية ثم مشاركة الثاكلين واليتامى والأيامى في أحزانهم. وكذلك الموسيقى قد جعل الإنسان منها لغة عامة مطلقة. ترى ما كان يصنع لو عاش بغير موسيقى وأزهار؟

قضيت سهرتي وحيدًا في أحد مقاهي مونبارناس، ورأيت أناسًا من كل جنس ولون ونساء مانحات أفواههن وأفخاذهن لكل جالس أو عابر. ورأيت انبثاق الفجر في بولڤار راسپاي وأحسست بحنانه مرة … بعد مرة، ذلك الفجر الذي ينحني على الأشجار ويقبل أوراقها وأزهارها، ويعتصر خصور أغصانها اللدنة ويهزها نسيمه بلطف ويهمس في آذانها سرًّا من أسرار الليل الحافل بالخفايا.

وإذ كنت سائرًا في طريقي لأفطر في قهوة من قهوات بولڤار سان ميشيل أو مطعم من مطاعم الأوديون، رأيت شبانًا وكهولًا يقبلون فتيات في الطريق قبلات طويلة حارة على أعين العابرين وتحت ذقون الشرطة وفي الأركان الهادئة فدهشت.

طيف المليحة الملحة

ولكني أعود فأحقد على تلك المرأة التي كانت في تلك الشرفة المطلة على البحيرة والجبال. إنها لو قدمت إلى الآن وطرحت نفسها على قدمي فلن أعطف عليها ولن أشتهيها. إن الذي شغلني بها في لوزان شعوري بأنها ممتلئة حياةً وفطنة وذكاء وفصاحة. وأنني بعد اللقائين الأولين جعلت ألاحظها وأدرسها لأقف على سرها، فكان يخيل إلي أحيانًا أن جمال روحها يتغلب على جمال جسمها. وقد وهمت أنني تغلغلت في قرارة نفسها؛ لأنني لم أكن في علاقتي بها مشغوفًا بالجسد بل كنت مشغوفًا بالروح والعقل. وكانت هذه الروح تطل أحيانًا من عينيها وتغازلني وتفتنني في لمحة بصر، ثم تعود أدراجها مختفية وراء حدقتيها اللتين كانتا بلون المخمل السنجابي، وخلف هذه الأجفان اليقظة والأهداب المستطيلة.

هل أقول الصدق عندما أحاول أن أعبر عن فكرة غريبة، إنني كنت أحب أن أمتلك روحها وعقلها امتلاك العاشق للجسد … أعقد عقد الهوى بين جسمي وبين روحها. ولكن هذه المرأة لعلها فطنت إلى رغبتي وخافت عاقبة حبي، ولعلها تندم بعد سفري وتلتمس رضاي فإذا فعلت هذا فإنني حتمًا لن أصفح عنها ولن أرضى بلقائها، ثم أعود فأتخيلها تحت شجرة من أشجار البولفار في هذا الفجر الخافت، وأعجب من هذا أنني كنت إذا أقبلت على المقهى أو المطعم أظنها جالسة في انتظاري أو مقبلة علي، إنني لم أر شبحها مرة واحدة ولكنني أحسست به مرات عدة.

كانت تلبس الثوب الأزرق البسيط في ليلة الشرفة وتجلس على مقعد طويل، كرسي الباخرة — وقد رفعت ذراعيها إلى رأسها. هل وضعت على جبينها شريطًا من الحرير الأزرق؟ إنني لا أذكر، فإن كانت فعلت فقد بلغت مني كل غاية؛ لأنني كنت أحب هذا الوضع لدى النساء، هذا الاستلقاء في ثوب بسيط وزينة الجبين بشريط، ورفع الذراعين إلى الرأس. إنه الوضع الذي تكون المرأة فيه بالغة حد الفتنة، مرحبة بالحب في حياء وخفر، صامتة، ولكن كل ما فيها يصرخ وينادي، وقد فعلت هذه الخبيثة على الشرفة المطلة على البحيرة والجبال بخيالي هذا الذي كنت أحبه وأخشاه، ثم خذلتني إذ زعمت أن السهر قد أنهك قواي.

إنني أذكر جيدًا والدتها وطفلها وقد رأيته نائمًا، وأذكر قولها حين حنوت عليه: «إن من يمسك يد الطفل بيمناه يقبض على قلب أمه بيسراه»!

ما خلق الله أجمل منظرًا من طفل نائم وأمه تنحني بعطف عليه!

لقد عرفت هذه المرأة نقطة الضعف في درعي وأنني لا أنال إلا بحب الأطفال، وكانت هذه الطبيعة عندي أمرًا عجبًا، لقد كان عمري بعد العشرين بسنتين أو ثلاث ولكن غريزة الأبوة كانت في قوية غامرة طاغية، حتى كنت أشعر أنني أب للكبار وأريد أن أكون بارًّا بكل من أرى من صبي وكهل وشيخ وفتاة وامرأة.

هل كان مرضًا ذلك الحب العام الغزير؟ يكفي تحريك هذه العجلة حتى تدور الأداة كلها، كان حبي يشمل النبات والحيوان والإنسان من زهرة الخزامي إلى شجرة الماجنا كارتا، إلى ذلك الطفل النائم الذي تذكرته ... هل كنت مريضًا حتى أحب كل هذه العوالم التي لا قبل لي بحفظ أسمائها وتعدادها، أم مغرورًا في قدرتي على تغذيتها بالحب الشامل؟

٣

حفلة الفنون الأربعة

كنت أمر بميدان المرصد وببال بولييه وأرقب الفنانين وصديقاتهم، وقد روى لي صديق فوصف لي حفلة الفنون الأربعة التي تقام كل عام بساحة بولييه وقال لي بكلام هادئ كمن يقطر السم في قارورة نقطة فنقطة: إن خلاصة المنظر يا صاحبي الزاهد فهو رجوع الإنسان إلى الطبيعة دون قيد ولا شرط فهي ليلة التحرر التام من جميع العبوديات، ليلة الفطرة وأما الذي رأيته واشتركت فيه فيعجز اللسان عن وصفه؛ لأنه فوق التصور وفوق الخيال، فكل ما يمكن قوله وفعله في تلك الليلة فيقال ويفعل ولا حرج ولا غضب. وبعد تلك الليلة بقيت نصف شهر كأنني في حلم عميق وغباء مطلق، وخرجت أسأل نفسي لماذا لا يستمر الناس على هذا النوع من الحياة، لقد صارت الدنيا والناس في نظري بعد تلك الليلة تفهة خاملة باردة، إذا بقيت في باريس إلى الموسم فإنني بلا شك أدخلك إلى هذه الحفلة.

فجفلت من هذا الوصف، وقلت له: أنا أدخل هذه الحفلة؟ لا تظن ذلك يا صاحبي. أنا لست إباحيًّا ولا متهتكًا ولا أحب الإباحية ولا التهتك أنت مخطئ في وهمك. أنت تدعوني زاهدًا هذا حسن ولكني لست زاهدًا إلا باختياري، ولكنني إذا خلعت رداء زهدي فلا أصل إلى ما تصف مطلقًا، إن طبعي يأباه. إنها حيوانية محضة، إن الحب الصحيح يحتاج إلى السر والكتمان، أما هذا الذي تصفه فلا أعرفه ولا أتذوقه ولا أتوق إليه.

أتعلم أن وحوش الغاب التي تفترس الحيوان لتطعم تأبى أن تجتمع اجتماعًا كالذي وصفته؛ لأنها تتستر وكذلك الطير والزواحف. فهل تريد أن يكون الإنسان أقل منها، أنا أفهم التقبيل والعناق في الطريق وفي البساتين وعلى أفاريز السكة الحديد عند الوداع، ولكن إحياء ليلة بطولها رضاء للحواس فلا. لقد قرأت وصف الفنانين والمثالين وأخبار المصورين والنساء الذين يتخذونهن (مناقل) و«أمثالًا» عاريات، فراقني كل شيء منها إلا أن ينتهك الفنان حرمة الجمال الذي نقل عنه لوحته أو تمثاله. أترى لأناتول فرانس في أحد كتبه يصف تمثالًا «فاتنًا» صنعه فنان منذ أربعين عامًا، وكان يزوره الكاتب ويعجب به، كان تمثال امرأة رائعة الجمال، لم يخلق الله أجمل منها في باريس. وقد رأى امرأة شيخة دميمة متدلية الشفتين، بائسة جالسة على عتبة داره فلم يكترث لها فقالت له: إن السادة الأماثل يحييون السيدات فعجب لها ولجرأتها وهي في هذه الحال من الشيخوخة والدمامة والفقر. ورآها ثانية وثالثة ورابعة فصار يحييها ويرفع لها قبعته، وألحت عليه فطرة الاستطلاع فسأل عنها حتى علم ما لم يكن يود أن يعلمه … إنه الأصل الذي نقل عنه الفنان ذلك التمثال المعبود منذ أربعين عامًا، فصعق الكاتب ورأى أن يكفر عن ذنبه بتخليد اسمها في كتبه والاعتذار إليها والإحسان إليها قبل أن تموت. أترى هذا؟ إن الجمال زائل وإن الفكرة باقية؛ ولذا لا أرى أن يلوث المصور أو المثال معنى الجمال الخالد بامتلاك جسم الفتاة التي يورثها البقاء بفنه، بعد الزواج بين عقله وجمالها لا يجوز له أن يعقد زواجًا بين جسمه وجسمها. فكيف بهذا الانتهاك الذي تصفه في ساحة بولييه ليلة بطولها؟

فضحك صاحبي وقال لي مازحًا: «إن كل فتاة باريسية ترى أنك طالب ريفي، ولن ترضى عنك واحدة. ولو قلت لهن عشر ما قلت لي فإنهن يهجرنك إلى الأبد بعد أن يضحكن عليك ويسخرن منك. حذار أن تبوح لإحداهن بهذه الحنبلة العتيقة المضحكة».

فلم أتأثر بهذا الحديث.

بين فلوبير وجي دي موباسان

كنت أحب بارك مونصو وأحب أن أجلس إلى تمثال جي دي موباسان؛ لأنني قرأت كتبه وكانت المرأة الروسية حدثتني عنه؛ لأن أبناء جنسها يقرءون كتبه أكثر مما يقرءون إميل زولا، وقالت لي: إذا تذكرت وجه المرأة الراقدة تحت التمثال تقرأ في دلال وتفكير أحد مؤلفات الرجل، وجدت أنها تشبهني شبهًا شديدًا وهذه مصادفة غريبة. فكنت في

زيارتي الأولى أقصد إلى تلك المقارنة لأتبين صدقها ثم صرت أزور لأستمتع بها وأتوهم أنها هي، ولكني بعد ذلك صرت أمقت التمثال وصاحبته وأعرض عنها وأقصر تأملي على وجه موباسان. وكان هذا الآخر كالثور العريض القفا، كان ذا عنق صلب غليظ كبني إسرائيل وله وجه فلاح فرنسي وقسوة خلقته وشاربان سميكان كثان كنبات بري ينبت وينمو بغير تشذيب. ولكن هذه الغلظة في الخلقة تزول من ذهني عندما أمعن النظر في عينيه وجبينه، لقد كانت عيناه تفيضان رحمة وعطفًا وذكاءً، وكان جبينه كصندوق من الفضة اللامعة حسن الصنع، ملآن بالجواهر الثمينة والتحف الغالية، كان جبينًا مسطحًا فسيحًا عاليًا كباب قصر منيف نبيل. وكنت أحب موباسان حبًّا جمًّا؛ لأنه أسعدني أيامًا وليالي لا تحصى، وعلمني كثيرًا من دروس الحياة وفتح عيني على طبيعة الرجل والمرأة ورفع لي عن كثير من قناع المجتمع، وحاز إعجابي لرشاقة أسلوبه ودقة تفكيره، وهو لا ريب أعظم قصاص في العالم ورب القصة القصيرة، يكتب وكأنه يحفر في مرمر ويختار اللفظ الشريف للمعنى المنيف، ويصنع الجملة كما يصوغ الصائغ حلقة الذهب، ويدمغ مظالم الإنسان بطابع من النقد المرير، ويفضح الغفلة والبلاهة دون تنديد أو تشنيع، وقد فهم طبيعة المرأة بأفضل مما فهمها زولا أو فلوبير. إن عند فلوبير زانية واحدة وهي مدام بوڤاري، ولكن موباسان تعج كتبه بمن فقنها في الشغف والشوق والخبث والاستهتار، وإن فلوبير عاش ومات أسير اللفظ والجملة والتركيب والصياغة والقوالب، أما موباسان فقد أسر اللفظ والجملة، واستولى على التركيب والصياغة والقوالب، لقد كان فلوبير أستاذًا عظيمًا ولكن موباسان كان راوية وفنانًا وقصاصًا وعالم نفس وإنسانًا.

كنت أعلم أن فلوبير خاله وأنه علمه وأرشده وأمره بإحراق كثير من مخطوطاته قبل نشرها ليدربه على التضحية، فإن الكاتب والشاعر لا يصل إلى شيء إن لم يُضح بما كتب أولًا وثانيًا وثالثًا.

وكنت أعلم أنه توفي فاقد العقل في مستشفى دكتور بلانش، نتيجة الإفراط في الغرام، كان متقدمًا في السن، وكان وهو في الأربعين من عمره يحب الأفريقيات والأمريكيات وسائر الأجنبيات ولا يهدأ مطلقًا. لقد عمر خاله ولكن أورثه حب الأفريقيات؛ لأنه سافر إلى تونس ليتزود من وصف قرطاجنة قبل أن يخط سطرًا واحدًا في «سالامبو»، ولكن ابن أخته عشق سالامبو لحمًا ودمًا. لقد فضحه خادمه فرانسوا.

«الهال» سوق باريس

وفي ليلة من الليالي دعاني صديقي إلى «الهال» … ما هو الهال؟ إنه سوق الخضر واللحوم والأسماك والدجاج والزبد والأزهار والطعام والشراب وسوق الجمال الريفي والدمامة الباريسية، بطن باريس وأحشاؤها … ولكن لا بد من الذهاب إليه في الهزيع الأخير من الليل.

فلما بلغنا الهال تخيلت أنني في معبد كبير أقيم لتمجيد الزاد، وإنه لكبير حتى يأبى الحصر والعد وأن الوارد عليه من الخيل والمركبات المحملة والعجلات الموسوقة لما يعجز عنه القيد بالفكر أو بالقلم، وليس ثمة أغرب ولا أعجب من ذلك الحشد الصاخب من النساء والرجال والغلمان والفتيات والحمالين والحوذية وباعة المآكل المطهية المعدة للطاعمين، وإنهم ليعدون بالألوف وهم يروحون ويغدون رافعين خافضين يزنون اللحوم والطيور والفاكهة، وينزلونها منازلها ويصففونها ويبينون أثمانها وينادون ويصيحون ويصخبون ويعرضون المئونة بالقطع بأبخس مما يبيعها تاجر المدينة بالجملة، إنك تأخذ أقة الخوخ بنصف فرنك وقد تدفع ثمنًا للخوخة الواحدة ثلاثة فرنكات في مطعم شهير، وترى الأسماك تلعب في أحواض من المرمر ملآنة بالماء فتختار منها ما قيمته فرنك واحد، فإذا هو يعدل عشرة فرنكات في الأسواق الأخرى. أما الزبدة فتلال وهضاب، وأما اللحوم فألوف الأطنان. وأما الخضر فحقول فكأنها جمعت لتموين جيش محارب لبضعة أشهر لا لتغذية مدينة يومًا وليلة. ما هذه الأرزاق وما مصادرها ومواردها؟

وكنت أسير وألتفت إلى كل عجيب وغريب وأنا أعلم أنني أرى صورًا وسحنًا ومناظر لم يجعل الله لها ضروبًا ولا أشباهًا في أي مكان آخر غير باريس. إن بابل نفسها لم تر منظرًا كهذا، ولا رومه وأتينا ولا منف ولا طيبة ولا بغداد في عهد هرون الرشيد، ولا قرطبة في زمن ابن الوليد ولا طوكيو ولا بكين ولا كلكتا ولا دهلي رأت سوقًا كهذه السوق، هنا ثروة أمة وخيراتها وجمالها ودمامتها. وإنها لجامعة للدرس ومتعة للنفس وصفحات مفتوحة بل مجلدات مطروحة للفراسة والتأمل والمقارنة، فهنا حمال لا يقل عن «جان فالجان» قوة، يحمل الطن على كتفه وظهره ولا ينوء به، وهذا العملاق يحول المركبة الكليلة تحت أعبائها بنقل عجلاتها وكأنه طفل يلهو بلعبته.

وكنت أختلس النظرات إلى بنات الفلاحين الغضات البضات ذوات الخدود الوردية والنهود الرمانية والقدود القضبانية والعيون الغزلانية والنحور الفضية، وهن أشبه بالأزهار المتفتحة، وإن كانت بعضهن ما تزلن بين النوم واليقظة، فقد وردن باريس مع الفجر من ضواحيها المتقاربة ونهضن من فرشهن الدافئة بعيد نصف الليل بساعة أو ساعتين، ولكل بنت منهن خطيب يصحبها أو قريب ينتظرها في السوق، ولكنهن مرحات فرحات يبعن ويقبضن الأثمان، ويضعنها في أكياس من الجلد جعلن مناطها في أكتافهن. وكان منظرهن يعجب أمثالي الذين يعيشون في المدن وأتمنى أن أعيش في الريف وأتمتع بملذاته الطازجة البريئة.

مناظر البؤس والشقاء

وكنت أرى البائسين والمدقعين والجياع يتتبعون الأحمال والأقفاص والأكياس؛ ليتلقوا ما قد يسقط من خروقها أو يلفت من حبائلها أو ما قد يكون لاصقًا بها، كورقة كرنب أو بطاطسة مجرحة أو عنق خرشوفة أو خوخة معطوبة أو كريزة متدحرجة أو حبيبات من الحمص الأخضر، ومن هؤلاء الملتقطين المترقبين نساء يحملن أطفالًا رضعًا أو يتبعهن صبي صغير، لا بد أن هيجو رأى مثله وتقصى تاريخ طفولته قبل أن يخلق أحد أبطال قصته «جاڤروش»، إنها لصورة أليمة قد سلبتني معظم لذتي، إن الذي يعيش على هذه الفضلات لا يمكن أن ينسى أبدًا حقده ونقمته على هذا المجتمع اللاهي السخيف، وإن الولد الذي يرى هذا المنظر وأدركه على حقيقته ثم سلك سبيل الحياة، واقتنى الملايين فلا يمكنه أن يعطف على أحد أو يحنو على أحد أو تأخذه الشفقة على إنسان أو حيوان، سوف يقول في نفسه: «لقد رأيت أمي تجمع فضلات الخضر وقمامة الأسواق لتطعمني وتطعم نفسها، بينما كان هؤلاء الأوغاد يأكلون ويشربون، إنهم كلهم مجرمون غنيهم وفقيرهم، قويهم وضعيفهم بائسهم وعائلهم، مجنونهم وعاقلهم. إن الكل عندي سواء.» وإنه يكون على حق.

ولكني كنت مسرورًا برؤية كل شيء ولا أحب أن أعيش في قمقم أو في برج من العاج، بل أود لو استطعت أن أطلع على كل شيء؛ لتفرغ نفسي في قوالب شتى من اللذة والألم وشعور الخير والشر.

عاطفة الحنان والشفقة

لقد نشأت في نفسي منذ صغري عاطفة الحنان والشفقة على الضعاف والفقراء والمرضى واليتامى، وكان قلبي يتحرق كلما رأيت مسكينًا أو متسولًا، ولم يفارقني في صحوي ونومي منظر هؤلاء الأطفال والنساء العراة الأبدان في زمهرير الشتاء متكدسين على أرصفة الشوارع في القاهرة، مذ كنت صبيًّا أطوف في الليل وأرى أهل الغنى والمرح يمرون في مركباتهم الفخمة وثيابهم المزركشة ببطون ملأى بأفخر الأطعمة وأدمغة عامرة بأنواع الخمور، ولا يعيرون هذا الشقاء الممدد أمام أعينهم الوقحة لفتة إحسان أو يمدون إليه يدًا بصدقة، وقد دونت في إحدى مذكراتي عاطفة مرت بي في إحدى الليالي فقلت: «يا حي الأزبكية يا قلب القاهرة النابض، إذا أسدل الليل ستره سيجيء يوم يندم فيه الإنسان على أنه وضع حجرًا في أساسك، وبدلًا من أن تكون كعبة القصاد، قصاد اللهو والفجور، يتجنبك الناس كما يتجنبون الأماكن الموبوءة، وإذا مروا بك في أواخر الليل حين ينتهي آخر فصل من تلك الفصول المبكية المضحكة التي تمثل في شوارعك وبيوتك وحاناتك وملاعبك وأنديتك، لعلهم بدلًا من أن يروا رجالك ونساءك الذين كأنهم الدمى التي يلهو بها الأطفال، تتراءى لهم أشباح أولئك البؤساء الذين ذاقوا آلام البرد والجوع والعراء».

ولعل هذه المناظر وأمثالها ولدت في نفسي ميل التمرد والسخط على الناس، ولا سيما الأقوياء منهم الذين يبطشون والأغنياء الذين لا يحسنون ويبددون المال في غير ما خلق له.

وكنت في صباي أحسب السرور حرامًا عليَّ إذا رأيت الآخرين محرومين منه، فكنت أحزن كلما رأيت طفلًا جائعًا أو مريضًا أو طفلًا يطلب لعبة أو حلوى فلا ينالها، وأحمل هم كل والد تمزقت أحشاؤه؛ لأنه لم يستطع أن يدخل إلى بيته بهجة الأعياد، وكل أم عالجت أحلام أطفالها بالدموع، وطالما سرني قول المعري:

فلا نزلت علي ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلادا

نعم كنت أرى أنه خليق بي وبالناس أن لا يهنئوا بالعيش إلا إذا عملوا على إزالة الشقاء والجهل والفقر والمرض من هذه الأرض.

فلما أن رحلت إلى أوروبا وقرأت في صحفها أوصاف الفقر ومشاكل الحياة المادية، قويت في عاطفة الشفقة على الفقراء والغضب على ذئاب البشر الذين يطلبون الغنى حلالًا أو حرامًا، ويأكلون في أجوافهم نار جهنم والذين يهون عليهم أن ينعموا بالعيش وغيرهم يشقى:

وكلكم قد نال شبعًا لبطنه   وشبع الفتى لؤم إذا جاع صاحبه

إنه للؤم أن يشبع الفتى وغيره جائع، أن يلبس الثياب الأنيقة الجميلة الغالية يزهى بها وغيره عار، أن يتمتع وغيره نصيبه الحرمان.

لقد شهدت محافل في الغرب يخطب فيها رجال وقفوا أعمارهم على إصلاح الأمم وتعميم الإحسان ومحاربة الشقاء، وسمعت أقوالًا لأقطاب من العلماء تهتز لها أعواد المنابر وتثور لوقعها النفوس الحساسة، فكنت أحترمهم كل الاحترام، فكم جاهدوا وكم ضحوا وكم تعبوا وكم تألموا، وقد كانت حياتهم جهادًا مستمرًّا وبؤسًا مستمرًّا، لم يخرجوا من سجن إلا إلى سجن، ولم يرجعوا من منفى بعيد إلا إلى آخر أقصى وأقسى، ولم يسلموا من حمام إلا إلى حمام من لدن ظهورهم إلى قبورهم، كذلك المتمرد بلانكي وهؤلاء المصلحون باكونين وكوربوكتين وهاردي وجويس.

ماذا يفيد توزيع الثروة إذا كان الناس يعبدون المادة؟ وماذا يفيد تهديم الحكومات إذا كان الناس يميلون إلى التحكم؟ وماذا يفيد إلغاء الطبقات إذا كان الناس يميلون إلى التفوق؟ وماذا يفيد نزع السلاح إذا كان الناس لا يزالون يميلون إلى الاعتداء والاغتصاب وإلى حل مشاكلهم بالعنف لا بالإقناع، فإذا لم يجدوا سلاحًا عضوا بأسنانهم ومزَّقوا بأظفارهم؟

إن الذي يكفل سعادة البشر أن تتغير طبائعهم وتتهذب غرائزهم، فالداء من الداخل أيها الناس وليس من الخارج، ولعل النبي العربي — عليه الصلاة والسلام — وتولستوي الروسي هما اللذان حاولا العلاج الصحيح.

إن حضارة الشرق كانت حضارة مبادئ وقيم ولذلك لم تعش ولم تنجح؛ لأن المبادئ والقيم تتبع القوة وتتحول وتدور وتتطور، أما حضارة الغرب فحضارة المادة والقوة والأمر الواقع، هي حضارة بعيدة عن المبادئ، فما كاد الغرب يحس بقوته وضعف الشرق حتى حاول اكتساح بلادنا، ورأى هنا زيتًا فمد خرطومه «ليشفط الزيت»، ورأى هناك مغاوص لؤلؤ فمد أنامله ليتحلى باللؤلؤ، ورأى هناك قمحًا وذرة وقطنًا فمد فمه

ويده ليأكل القمح والذرة؛ ولينسج القطن ليبيعه لنا بأبهظ الأثمان، ورأى هنا حجارة الماس فأغار عليها، وهناك ملحًا فاستولى عليه، وهنا توابل فاغتالها؛ لأجل هذا تجدني كافرًا بالغرب لتعديه، وكافرًا بالشرق لخضوعه.

تمثال البرد والجوع

وقبل أن آخذ سمتي للعودة أردت أن أرى تمثال البرد وتمثال الجوع والمستجدية الضريرة. فإن الفن في باريس قد دفع ثمنًا للعواطف الشريفة وسدد دينه للخير، ولم يقتصر على تصوير الجمال والعشق والأرداف والنهود والصدور والقدود بل جعلوا لهذه المآسي تصاوير وتهاويل خالدة تؤثر في القلوب المقدودة من الصخر أو الفولاذ؛ لا لأن الفنانين تعطفوا ولكن واحدًا منهم لم ينج من لذعات البرد والفقر والجوع. وإن تعجب لشيء فاعجب لصرعى الجمال الذين يستخفون بالشقاء في سبيل الفن ويهجرون بلادهم وأهلهم وقراهم وفيها اليُسر والرخاء وألوان من النعيم والبحبوحة ليعيشوا جائعين ومحرومين في مساكن أشبه ببروج الحمام على سطوح المنازل، يعانون بين جدرانها شدة الحر في الصيف وشدة البرد في الشتاء، ثم إن الحظ قد يواتي واحدًا من ألف منهم فيصعد سريعًا إلى قمة المجد والغنى، وإن الحظ ليهلك بقية الألف بين براثن المظالم ولا يشفق عليه أحد. وإن من هؤلاء المظلومين من يموت فيستولي الوسطاء والسماسرة على تراثه من اللوحات أو التماثيل فيكتشف فيها جمالًا وفنًّا كانوا عنه عميانًا، فتابع بمئات ألوف الدراهم والدنانير وكانت من قبل نسيًا منسيًّا ملقية في زوايا الإهمال تحت أكوام من القمامة والمقاذر والأوساخ، أو معلقة على جدار مطبخ أو مستعملة سدًّا لنافذة تحطم زجاجها.

عندما كنت واقفًا أمام تمثال البرد بعد تمثال الجوع والسائلة العمياء أطرقت وابتسمت وقلت: نعم إن التاريخ يعيد نفسه، والحقيقة واحدة ولا تتعدد ولكنها تتكرر فتبدو في مختلف الأشكال والألوان. لقد رأيت في «الهال» ثم في تمثال البرد والجوع، جنة الجياع وجحيم المستسلمين.

وكنت كلما مررت بمنظر في شارع أو بمحفل في مقهى أو بمعقل لفتوات الليل وفتيات الفجر، سمعت مجونًا وسخرية وهزلًا كأنه مسرحية هزلية متناهية في الهزل تمثل على مسرح المآسي والفواجع.

ولم يكن هذا بأغرب مما رأيت هذه الليلة في باريس في الحياة الحقيقية النابضة.

أليس من الغريب أن يقترن هذا الجلال بذلك المجون؟ وأن تلقى كل هذه العظمة في تيار من السخرية والهزل، وأن ينفخ الفم الواحد يومًا في الصور ويومًا في القيثار! إنه صوت باريس، صوت جبار مقلق يطن في الأذنين باستمرار، إنه كالشراب القوي الذي يورث الدوار والدوخة ولا يتحمله إنسان مثلي بدون ملطف يخفف من عنفوانه.

الجزء الثاني

اللقاء

اللقاء

١

بيت آل راسين بحي پتي لانسي

لقد مضى على هذه الذكرى سبع وثلاثون سنة وهي تتجدد في خاطري وقلبي وذاكرتي وعلى رأس قلمي فأعدها وفاءً مفروضًا علي وأعد مرورها بخاطري نعمة من الله فتستحق الثناء والشكر.

في مثل هذا اليوم وكان يوم الأحد التقيت بمدام أوجستا دامانسكي فيليبوفنا كاتبة وأديبة عارفة باللغات والآداب وخبيرة بالفنون الرفيعة وعريقة في تاريخ الثورة العالمية، ومخلصة للجمال والحق والخير. التقيت بها في بيت ريفي في ضاحية بيتي لانسي بچنيف لأسرة راسين، رأيتها فعرفتها وتجددت بيننا صداقة أحكمت المصادفة الباحتة عروتها من صيف ١٩٠٨ في مدينة لوزان. وكان اليوم السابق على اللقاء ١٨ مارس يومًا مطيرًا عبوسًا قمطريرًا مثل نفس اليوم السابق للذكرى في هذا العام ١٩٤٧ في مصر.

وفي ذلك اليوم من سنة ١٩١٠ أمطرت السماء مدرارًا في ليون (حيث كنت)، وفي جنيف عندما بلغتها واستمر انهمار المطر طول اليوم وكنت بغير مأوى ولا صديق ولا رفيق ولا أنيس، قادمًا من ليون مقر دراستي شبه هارب من الظلام والبرد والوحدة، ضعيف البدن منكمش الروح منطويًا على نفسي شاعرًا بحزن عميق. جئت في عطلة الفصح ألتمس الشمس والهواء والنور والحنان والخضرة والماء والدفء والأنس والراحة والصحة في ضواحي جنيف بعد الضباب والظلام والرطوبة، ودخان المصانع وبرد المساكن ووحشة الوحدة وتعب الدرس ومرض الحنين إلى الوطن. فلما قابلتني الأمطار

والثلوج والرياح العاصفة أول ما ترجلت من القطار في الساعة الأولى بعد ظهر السبت ١٨ مارس سنة ١٩١٠، ضاق صدري وأسأت الظن بالأقدار واتهمتها بالتآمر وعناصر الطبيعة عليَّ. عجبًا في مستهل الربيع ولم يبق على مولده إلا ثلاثة أيام تلقاني الطبيعة عابسة باكية وهي التي تبسم لبعث الأرض في شهر آذار، وتفرح بمولد الأزهار وتعروها هزة السرور ونشوة الوجود تصحبها موسيقى الأطيار، فاستسلمت ولم أجد بدًّا من الصبر.

وصممت على العودة إلى وكري الذي ألفته في البلد الذي فَررتُ منه فرارًا، وسئمت الإقامة فيه، ولذا تركت حقائبي وفيها متاعي وكتبي في مستودع السكة الحديد، وعولت على أن أتغدى في المدينة ثم أعود أدراجي في قطار المساء، فلما انحدرت إلى البلد اشتد نزول المطر، كأنما ينساب من أفواه القرب، وإن عندي الآن كتابًا ما يزال جلده ملطخًا بأوحال المطر؛ لأن الثلج كان ينهمر ملوثًا في سماء جنيف الصافية عجبًا، والكتاب ترجمة حال يوسف متزيني الثائر الإيطالي أقلبه بين يدي في مثل هذا اليوم، فيحرك أشجانًا مضى عليها نحو من أربعين سنة وما تزال تعتلج في صدري.

ولما تغديت في مطعم بشارع كوراتري آنست لطفًا ودعة في وجه السيدة التي قدمت إلي الطعام فسألتها عن مستقر لي إلى حين في ضواحي البلد فقالت لي: عليك بحي پتي لانسي واقصدْ إلى بيت آل راسين تجد ما يسرك، فنسيت عزمي على الرحيل وتضاءل ما لقيت في سبيل الوصول من البْرد والبَردَ. وقطعت مسافة طويلة في مركبة حتى بلغت الخط الذي هدتني إليه صاحبة المطعم، ووقفت أمام بيت كبير ذي حديقة فسيحة جرداء معتمة أشجارها بالجليد، وسرت إلى أن بلغت مدخلها فلقيتني امرأة نصف ذات وجه «كالح مالح»، ومزاج بارد جامد وسحنة عابسة يابسة وذوق ممجوج وصوت مثلوج، وأظهرتني على غرفة ذات شرفة، فشعرت بانقباض لرؤيتها ولاطفتها حتى أفلت من يدها.

وسرت هائمًا لا أدري أين أقصد وقد مال ميزان النهار ودقت الساعة السابعة ولم يبق على الغروب إلا دقائق معدودة، وأنا لم أر الشمس في شروقها حتى أكترث لغروبها ولكن ساعات النهار قفزت من يدي وأخذ الظلام يرخي ستوره. تأمل ولم أهتد إلى مبيت لي، والمطر ينهمر وثيابي مبللة وكتابي به بقع ولا أحمل مظلة تقيني في طريقي.

وكانت ربة الدار النكراء ترقبني عن بعد لترى أين تقودني أقدامي. فسرت قدمًا وأغمضت عيني برهة وكان الثلج والمطر قد خلعا على الطريق ثوبًا يبدو حينًا رائعًا

وطورًا قاتمًا، وعاودني الضجر والقلق والوحشة التي ودعتني بعد غدائي، وظننت أن ليس لي عيش في هذا البلد ولن يكون لي فيه مضجع ولا مبيت إلا في فندق مطروق وهو أبغض المساكن إلي.

وهذا أثر من القدرية الشرقية التي تلازمنا حيث كنا، ومن فضائلها روح المغامرة وعدم اليأس من رحمة الله، لشد ما قاسيت في الشباب مغتربًا سائرًا وراء سراب الآمال متوكلًا على الله، فلم أعد أدراجي في الظلام وفي ضاحية تكاد تكون مهجورة لندرة المباني فيها، من للغريب في البلد النائي؟ فأطرقت وأنا أسير تحت المطر والجليد المتساقط، وشعرت بوحشة غريبة، وقد علمت فيما بعد أن المكان آهل بالمقبرة الكبرى سان جورج، وسمعت رنين النواقيس من كنيسة بعيدة، وهذا أذان المغرب عند الكاثوليك في مدينة زعيم البروتستانت كالڤان، يا له من تناقض: مطر غزير في أول الربيع وأجراس في بلدة الاحتجاج المسيحي، ومقبرة في الضاحية التي قصدت إليها ألتمس البعث والحياة!

ولكنني تقدمت نحو الصوت وتذكرت أحدب نوتردام الذي يدق الأجراس، فضحكت في وجه الطبيعة العابسة.

وفجأة رأيت نورًا ينبعث من نافذة وتمنيت من قلبي أن ألقى مع النور إنسانًا يبش ويهش للقائي، فضحكت ثانية لهذا الخاطر الخاطئ.

فلما دنوت من البيت ألفيت بعتبته طفلين: صبيًّا وفتاة، فابتسما لي فتفاءلتُ بهما وحييتهما، فأسرعت الفتاة إلي وقالت: عم مساء يا سيدي هل أدعو لك جدتي؟ قلت: نعم. وكأن جدتها وراء الباب تنتظرني فخرجت وحيتني وفتحت الباب ورحبت بي قائلة: ادخل بس من فضلك (أنتريه سولمن سلڤوپليه) وهو تعبير سويسري خاص بهم. ولم أكد أخطو وأنا لا أصدق حتى تناولتْ قبعتي ومعطفي، وأحضرت لي مباذل ورجتني أن أخلع حذائي، فوجدت نفسي في ردهة دافئة وسمعت أصواتًا ينبعث منها الدفء، دفء الروح والقلب.

وأدخلوني إلى قاعة استقبال وهي التي ينبعث منها النور الذي تمنيته واختفت العجوز جدة الصبيين، وظهرت سيدة تتقن لقاء الضيف وأجلستني ورحبت بي ثم قالت لي: تشرب فنجان شاي وتستريح.

قلت لها: نعم إذا تفضلت، ولست أبالي في أي بيت أكون أو في ضيافة من حللت، وقد شعرت أنني حللت على الرحب والسعة.

فقالت لي السيدة: هنا بيت راسين.

فدهشت حتى كدت أخرّ لله ساجدًا. وعندنا مبيت وقرى أراغب فينا. يا سيدي.

قلت: نعم، قالت: هل تقصد إلينا؟ قلت: نعم وكيف لا، قالت: أين متاعك؟ قلت: في مستودع المحطة قالت: عليّ بالإيصال لأبعث في طلبه، فقدمته إليها ونهضت واتصلت بالتليفون، وعادت فرحة وقالت: بعد ساعة يصل إليك متاعك ريثما تشرب الشاي، ألك بعد الشاي في حمام ساخن. قلت: نعم. كيف لا كأنك تقرئين ما في نفسي وتعلمين ما بها.

وجاء الشاي والفطير والعسل والزبدة والحليب وأخذ الطفلان يلهوان بجانبي، ويضحكان ويثرثران كتغريد الطير وأمهما تحتفي بي وتؤنسني وتتلطف بي، امرأة في الثلاثين أتقنت فن الترحيب واجتذاب قلوب الأضياف تحسن المصانعة، فنسيت في برهة متاعب النهار كله، وتجددت في نفسي الآمال التي كادت تودعني وعجبت من تصرف الأقدار التي سلمت لها قيادي. وتكلمت السيدة. وعزفت على البيانو وأطلعتني على مجلات مصورة ولم تسألني قط عن اسمي وجنسي وبلدي، ولم تساومني ولم تعرض علي غرفة ولم تشعرني أنها فندقية تاجرة ولا ربة نزل تؤجر على استقبالها، ولكنها أشعرتني أنني نزلت بقوم كرام يحبون الضيف.

وبعد ساعة أقبل حوذي يسعى من أقصى المدينة ينقل حقائبي. فقالت لي السيدة الشابة مدام جان راسين أما أمها فمدام پيدو: هيا يا سيدي اصعد إلى غرفتك وخذ ما تشاء من ثيابك للحمام. وقد أعدّ لك. وتقدمتني إلى غرفة فسيحة شرقية بحرية ذات أثاث جميل ونور ساطع ومقاعد وثيرة وفراش رحب ومناضد للكتب وخزائن للثياب.

ففتحت مغاليق الحقائب وأخرجت ما أنا بحاجة إليه وتوجهت إلى الحمام، ولهجت بحمد الله عندما رأيت بخار الماء الساخن يتصاعد ولمست بيدي حرارة الماء، وشممت عبق الصابون المعطر وأخذت أستمتع بالمستحم (بانيو) وحككت جلدي بلوفة مصرية، لله ما كان أجمل منظر رغوة الصابون وألطف فقاعاته الملونة بقوس قزح. ولله ما أعظم الشعور بنعمة النظافة والراحة بعد هذا اليوم الأليم المضني! ونظرت إلى وجهي في المرآة فلم أكد أعرف نفسي ورددت نضارتي إلى حسن اللقاء وفرحة أهل البيت وبراعة الترحيب، وهذا حمّام للروح يفوق في أثره حمام البدن.

قالت لي مدام راسين بعد ذلك بأسبوع — غير ممتنة ولا مباهية: لقد أقبلت علينا فأشفقنا من غبرة وجهك لشدة ما عانيت من المطر. وقد صدقت.

وخرجت إلى قاعة الجلوس فقالت لي ما يشبه في الشرق قولك: «نعيمًا»، ودعتني إلى غرفة الطعام للعشاء، وللمرة الأولى رأيت زوجها واسمه جان راسين (حنا تزوج من

حنينة ولكن ما أعظم الفرق بينهما) وإلى جانبهما الطفلان فرد وميمي (من يدري ما فعل الدهر بتلك الأسرة، الجدّين والبنت والزوج والحفيدين؟)

وفي الحال رأيت أن راسين الزوج شخص مضحك يتصنع الوقار ويشعر بدمامته وحقارته في جنب جمال زوجته ووقارها، ونضج أنوثتها وجلال أمومتها.

ولكن أحسن الله ختامه إن كان حيًّا ورحمه الله إن كان ميتًا، فقد خدمني وتفضل علي بقضاء كل حاجة طلبتها إليه ولم يدخر وسعًا في شراء الصحف والكتب والأدوية والأزهار والألطاف التي كنت أكلفه بها، وكان دليلًا ناطقًا أي كتابًا متكلمًا ماهرًا في الحساب دقيقًا في الإحصاء، وبقدر ما كان وجه زوجته معبرًا عن المعاني والأحاسيس وذكاؤها شاملًا، كان وجه جان الزوج صامتًا مبهمًا مستسلمًا لا يشف عن فرح أو ترح، ولكن لمحت بعد زمن أن كل جهوده في أن يكون محبوبًا أو على الأقل مرضيًّا عنه، قد ذهبت أدراج الرياح، وأسفًا على حبه الضائع تحت أقدام تلك السيدة التي كانت تتلطف بكل مخلوق ما عدا زوجها.

لم يطل العشاء وعرفت السيدة أنني لا آكل اللحم ولا أتذوق النبيذ فتضاعفت تقديرها لي؛ لأن الضيف الذي يوفر اللحم والخمر في نزل عائلي — بانسيون دي فامي — نعمة من السماء، ولكن حنينة راسين قالت لي: لك الله يا سيدي فإن هذه الإفاقة Sobre تعجبني، فهل أنت متأكد أنك لست بحاجة إلى اللحم ولو شواءً وإلى النبيذ ولو خفيفًا؟

قلت: نعم، قالت: هل الدين ينهاك عنهما.

قلت: نعم والطبيب وحاجتي إلى صفاء الذهن.

وسهرنا بعد العشاء ساعة وكانت الأسرة تبذل جهدها في تغذية جو يشبه جو الحياة في الأسر، ولكنني كنت الضيف الوحيد المدلّل.

وعندما صعدت الدرج للنوم تبعتني السيدة وسألت في أي ساعة أتيقظ وأي إفطار أفضل.

فقلت لها: السابعة والشاي واللبن وقدحًا من ماء كرلسباد وحمامًا فاترًا. فابتسمت وقالت: ستجد ما يسرك، وسوف تلقى مفاجئة سارة غدًا صباحًا، فوقفت وأصغيتُ إليها وسألتها عن تلك المفاجئة.

أجابت في صوت خافت: إن عندنا سيدة تعرفك. قلت: تعرفني أنا؟ لا بد أن تكون مخطئة فإنني لا أعرف أحدًا في جنيف. قالت: إنها تعرفك باسمك وصفاتك وقد اعتذرت الليلة عن العشاء؛ لأنها متوعكة، فقلت لها: ما اسمها؟ قالت: غدًا تعرفها؛ لأنها لم تأذن لي في ذكره.

قلت لها: يا سيدتي سلي بنتك وابنك فقد دخلتُ بيتك لدعوتهما، وقد دلتني سيدة في المدينة على بيتكم متطوعة على غير معرفة سابقة، وضللت الطريق ونسيت الاسم وهداني إليكم ناقوس المغرب في الكنيسة.

قالت: لو صح كل هذا (ولا أرتاب في صحته)، فإنها مصادفة عجيبة جدًّا كما سترى غدًا. وكان يبدو في عين جان راسين في تلك اللحظة بريق غريب وخيل إلي أنها تريد أن تفضي إليَّ بسر عميق يتردد في صدرها، ولكنها كتمته وما زلت أسأل نفسي عن هذا السر الذي كادت تبوح به ولم تطاوعها نفسها ولم أحاول قط طوال عشرتنا أن أستدرجها إليه.

وقد تعود الأرق أن يلزمني في الليلة الأولى أينما كنت كلم بدلت فراشي ولو كان في جنة الفردوس لا بد لي من الأرق. وكنت في تلك الليلة ١٨/ ١٩ مارس سنة ١٩١٠ متعبًا جدًّا وكان الفراش مريحًا والجو مغريًا بالنوم العميق والنفس مطمئنة، ولكن الأرق الذي تعودته عاودني ولازمني وإن يكن خفف وطأته إيناس المضيفين وأمل اللقاء بشخص مجهول.

ولكنني تيقظت في الصباح فرحًا نشطًا متفائلًا مرحبًا باليوم الجديد.

وسمعت عند الفجر تغريد الطيور ثم لمحت من وراء النافذة أشعة الشمس بعد العاصفة.

وفي الساعة السابعة دقتْ علي الباب جان الخادمة التي حملت متاعي إلى الحمام، وخدمتني خدمة كاملة وهي من الإناث المخلوقات للطاعة وتلبية النداء وقضاء الحاجة، ذات وجه سمح وخلق كريم وقلب طيب، وكان فرحها بالإكراميات وكلمات الشكر يفرح من يحسن معاملتها، لها الله من فتاة طيبة.

الرد على تيودور روزڤلت

وقضيت ساعتين في أعظم متعة لي وهي إخراج كتبي من صندوقها وتصفيفها ولمسها ومفاجأتها، كأنها كائنات حية وعطفت خاصة على كتاب متزيني الذي قاسى معي برد الجو وانهمار المطر، وشعرت أن مؤلفه شاركني محنتي ولعل الله عطف علينا معًا فآوانا وأكرم مثوانا وأكبرنا مات في الغربة مكافحًا في سبيل وطنه، وقد اقتديت به فأصدرت من ذلك البيت جريدتين للدفاع عن وطني إحداهما بالعربية صوت الشعب مطبوعة على الحجر والثانية Egypt بالإنجليزية مطبوعة عند فيفر، وكاتبت صحف فرنسا ولا

سيما إكلير (البرق) لصاحبها أرنست چوديه وفيها رددت على تيودور روزفلت الرئيس الأسبق لجمهورية الولايات المتحدة، وكان حمل على مصر حملة شعواء في القاهرة ولندن؛ لأن أبناء عمومته اليهود والإنجليز أكرموا مثواه على حسابنا في السودان ومصر، فردّ تحيتهم بالطعن في الوطنية المصرية، ولم يخجل هذا الرجل السخيف أن يحرض علينا الإنجليز، ويدعوهم إلى استعمال الهراوة في معاملتنا، فإن لم يرغبوا فليتخلّوا عن مصر لتحكمها الجمهورية الأمريكية.

وسبب هذه النكبة التي انصبت على رأسه أن المصريين بقيادة المرحوم الدكتور منصور رفعت رجموا فندق شبرد، وهو نزيله بالحجارة جزاء له وفاقًا على خطبته في قصر الحاكم العام التي أشاد فيها بفضل الإنجليز في مصر والسودان؛ لأنهم أتاحوا لراعي البقر هذا صيد الأسود والفيلة وكان رجلًا غليظ الكبد عريض القفا. وقد ساعدني الحظ بأن أوقعه الله في سلسلة أخطاء في كل بلد حله، وكان قلبه أعمى من لسانه، فحملت عليه ووصفته بأنه بهلوان دولي وأنه نموذج خائب يكذب الحرية الأمريكية وينقض مبادئها، وشايعتني صحف فرنسية وسويسرية كثيرة وكانت لي صلات ببعض محرري الصحف من عام ١٩٠٩ التي عقد أثناءها المؤتمر المصري الوطني الأولي في جنيف (سبتمبر سنة ١٩٠٩).

وهذا الرجل وهو عم روزفلت الأخير الذي توفي سنة ١٩٤٥، وكان قد ختم مدة رياسته وحل محله تافت وما زالت بعد نعرة السياسة والرياسة، فنفس عن شراسته وقسوته بصيد السبع في أواسط أفريقيا، ثم نفث سمومه في الخرطوم والقاهرة ولندن وباريس وروما. وكان أسوأ إعلان لأخلاق الأمريكان وشر نذير لسياستهم في الشرق والغرب، وكشف القناع لنا ولغيرنا عن خليقة الأمريكان منذ أربعين عامًا، ولكن هذا الاستطراد الدخيل قد دعاني إليه ذكر متزيني فعليه الرحمة.

لقاء السيدة أوجستا دامانسكي

وفي الساعة ١١ صباحًا نزلت إلى قاعة الجلوس، فتلقتني صاحبة البيت بالبشر وقدمت إلي مدام أوجستا فيليبوفنا دامانسكي وحيتنا وانصرفت.

كانت هذه المرأة التي وصفتها في لقائنا الأول قد تغيرت نوعًا، وقد مضى سنتان إلا أشهرًا معدودة، ولكنها تحسنت على عادة النساء اللاتي لم يبلغن نهاية العقد الثالث، كانت بيضاء البشرة رقيقة الجلد جميلة العينين والصوت واليدين، سوداء الشعر جدًّا

وأجمل ما في عينيها لونهما، فقد كانتا كالمخمل الأزرق الضارب إلى الخضرة، وكان حاجباها على طبيعتهما كما لو رسمهما نقاش ماهر بقلم فاحم، وجبينها عريضًا عاليًا، وكانت يداها ناطقتين وكأن بنانها ألسنة تعينها على البيان، ولها جلسة خاصة وشمم وشعور بالذات ورغبة في الفتنة.

كان الاحتشام والأناقة والشعور بالجمال من ميزات هذه المرأة، وكان منظرها يدعو إلى الاحترام والكرامة، ولعلها أرادت أن تدلني على أنها جديرة بمصاحبتي، فظهرت بوقار لا يتفق وشبابها، فهي أبعد عن الخلاعة والتبرج من أية امرأة سواها.

أين رأيتك يا سيدتي؟ نعم في ڤيلا بيانكا منذ عامين في لوزان في بيت دي ناڤا ثم في ڤيلا ترميدور في ضواحي لوزان، ثم في فندق مارتان المطل على البحيرة حيث قضينا سهرة ثم في منتزه مونيونان وفي دكان الكتب، وفي مكتب البريد. نعم. إني سعيد برؤيتك. تظنين أنني جئت قصدًا إليك، كنت أود ذلك من صميم قلبي ولكن كيف أعرف مقرك، إنها مصادفة باحتة. لعبة من القدر، لو أنك بعثت إلي بخطاب أو لو أن أحدًا قابلني وأخبرني قبل اليوم كان يجوز هذا الظن منك ولم أسأل عنك عند وصولي، ولو كنت أرغب في لقائك لفعلت. وأنت تذكرين حتمًا أنني كنت دائمًا أشكرك ولا أطيل الحديث معك. كلا لم أكن أخشى لقاءك ولكنني غضبت؛ لأنك أخبرت الأستاذ بروشيه صاحب فيلا ترميدور أنك رأيتني عند ناڤا، ولم أنزل في بيت دي ناڤا الإيطالي؛ إلا لأنه حلَّ محل بروشيه في فيلا بيانكا وهي ذات ذكريات عزيزة علي، فلما وجدت المكان خاليًا من ساكنيه السالفين أقمت فيه أيامًا إحياءً للعهد القديم ثم رحلت عنه والتمست بروشيه حتى عثرت عليه في ڤيلا ترميدور، وكنت أحب أن يشعر أنني لم أقم ساعة خارج بيته وقد بكى من الفرح عند لقائي وعد ذهابي إليه وفاءً مني ولم أستطع حيال دموعه وإخلاصه وهو شيخ كبير أن أفجعه بنزولي ضيفًا على غيره في بيته القديم فعزّ عليّ ذلك، ووجدته مر المذاق منك ولم تكن بيننا معرفة سابقة سبقها أو صاحبها أو لحقها ثأر لك عندي. هذا سبب نفوري وغضبتي، ولكن ما دامت الأقدار قد جمعتنا فقد زال ما كان في نفسي.

نعم أذكر جيدًا والدتك وطفلك وقد رأيته وهو نائم وأذكر قولك حين حنوتُ عليه: «إن من يمسك يد الطفل بيمناه يقبض على قلب الأم بيسراه»، وقد أعدتها في ذهني كثيرًا ولم أفهم معناها في وقتها. كلا كنت صادقًا في تلك الليلة وأظن صدقي هو الذي أخافك حتى صار خوفك ذعرًا لم أعرف سببه، لقد قلت لك، وأنا أذكر ذلك جيدًا أنه في

الساعة الأولى بعد نصف الليل: «يخيل إلي أننا اجتمعنا في حياة سابقة من زمن طويل جدًّا مثل هذا الاجتماع في هذا المكان وهذا الوقت»، وأذكر أن القمر كان مضيئًا على جبل مونبلان وعلى مياه بحيرة ليمان وكان صفير القطر المتصاعد من المحطة يبشر باللقاء وينذر بالفراق. وأذكر أنك نهضت فجأة وقلت لي: يا سيدي، قد آن أوان … فنهضت وقلت لك: الرحيل رحيلي. فضحكت واعتذرت وتيقظت وكنت شبه نائم وقلت: نعم لقد أطلتُ المجلس وأمك لا بد تنتظرك في الغرفة المجاورة، طاب ليلك يا سيدتي وشكرًا على الشاي الذي شربته، والحديث الطلي الذي سمعته. وقد تركت بيتك الساعة ٢ صباحًا، ووصلت ڤيلا ترميدور الساعة ٣ فلم أنم؛ لأنني عزمت على السفر إلى باريس وشددت رحيلي في الساعة ٨.

وكتبت إلى بروشيه وقلت له: سافرت؛ لأن تلك السيدة الروسية أقلقت راحتي وأقضت مضجعي فتركت لها لوزان بمن فيها والحمد لله. على أننا في أغسطس وبعد ثلاثة أسابيع وصلني خطاب من بروشيه عجبت له أشد العجب إذ قال لي: إنك لحقت بي إلى باريس وذهبت إلى فندق ڤوياچير وهو عنواني الذي تركته لموسيو بروشيه، ولم تجديني وأنك كنت تبحثين عني ولما بلغت الفندق ومعك ولدك ووالدتك قيل لك: إنني سافرت منذ يوم أو يومين. كل هذا علمت به مصادفة ولكنني نسيته، فإن لم يكن في الأمر إلا أن أسألك عن سبب سفرك إلى باريس وسؤالك عني لكفى داعيًا لسروري بلقائك بعد هذه الأحداث كلها. لعلك أردت أن تفسري لي سبب ذعرك، وتناقض مسلكك إذ كنت تلحين علي أن أزورك وأنا أشرب فنجان شاي في بيتك ثم انقلبت بعد ساعة تقولين: «يا سيدي لعلك متعب حتى خطر ببالك هذا الهاجس وهو أننا التقينا قبل الليلة في حياة سابقة، فخير لك أن تأوي إلى فراشك». وأحب أن أؤكد لك أنني كنت صادقًا في قولي وفي شعوري ولم يكن ما قلته لك مصطنعًا ولا مفتعلًا، ولكنني أثق الآن أنني كنت مخطئًا. ولكنه لم يكن هذيان محموم ولا حلم محروم ولا استدراج خبير بقلوب النساء لعذراء مفتونة، فقد كنت منذ عامين أصغر سنًّا مني الآن وأنا اليوم لا أزال بعيدًا عن فنون قد تتقنها السيدة الذكية المجربة المدربة أكثر مما يتقنها شاب لا يزال طالب علم … ولا تغضبي إن لقاءنا هذا حل عقدة من لساني، وأحيا صورة الماضي في ذهني وجرأني على الأحداث فاقتحمتها طامعًا في تفسيرها مثل لغز أوديبوس، إن ما قلته لك في شرفة بيتك في لوزان كان لمحة قصيرة كالإلهام الذي ينعم به شاعر أو مصور في طرفة عين، ولكنه يكون واضحًا وضوحًا صارخًا أليمًا كآلام الوضع عند

النساء لا بد أن يعبر عنه، كما أن المرأة لا بد أن تلد، إنك اليوم لا يمكنك أن تزحزحيني من مكاني هذا؛ لأنني لحسن الحظ لست في بيتك؛ ولأنني لحسن حظ أعظم لم ألهم بأننا اجتمعنا قبل الآن إلا في شوارع لوزان وعلى مائدة دي ناڤا، وفي شرفة مطلة على جبل وبركة ماء، وقال لي بروشيه في خطابه أيضًا: إنك قلت له: إن تلميذك هذا الشرقي غامض، فأجابك بأنك لا تقلين عني غموضًا؛ لأنك شرقية، ولم أفطن إلى قصده من قوله؛ لأنني أعرف أنك روسية صحيحة وروسيا دولة قيصرية في صميم أوروبا، نعم إنكم من شرق أوروبا، ولكن شتان بين شرق أوروبا وشرقنا. هذا كل ما أردت أن أقول لك قبل أن تنمقي لي كلمة جديدة أو تدبري لي (وضحكتُ …) فتنة.

وكادت السيدة أوجستا تنفجر من الغيظ والغضب، وكانت أثناء الحديث تتلون وتتلوى وتحمر وتصفر ولكنها ملكت أعصابها وكتمت ما بها، وتحكمت في لسانها وعواطفها وقالت لي: شكرًا لك على صراحتك التي لم أتعود مثلها إلا في وطني؛ ولأجل النفاق الأوروبي نحن نحتقر أهل هذه البلاد كلها، وشكرًا لك على أنك لم تجاملني ولم تغازلني؛ لئلا كنت أفر بعد أن استقرت بي النوى في هذه الضاحية لأكون قريبة من ولدي الوحيد، ولا مجال للاعتذار بيننا؛ لأنك لم تخطب ودي وما دامت الصدفة قد جمعت بيننا فأقول لك: إنني أعتقد في الأقدار ولا بد أن للأقدار من غاية جمعتنا، أريد أن أقول — سامحني: إنني لم أنتظر أن أراك كما أنت اليوم، فقد كبرت وزكوت وخرجت عن طور الفتوة الذي رأيتك فيه منذ عامين، فقد كنت فتًى … مخيفًا، وهذا الذي أرعبني ليلة الشرفة، فقد شعرت بقواي تخور عندما قلت لي … أتتذكر ما قلت لي؟

قلت متصنعًا: كلا لا أذكر، فقد تكلمنا كثيرًا وذكرنا شكسبير وتولستوي وجوته.

قالت: لا. لا أقصد هذا الحديث، بل قلت لي: لم يشعر الإنسان أثناء التقائه بإنسان آخر لم تسبق بينهما معرفة أنه شديد الانجذاب إليه كأنهما اجتمعا في حياة سابقة، كما يرى بقعة من الأرض فيتذكر على الرغم منه أنه سبق أن رآها ووطئها، ويكون في الحالتين كأنه في حلم عميق، حلم يقظة وصحو لا حلم نوم ونعاس، هذا الذي قلته نصًّا بحروفه.

قلت: وماذا جرى بعد ذلك، فهل أجبت أم لم تجيبي؟

قالت: ذهلت واعترتني هزة وأخطأت خطأ ما زلت نادمة عليه، فقد تظاهرت بالضجر وأرغمتك على الانصراف، وبعد خروجك عضضت بنان الندم ورجعت لنفسي ألومها ولكن بعد فرار الفرصة. نعم ندمت وكتبت كلماتك بنصها … لقد كنت مشتعلًا

مشعًّا، فخشيت إن لمستني أن أحترق بنارك فلما خرجت من يدي أسفت على أنني لم أستقبل تلك النار بحرارتها ونورها.

قلت: أتصدقين أنني بينما كنت قادمًا أمس بطريق بين حقلين، فتنبهت إلى أنني رأيتهما من قبل ولا أدري أفي رؤيا أم في غيرها، وقلت قبل أن أصل إلى نهايتهما: إنها تلتوي هكذا ثم تعتدل، فكان في الواقع ذاك الذي توهمته في الخيال، والآن قدمت البرهان لنفسي على أنني ليلة أغسطس في لوزان كنت جادًّا لا هازلًا وصريحًا لا متصنعًا، وغاية الأمر أنني كنت أصفى نفسًا وأطهر قلبًا.

قالت: لقد علمت من مدام راسين أنك لا تأكل اللحم ولا تشرب النبيذ ولا تدخن ولا تشرب القهوة، فأعجبت بصحوك وإفاقتك. وقد وصفتك لي الجدة مدام پيدو وصفًا وافيًا كافيًا فتهيبت لقاءك أمس وقالت لي: إن لون وجهك بلون التراب من التعب والضعف، فأشفقت عليك ولكنني اطمأننت إذ رأيتك سليمًا معافى ناضر الوجه، فإن كنت قادمًا تنتجع الصحة ففي خير مكان وقعت، وإن كنت تطلب الخلوة فقد أحسنت فيما اخترت ولن تجد من يعكر صفاء خلوتك. أما أنا ففي شغل شاغل أرقب تنشئة ولدي وهو في العاشرة من عمره، وأكتب للمطابع في موسكو وبطرسبرج وستصل الآنسة زينا في مساء هذا اليوم وهي كاتبة يدي ومساعدتي في تربية ابني وإعداد المواد لإنتاجي الأدبي، وهو مصدر عيشتي، وهي فتاة طيبة القلب فرحة بمشاهدة غرب أوروبا؛ لأنها من الحزب الاشتراكي الديمقراطي مثل كل فتياتنا اللواتي ينتسبن للأحزاب ويفكرون في مستقبل بلادهن قبل التفكير في الزواج.

ثم ضحكت السيدة لتخفف ضغط الجو العاصف الذي ساد مجلسنا ساعتين، وحضرت مدام راسين، ورأت بعين قلقة أن السلام سائد بيننا فقالت: لقد تركتكما قصدًا حتى تفضيا بما تريدان. إن الجو اليوم جميل جدًّا لم يكن منتظرًا بعد أمس وبعد المطر يجيء الصحو، وكأنها كانت تراقبنا أو تتسمع ولكن حاش لأدبها أن يكون كذلك.

ونهضت السيدة الروسية وعزفت على البيانو قطعة من وضع تشايكوفسكي وقطعة «حديقة تحت وقع المطر» من وضع ديبوسي، وأخذت توقع ألحانًا جميلة قوية بدأت بما يشبه تجمع العاصفة ثم صوت الرعد ولمحات البرق، ثم صوت الماء يقع رذاذًا والطيور تطير إلى الأشجار تدعو بعضها بعضًا بزقزقة مرتجفة، ثم المطر يتتابع انهياره بقوة وصوت الريح يتخلله، ثم تبدأ تلك الحركة في القلة والضعف ويبدو في

الأنغام ما يشبه انقشاع الغيوم، وانقطاع صوت المطر، وتبدأ العصافير زقزقتها الرقيقة كأن الأمن عاد إليها، وتبدأ تطير ويخفت صوتها بالتدريج.

وكانت أوجستا لا يبدو منها إلا جانبها الأيمن ووجهها مغمور بجمال الموسيقى وسحرها وأناملها الدقيقة تضرب القطع البيضاء، وهي تلهث منصتة إلى نفسها كأنها تبذل مجهودًا جبارًا لتنال الجائزة في امتحان شاق، وجسمها يهتز هزة خفيفة تكاد لا ترى إلا لمن يتعمد الإمعان، وقد غمرها الطرب فسرى منها إليَّ ثم نهضت ونهضتُ لها وحييتها ولمست يدها لأشكرها، فإذا هي باردة كالجليد وعيناها لامعتان وصدرها يعلو ويهبط لشدة الانفعال، ولمحت لآلئ صغيرة من العرف تنبذ على جبينها ثم تهالكت على المقعد الأنيق بجواري.

ثم نهضنا إلى المائدة وجاء الزوج والطفلان، أما ابن السيدة أوجستا فكان نزيلًا على أسرة روسية تقطن بالمدينة فلم أره إلا عصرًا، وصعدت إلى غرفتي وفي الساعة الخامسة شربت حليبًا ورجتني جارتي أن أصحبها إلى محطة چنيف لنرحب بالآنسة زينا (زينا بيد)، وعلى جسر طويل موصل إلى السكة الحديد اعترضتنا فتاة تبيع البنفسج (زهر الربيع)، فأخذت منها باقة وقدمتها للسيدة فقالت: هذه أول مرة أرى البنفسج هذا العام إنه بسمة الربيع. وعدنا بزناييد.

قلب المرأة

وامتدت تلك العشرة وطابت وإن لم تطل.

ففي جنيف بضعة أسابيع.

وفي شاربونيير شهر وفي إيطاليا شهر.

وفي جنيف شهر وفي مصر خمسة أشهر.

وفي بوڤريه شهر ثم في ليون شهران.

ثم في جنيف شهر.

ولم تزد هذه الفترات في مجموعها عن عام بدأ في مارس سنة ١٩١٠، وانتهى في نوفمبر سنة ١٩١١ واجتمعنا بضع ساعات في يونيو سنة ١٩١٢ في ڤيڤي ثم افترقنا إلى الأبد ولم نلتق إلا في رؤيا كالحقيقة.

وما زال الدهر يجد في القطيعة بيننا حتى سنة ١٩٢٧، فجاءني منها خطاب أهملت لسوء حظي الرد عليه، وقد ندمت على تقصيري وما زلت نادمًا؛ لأن هذه السيدة

أدت إلي من الفضل والجمائل ما لا يحصى وتحمَّلتْ بسببي آلامًا كثيرة واستهانت في سبيلي بما لا يستهان به وأدخلت إلى عقلي وقلبي وروحي خواطر ومبادئ ومشاعر تركت فيها آثارًا لا يمحوها الزمن ولم يكن إليها من سبيل أو ذريعة غيرها، وقد تفتحت في ظلها كل مواهبي ورغائبي وتجسدت كل حقائق الحياة في نظري بفعلها وقوتها وإيمانها، وأرشدتني إلى مطالعات ودراسات لم أكن أنالُها بدونها، وأعانتني في قراءات وتحصيل علوم، وسهرت عليّ سهر الشقيقة والزوجة والصديقة والأم الرءوم، جمال امرأة وخلالها وعقل الرجل وحسن تصرفه، ولكنها حيال هذه النعم كلها أدنتني بفعلة واحدة من الموت المحقق لولا عناية الله ورحمته. فأزهدتني في الحياة أعوامًا وأفقدت ثقتي في جنس الإنسان، وأخرجتني من حلم الأديب إلى غيظ المنتقم فكتبت «قلب المرأة» وبالغت في تسويد صحيفتها، وما كان ينبغي لي أن أفعل هذا، نعم لقد عراها الندم فترة ولكنني كنت إذ ذاك على شفا حفرة عميقة من اليأس ألتمس الشفاء فلا أجده، شفاء النفس والقلب، وأحوجتني إلى الضلال والعربدة أيامًا معدودة وما كان ينبغي لي لولاها. ولكن غفر الله لها فقد علمتُ أنها تألمت كثيرًا، وأشد ما آلمني منها أنها هتكت أستارًا وأباحت أسرارًا كنت أظنها مصونة إلى الأبد، غفر الله لها لقد كفرت عن سيئاتها ولا ريب أنها قضت نحبها، وقد اجتمعت بها بعد موتها مرة واحدة اجتماعًا لا شك فيه ورأيتها في الرؤى مرات عدة. وإنني أشعر بها الآن بجانبي ولأجلها وقفت اليوم والليلة على إحياء ذكراها عافيًا صافحًا مصافحًا سامحًا متسامحًا.

ليل ١٩ مارس سنة ١٩٤٧

٢

وصف عقل السيدة وأخلاقها

لقد نظرت إلى الدنيا والحياة خلال شخصيتها وأدركت للمرة الأولى فضل المرأة على الرجل الناشئ في تفتيح ذهنه وعينه وقلبه للجمال والحق والخير، وأن لا سبيل لبلوغ هذه الدرجة إلا في كنف قلب مخلص وروح صافية وعقل مدبر يخلق نوعًا من الصداقة وسطًا بين الحب والمودة وأداة لتهذيب النفس وكمالها وإظهار ما كمن فيها من الخير، ويعمل على تنقيتها وتطهيرها، وليس كل النساء بموهوبات هذه النعمة المزدوجة التي يسيطر بها العقل والفكر على الجسد، وتتحكم المشاعر العالية والعواطف السامية على

ما يتطلبه البدن، قوة تلزم معها الرغبة الجامحة حدود القناعة الواجبة، وتترقى خلالها في مدارج الرفعة، ويتفتح تحت سيطرتها الذهن لكل ما كان عنه غافلًا أو معرضًا، ويقوم فيه جمال الروح دورًا أوليًّا ويلعب جمال المرأة وأنوثتها الصارخة دورًا ثانويًّا لا يتجاوز الاستمتاع بالأنس الذي يغذي الكيان المعنوي، ويقدم له الحرارة والقوة بالدرجة الملائمة. حينئذ يوجد التيار الكهربائي المناسب من حيث لا تحترق الأسلاك ولا يحدث التماس المدمر، وهذا ما يطلق عليه بعض الكتاب صفة الصداقة العاشقة «أميتيه أموزوز».

وصلتُ إلى چنيف أول الربيع ولم أكن أعرف ما هو الربيع والاعتراف بالحق فضيلة، وليس من العيب بعد أربعين عامًا أن أقرر الواقع. فأين لي وقد نشأت في مصر أن أتذوق جمال الربيع الذي لم يصفه الشعراء والكتاب إلا بعد الشعور به فجاء وصفهم صادقًا، لقد قرأت أوصاف الربيع في الكتاب ولكنّي لم أشعرْ به.

فليس في مصر ربيع إلا في شم النسيم وهو يوم يقضي في الأكل والشرب ويسفر دائمًا عن غرق بعض الفتيان إثناء تنزههم في زوارق في نهر النيل، وأظهر علامات شم النسيم شمّ البصل وأكل الحمص الأخضر (الملانة)، والسمك المملح تقليدًا للمصريين القدماء في عيد هاتور.

وكانت نفسي متطلعة مشوقة تحس أن الربيع وأعياد الربيع وجمال الربيع شيء غير هذا أو ذاك. وقد أرادت الطبيعة أن تشعرني بالعهد الجديد فختمت أيام الشتاء في جنيف بذلك المطر المدرار والجليد المنهمر. ثم كان يوم اللقاء الضاحك بعد يوم السفر الباكي، ثم خرجنا إلى لقاء زينا، يا لها من فتاة بسيطة لا يزينها غير جمال الشباب والروح! وقد عطلتها الطبيعة من كل جمال آخر.

ونحن في طريقنا على الجسر ذاهبين لاستقبالها اشتريت زهر البنفسج، وأهديته لتلك التي أصبحت صديقة لي. ولست أدري إن كانت أسرة راسين فطنت إلى الحب الذي ولد في دارهم ولادة سهلة سريعة بين اثنين أحدهما من الشمال والآخر من الجنوب.

في تلك الليلة الثانية جلسنا في قاعة الاستقبال، وشعرت أن مدام راسين الشابة رضيت أن تكون صديقة الطرفين وبذلت جهودها في أن تكون حبيبة إلينا جميعًا، وصار الحديث في الأدب والفنون الرفيعة والعزف على البيانو سلوانا وملهاتنا وبرنامج سهرتنا، وقد جئتُ للراحة بعد التعب فلا داعي للتبكير في النوم. وقد صار نومي لذيذًا هادئًا.

وكان همي أن لا أبارح حي بيتي لانسي ما استطعت وأنا أنحدر إلى المدينة إلا نادرًا، وهي التي استدرجتني، وكان العشاء يقدم قبل الغروب في الساعة السابعة، وهي التي عودتني السير على الأقدام ذهابًا وعودة، وهي التي شجعتني على اختراق غابة بواسي تلك الغابة الهادئة الآمنة التي تقابل حراج شامبل في الطرف الآخر من المدينة والبلديين جزأين من نهر الرون أولهما الأرڤ والآخر الرون، وقد عشت على ضفافهما جميعًا فكانت عيشتي على الأرڤ حزينة خامدة نقيض ما استمتعت به من نهر الرون الذي يمتد وراء الغابة، وكان لسيرنا في الغابة سرور بالغ، وكنا نشرف منها كل غروب على معالم المدينة بقبابها وأبراجها ويبدو لنا جبل مونبلان شامخًا. وللمرة الأولى ميزت جمال الشفق واصطباغ الآفاق بألوان حمراء ولازوردية وبنفسجية قاتمة، وأدركت لمحات تصفو فيها النفس وتخلص من أدران الحياة. لقد كنت أنظر إلى الحياة خلال مخروط من البلور، كنت أشعر بأن قامتي ترتفع وأنني أزداد طولًا وأن البعث يبشرني بحياة جديدة وأن البرء يدب في جسدي دبيب الشارب الذي لا يثمل.

لست أروي قصة ولا أتحدث حديثًا مسليًا ولكنني أسجل فضل الله علي وأحمده على رزق كريم، وقد صادف مجيء هذا الرزق معرفتي بهذه السيدة في هذه الظروف، وفي المكان والزمان المعنيين (جنيف ربيع ١٩١٠).

كان من الطبيعي أن تتلون حياتي بلون الربيع والجمال، وأن تتيقظ مشاعري النائمة أو تتفتح مشاعر وأحاسيس وأفكار جديدة. فأول ما كنت أحتاجه رؤية الطبيعة والطبيعة في سويسرا البحيرة والأنهار والجبال والغدران والأشجار والغاب والأزهار، فكانت السيدة في الأيام الأولى تصحبني إلى تلك النواحي نخرج مساء إلى المدينة سيرًا على الأقدام مخترقين غابة پويسي، وفيها انحدار كبير تبدأ في لانسي وتصب في قلب المدينة صبًّا، لم تكن هذه أولى الغابات التي أخترقها، فقد زرت غابات في (مورجينس) Morgins منذ سنتين ولكن هذه المرة الأولى أخترق غابة في العصر والغروب، ومعي سيدة وبيننا مودة وانسجام حتى إننا اخترقنا تلك الغابة من بعد نصف الليل عائدين من سهرة في چنيف في حفلة موسيقية ولم نتهيب، على أن الغابات لا تخلو من الشرار ليلًا على الأقل. ولكن المحبة تبعث الشجاعة في القلوب، ولا أنسى هذه الليلة وكان فيها القمر بدرًا، وقد سمعنا تغريد البلابل ووقفنا طويلًا نلتذ بصوتها في دهشة وكان الليل جميلًا جدًّا.

كانت الحياة مقسمة أقسامًا، وبدأت بأن أهديت إلى السيدة كتاب مذكرات سائحة في تركيا (مدام مارسيل تنبر تصف ثورة تركيا سنة ١٩٠٨)، فأهدت إلي كتاب ديمتري

مرجكوفسكي في تاريخ نهضة الإحياء في إيطاليا رينيسنس Rennaisance. وكان هذا الكتاب فاتحة عهد جديد لي؛ لأنه أدى بي إلى دراسات طويلة وكتب كثيرة وانتهى بسفرنا إلى فلورنس وچنوا وپادوا وميلانو وبولونيا (وكنت من قبل خبيرًا بروما)، ولكن في سياحتي الأولى (١٩٠٦) كنت غرًّا وحدثًا وجاهلًا وغير مقدر لما يحط بي من معالم التاريخ والفنون الرفيعة.

وكان يهمني أن السيدة تروي لي ما تعرف عن المؤلفين، فوصفت لي مرجكوفسكي الذي رأته في باريس رجلًا حالمًا قصير القامة واسع العينين، كما حدثتني عن تشيكوف وقد رأته في آخر أيامه وتحدثت إليه. ومن الأمور الغريبة أن هذا الجانب من الحياة العقلية كان يجذبني جذبًا شديدًا، معرفة المؤلفين والوقوف على أخبارهم وتعقب حوادث حياتهم ومقدار الامتزاج بين حياتهم الخاصة، وحياة عقولهم وإنتاجهم، وكنت شديد الشغف بهذه الناحية، وبالطبع لم أفاتح فيه الصديقة الجديدة ولكنها كانت تكثر منه، فعلمت أن هذا وجه للتشابه بيننا، فكنت أطلب منها المزيد حتى طلبت إليها أن تدون لي في كراسة كل ما تعرفه عن هؤلاء الكتاب والمؤلفين الروس ففعلت جزاها الله خيرًا.

الحب السامي

أحب أن أعدل أفكار بعض الناس الذين يظنون أن الحب بين رجل وامرأة يستغرق بالطبع كل أوقاتهما ويصرفهما عن كل شيء سواه، وأن الحب يطمس على المواهب العقلية ويضعف الجسم والفكر، وأن معنى الحب عند هؤلاء هو الضياع. هذا قد يصدق أحيانًا إذا كان الحب مقصودًا به إلى غاية واحدة أو إذا كان بين أشخاص من طينة وضيعة أو طبيعة نازلة. أما إذا كان الحب ساميًا منورًا فهو ألزم اللزوميات لحياة العقل والفكر والروح ونشاط المواهب؛ ولذا اعتبرته في هذه الحالة بالذات ودون غيرها مما يكابد الرجل في حياته رزقًا من السماء ومنحة من الله وهبة من العلي.

لم أشعر بصحة وعافية موفورة ورغبة في الاطلاع والدرس، ولم تتفجر في نفسي ينابيع لم أعهدها قبل هذه العلاقة الميمونة العزيزة الذكرى. فإنني بعد بضعة أيام من التريض والحديث والمرافقة وكنت عزوفًا عن الطعام بأنواعه، تفتحت شهيتي فجأة في قرية Sutry على شاطئ البحيرة في عصر يوم سعيد، فأكلت للمرة الأولى بعد أعوام طويلة خبزًا ريفيًّا خشنًا وزبدة طازجة وجبنًا من نوع جريفيير ومربى البرتقال

بمقادير مدهشة، ومن هذه الساعة عادت إلي شهية الطعام (ولكنني حافظت على عفتي من اللحم والنبيذ والتوابل)، وكانت السيدة تراقب طعامي وشرابي، فلم أدخن لفيفة من طباق مطلقًا إلا بعد فرقتنا.

فقرأت كثيرًا وكتبت كثيرًا وجعلت في كل يوم أربع ساعات لمواصلة مذاكرة دروسي وتلخيصها، واستقدمت من ليون مذكرات مخطوطة من زميلي في الدرس بيكير Bickert (وقد صار محاميًا في ليون وفي تونس)، واستعرت من كلية الحقوق في جنيف كتبًا ضخمة في الاقتصاد والاشتراكية (وكانت جزءًا من مقرر الاقتصاد) ومن القانون التجاري، وقرأت كتبًا في الاستعمار (تعليقًا على القانون أو التشريع الاستعماري في فرنسا ومن هنا جاء تخصصي في الاستعمار الإنجليزي)، وواظبت على قراءة المجلات الفرنسية والإنجليزية وكبريات الصحف اليومية التي كان يحضرها إلي موسيو راسين من مكتبات جنيف وارتبطت ببعض تلك المكاتب لاستجلاب المطبوعات الحديثة في كل فن، وعرفتني أوجستا بمكتبة دورية بالاشتراك الشهري، وصحبتي إلى مكتبة الجامعة وكنت أعرفها من سنتين وكنت أتردد عليها من قبل كل يوم وعندي إلى الآن إيصالات الكتب التي كنت أستعيرها للقراءة.

لقد أصابني نهم في الطعام (لا أتعدى فيه الحمية التي فرضتها على نفسي، ولكنني عوضت أعوام الجوع وانصراف الشهية بسبب الوحدة والرطوبة والسأم والهزال)، ونهم في المطالعة حتى كاد النهار والليل يزيدان في نظري عن أربع وعشرين ساعة، وكل الفضل في اتساع الحياة وطولها وعرضها وبركتها لهذه السيدة الحبيبة.

كانت تتكلم حينًا في سياسة بلادها وتفصل الأحزاب والمبادئ تفصيلًا يشمل وصف الرجال أمثال ميلوكوف، وتصف المعركة القائمة بين القيصرية والثوار وتاريخ الدوما، وقد رأيت أحد أعضائها المهاجرين إيناكين ولعله من حزب الثوار، وكان حي كاروج في تلك الفترة مقر الثوار نلمحهم في ذهابهم إلى الحفلات السياسية وسماع الخطب التي يلقيها أمثال جوريس والمساجلات بين الساسة والزعماء في بيت الشعب بساحة بلا نبليه.

وحدثتني عن تولستوي ودوستيوفسكي (وكان على قيد الحياة؛ لأنه لم يمت إلا في سنة ١٩١١)، وكتبتْ إليه خطابًا في ضيعة ياسيانا بوليانا، وكلمتني عن جوركي وكان يعيش في روما في تلك الفترة مع صديقه ممثل الأوبرا الشهير. وأغرتني بالسفر إلي بايروت في ألمانيا في موسم ڤاجنر؛ لأن حبها للموسيقى كان عظيمًا جدًّا، وقد أصغيت

إلى الأوبرات للمرة الأولى في صحبتها وإن كنت شهدتها كثيرًا في مصر وباريس، ولم أفهم لها معنى ولم أطرب لموسيقاها. ولكنني سمعت معها لوهنجرين وطائفة من موسيقى فاجنر، فرأيت عالمًا عقليًّا روحيًّا كان مغلقًا دوني. وعجبت لمن كانوا من أهل مصر يعرضون عن الأوبرا ويدعون أن لا فائدة فيها إلا لمناظرها يقصدون جمال النساء ورقصهن.

وكانت السيدة في ذلك الوقت تترجم كتبًا لدانوتزيو وباربي دورڤيلي فسألتها عن اللغات التي تعرفها، أجابت الروسية والبولونية ولا فضل لها فيهما؛ لأنهما لازمتان لحياتها منذ الطفولة، والفرنسية والألمانية؛ لأنها تعلمتهما في المدرسة والإيطالية تعلمتها في الكتب ورجتني أن أساعدها في نقل كتاب من الإنجليزية لأرنولد بنيت Sacred and profane love، فرأيتها تقتحم تلك اللغة بسهولة عجيبة، ومن ذلك الوقت أيقنت أن الروس موهوبون علم لغات الأرض، فلما زارت مصر حاولت العربية وعندي أسطر من خط يدها ولكنها لم تحاول أن تقرأ كتابًا.

وقد علمتني مبادئ الألمانية والإيطالية ولم تحاول معي الروسية لصعوبتها. وروت في أثناء كلامها عن جوجول أكبر كتاب القصص، وهو الذي فطر الفن وأسسه، أنه في آخر حياته وقع تحت تأثير كاهن مسيحي بغَّض إليه التأليف والفن، ووسمهما بأنهما عبث وغواية من الشيطان فأحرق الرجل العظيم مخطوطاته وندم على نشر كتبه السابقة على هذه الفترة من عمره.

وفي يوم الأحد التالي ليوم اجتماعنا خرجنا مع أهل راسين إلى نزهة خلوية ركبنا فيها البحيرة والسكة الحديد، ومشينا في الحقول وأكلنا عند الظهر مشطورات بالجبن والبيض والفاكهة وكان يومًا جميلًا جدًّا وهو ٢٦ مارس.

وكانت مدام راسين تتعمد أن ننفرد وأن لا تقوم بدور العوازل وهذه بداية الغيرة فقاومنا هذه النزعة، ولكنني رأيت في عين جان (حنينة راسين) هذه العاطفة الجديدة الخطرة على حبنا. وكان جان راسين قد حملت إلينا كل ما لديها من الأواني والأوعية المعدة للأزهار؛ لأنها رأت شدة شغفي بإهداء الأزهار إلى أوجستا، فأشارت عليَّ السيدة أن أحمل إلى مدام راسين باقة من الزهر جبرًا لخاطرها، وكانت الأزهار في ذلك الموسم تُبَاعُ في جنيف في أركان الشوارع وعلى عجلات متنقلة ولا سيما النرجس والبنفسج والخُزامَى، وهذه أشياء كنت أسمع عنها في الشعر وأقرأ أسماءها في الكتب، والآن صرت أشتريها وأحملها وأزحم بها غرف البيت ولم أضع في غرفتي زهرة واحدة.

وكانت أوجستا تلح عليَّ في الخروج منفردًا لنفرح باللقاء بعد ذلك ونمارس الشوق، فعندما دنا يوم عيد الفصح ذهبت إلى خط لا أعرفه من جنيف لزيارة سيدتين مكتهلتين عرفتهما في سياحتي في مصيف مورجان الحمامات منذ سنتين وحفظت لهما الود هما مدام جوتز ومدام كورفون. ومدام جوتز سيدة في الستين من عمرها أنستُ بلقائها وأحببتها لطيبة قلبها وسلامة نيتها وسلاسة حديثها فذكرتني بجدتي مباركة، وأكثر ما حببني إليها سخريتها من الإنجليز السائحين في سويسرا الذي سجل الهزؤ بهم تويفر الكاتب الجنفوازي، وتحسن مدام جوتز تقليد هؤلاء المتغطرسين وهم يتكلمون الفرنسية، ويخافون تيارات الهواء ويحتجون على قلة الطعام وصغر حجم البيض في الإفطار إلخ.

ولم تدر مدام جوتز أن بيني وبين هؤلاء الباردين تارات تجعلني أسر كلما سمعت إلى تجريحهم ووصف سيئاتهم، ففرحت مدام جوتز برؤيتي، وأخذتني إلى مدام كورفون وهي زوجة رجل متخصص في زراعة أفخر الأزهار يصادق معظم ملوك أوروبا ويعاملهم في توريد بذور الأزهار لحدائقهم، وقد رأيت عنده مكاتيب الملوك والأمراء وتصاويرهم مهداة إليه وهو يقطن مع زوجته وأسرته قصرًا فخمًا من الخشب في أرض فسيحة تبلغ بضعة أفدنة كلها منزرعة بأفخر الأزهار وأندرها، ولهما أولاد، منهم قسيس وسيدات متزوجات، ومدام كورفون بحبوحة تحب الرياضة والتنقل ولا تتحرج في الكلام والدعابة مذ بلغت سنًّا تحميها من الريبة.

زيارة جون نينيه

فدعتني السيدتان إلى شاي في بيت كورفون وذهبتا معي لزيارة جون نينيه Ninet الكاتب المحارب السويسري وضيف مصر من عهد إسماعيل ومستشار عرابي أثناء الثورة العرابية، وهو الذي أفتى له عشية التل الكبير قبيل الموقعة بساعات بردم قنال السويس وعدم الثقة بوعود دلسبس، فجبن أحمد عرابي خوفًا من أوروبا فكان جبنه سبب نكبة مصر في التل الكبير؛ لأن القنال لو ردم في تلك الليلة ما استطاع الإنجليز هؤلاء اللصوص الحمر الثياب والوجوه والسود القلوب والأرواح أن يصلوا إلى جيشنا أو يدخلوا بلادنا كما فشلوا في كفر الدوار.

وكان نينيه عندما رأيته في التسعين من عمره أبيض الشعر مجعد الوجه مهيب الطلعة خافت الصوت أكبر من بلنت، الذي زرته في العام الماضي سبتمبر (١٩٠٩) بخمس عشرة أو عشرين سنة على الأقل.

ولم يكن في تمام وعيه ولكنه أدرك أنني من مصر وأنني عدو الإنجليز، وأنني جئت لزيارته لشكره، وكنت قرأت كل كتبه عن مصر منذ سنتين، بلد الخديويين — وإسماعيل باشا — وعرابي باشا — وضياع مصر على يد أوروبا — وعندي بعضها وقد عثرت على المجموعة في مكتبة جامعة جنيف وهي المكتبة العامة، وهو يعد من مفاخر سويسرا، وقد تأثرت كثيرًا بهذه الزيارة وشربت عنده قهوة والرجل مخدوم خدمة فائقة وبيته في غاية الأناقة والجمال، وقد توفي بعد ذلك ببضع سنين.

فلما أحببت الصداقة بهذه الزيارة بيني وبين السيدتين الفُضْليين دعوتهما إلى الغذاء في يوم العيد في بيت راسين. وأنبأت جان راسين بالدعوة ورجوتها أن تعد وليمة فخمة لا مجرد غذاء على الطريقة السويسرية. ففهمت غرضي وأغدقت علي المائدة وزينتها بالأزهار والأواني، وزينت الغرفة بالطنافس والزرابي وتجمل كل من في الدار لهذه المناسبة السعيدة.

وكانت حفلة كريمة جديرة بمقام السيدتين، وحملت إلي مدام جوتز تحفتين من صنع زوجها المأسوف عليه دي جوتز، وكان مصورًا شهيرًا في نوع الميناتير الملون بالمينا وهو المنقوش على المعادن، وكان هو الآخر ممن زاروا مصر وصنع للأسرة الخديوية تصاوير على طريقته، أما التحفتان فهما للأميرين أحمد فؤاد وحسين كامل ورجتني السيدة أن أعرضهما على الأميرين لعلهما يرغبان في اقتنائهما ولو لأجل ذكرى والدهما إسماعيل، ولما كنت لا أعرف أحدًا من أفراد هذه الأسرة الكريمة ما عدا الخديوي عباس ولا أحب أن أوصف بالتقرب إلى مكانتهم تزلفًا، اعتذرت إلى السيدة ورددتهما عليها فألحت علي أن أبقيهما عندي حتى ولو طال الأمد بين لقائنا وعودتي إلى وطني، وفطنت أنها تريد إهدائي هدية فشكرتها وكررت اعتذاري ولم أندم على هذا الإباء حتى بعد أن صار حسين كامل سلطانًا بعد ذلك بأربع سنين وفؤاد الكبير ملكًا بعد ذلك بسبع سنين مع عظيم تقدير الوطن لهما، فالكل أبناء إسماعيل وأحفاد محمد علي.

وكانت أوجستا أول من عرفني بأندرييف وهو كاتب قصاص عظيم قرأت كتبه، وتأثرت جدًّا ببعضها ولا سيما الحفرة أو البئر، وهو أول جيل الكتاب الذين كشفوا عن غموض النفس الروسية بطريقة جديدة أقوى من طريقة دوستوفسكي؛ لأن أندرييف

عاش الثورة الجديدة واكتوى بنارها، دع عنك ما أفدته من تاريخ الأدب الروسي بفضلها وإرشادها ورواياتها وإحضار الكتب إلي، وتشويقي قبل القراءة بتلخيصها لأكون على بينة كما كانت راسخة القدم في الآداب الأوروبية عامة وتتعقب النقد الأدبي في الكتب والمجلات.

٣

عيد العمال

لم تطل هذه الفترة الأولى إلا أسبوعين رحلت بعدهما إلى ليون ولم أبق بها إلا أيامًا معدودة لأن الوحدة والرطوبة والوجوه القديمة أعادت إلي الضعف والهزال، فزرت الكلية وحضرت بعض المحاضرات وقابلت الأستاذ لامبير وكنت فرحًا بالعودة إلى الدراسة وحاولت البقاء في بيتي الذي أنفقت عامين في تأثيثه وتنسيقه، ولكنني لما شعرت بالضعف يعاودني عقدت العزم على العودة إلى چنيف وعاهدني الطلاب على إرسال صورة من المحاضرات ولا سيما هوڤلان وبيك وجارو وبعض أصدقائي من المصريين، وشددت رحلي على أن أعود في يونيه قبل الامتحان بشهر على الأقل، على أن لا أقطن ليون المدينة، واخترت ضاحية باسمة فيها هواء وبساتين وحمامات وملعب للتمثيل.

ولما عدت إلى آل راسين فرحوا بي فرحًا شديدًا. وفي هذه المرة أصدرت الصحيفتين اللتين ذكرتهما صوت الشعب وEgypt وتوجد منها نسخ في كل مكتبات أوروبا العامة، ولكنها في مصر صودرتا ومنعتا من الدخول، ولكنني تمكنت من إيصال بعض النسخ بطريقة سرية.

ومن أهم ما أذكره في هذه الفترة الثانية عيد العمال في أول مايو سنة ١٩١٠، وكان الاحتفال به في جميع أنحاء أوروبا عظيمًا جدًّا ما عدا إنجلترا. وكانت حركة العمال قويت في فرنسا بتأثير جوريس وفي ألمانيا بتأثير أوجست بيبل وفي إنجلترا برياسة كير هاردي، ولكن الإنجليز لا يفهمون المظاهرات إلا نادرًا.

وفي هذا اليوم خرجنا إلى المدينة لنشهد المظاهرة الكبرى التي اشتركت فيها جميع طوائف الشعب، ولم أر مثلها إلا في مصر سنة ١٩١٩. وأثناء تلك المظاهرة السلمية الجميلة التي كان فيها الغرباء والنزيلات من الروس والبولونيين (من طلاب ولاجئين)

أكثر من أهل مدينة جنيف نفسها لم يمد البوليس يده ولا لسانه. وقد أذكرتني بمظاهرات لوزان بمناسبة تسليم ڤاسلييف في صيف ١٩٠٨ إلى حكومة القيصر. وكانت زينا والسيدة أوجستا في المظاهرة تهتفان وتنشدان النشيد الدولي، وقد ذهبتا مع تيار البحر الخضم من البشر وغابتا عن نظري، وما زلت أسير في المواكب الزاخرة إلى غروب الشمس، فملت إلى مكان لشرب الشاي فعثرت عليهما هناك وعدنا معًا في ترام بيلير إلى پتي لانسي.

ولحظت في أعين أهل راسين نظرات السخط علينا؛ لأن هؤلاء البسطاء من طبقة البورجوازية يحقدون على كل من ينتمي إلى طبقة العمال لقرب عهدهم بالخروج منها (لأن موسيو پيدو ووالد جان راسين نجار عتيق)، وقالت لي جان: «إني أعجب للروس الثائرين المهاجرين ما علاقتهم بطبقة العمال؟»

فقلت لها: وما علاقتي أنا لعلك تقصدين إلى هذا؟ فاحمر وجهها وتلعثمت، قلت لها: يا عزيزتي جان كل هؤلاء مظلومون ومغلوبون على أمرهم في أوطانهم ويظهر لي أنهم يشعرون أن عدوهم المشترك هو الرأسمالية فهم يحتجون عليها، ويجدون لهم متنفسًا في أي مناسبة ممكنة.

وفي صباح اليوم الثاني (٢ مايو) سألت عن جانيت الخادمة فقالت لي العجوز: پيدو إنها في راحة اليوم ولا أظنك تسخط عليها وأنت الذي تحتفل بعيد أول مايو، وقد رأيت في فم هذه الشيخة من المكر ما أغناني عن الرد عليها، فقد كانت زوجة النجار القديم هي الأخرى حاقدة علي؛ لأنني ظاهرت العمال يومًا أو بعض يوم، وهذا لون من ألوان الحقد واللؤم السويسري، وهو حقد دفين ولؤم عريق يتجلى في استغلالهم الغرباء واضطهادهم، ولو أنهم في سبيل المال استطاعوا بيع الجبل الأبيض والبحيرات السبع ما ترددوا، وقد رأيت في وجه أوجستا وزينا من النضارة والشباب والفرحة ما أثلج صدري، فإنهما كانتا تعيشان بالعقل والروح وفي يقيني أن طبقتهما في المجتمع الروسي وفي بلادهما أرقى مائة مرة من طبقة پيدو وراسين، ولكن إنسانيتهما وثقافتهما كذلك أعظم وأعمق من طلاء الحضارة السكسونية الذي يتخذه السويسريون من أصحاب الفنادق والخانات ترويجًا لصنعتهم وتمويهًا واستجلابًا للأضياف من الإنجليز والأمريكيين.

وأحب أن أبادر بالقول قبل أن يغمرني النسيان: إنني أسجل هذه المناظر والأقوال والمشاعر كأنني أراها وأسمعها الساعة لا أمس الدابر. فهي حية حاضرة في ذهني ماثلة

لعيني وأذني ناضرة في شعوري ظاهرة في ذاكرتي، لم تستطع الحوادث أن تنال من جدتها أو تضعف من قوتها، والسبب في ذلك معلوم لي وهو أنني كنت أعيش فيها وأحيا بها حياةً كاملة، إني أرى الوجوه وأسمع الأصوات وأكاد ألمس كل حركة وسكنة، بل إن الرؤى التي رأيتها في منامي في تلك الفترة ما زالت في ذاكرتي مختزنة بتفصيلها، وقد اتخذت من كل ذلك دليلًا على أنني كنت أعيش في تلك الأيام عيشة مشبعة غزيرة دسمة كأن الروح تشعر أنها فرصة الحياة للعواطف والعقل والقلب، فأوعزت إلى إرادتها أن تتلقاها بأعظم ما فيها من قوة وأكبر ما لديها من طاقة، وكان صدري منشرحًا وقلبي فرحًا وعقلي متيقظًا وجسمي آخذًا في النمو وكل حواسي أكثر صحوًا واستيعابًا. أليس هذا عجيبًا، هذا التوفيق في كل شيء وهذا البعث وتلك القدرة على العمل والإفاقة؟ لا شك أن العاطفة وحدها لم تكن لتعمل تلك المعجزة؛ لأنني لم أترك العاطفة تتحكم وحدها بل الروح الذي يتحكم في العقل والعاطفة والجسد، وكنت أعمل كل شيء بوعي كامل كلاعب الشطرنج الذي يدري أنه ينقل البيادق والأفراس بتدبير وبديهة حاضرة، ويعد عدته ويرسم خطته وهو شاعر أنه يلعب ليكسب المعركة.

كانت حياتي في تلك الفترة شبه انتصار في معركة على الموت والمرض والخمول الذهني واليأس في الغربة، فأراد الله لي أن أفوز في المعركة وأن ينصرني على عوامل الضعف والخيبة، وقد هيأ لي أسباب النصر وعناصره، وإني الآن بعد نضج العمر ومذاق الحياة والوصول إلى غروبها، وظهور الشفق في الأفق لأدهش من تلك الذكريات للحوادث والأيام المواتية. نعم أصابتني في تلك الفترة صدمات تحطم القلب، وتهد القوى وتضعف الجهد وتتهدد السعادة وتكاد تعصف بها ولا يمكنني أن أعدها أو أحصيها، ولكنني صمدت لها جميعًا، وتغلبت عليها واجتزتُ جميع عقباتها.

مذنّب هالي

كان شهر مايو هذا عجيبًا، وقد ظهر فيه هيلي ورئي في أنحاء العالم وأخيرًا قالوا: إنه سيظهر في سماء سويسرا في ليلة حدّدوها. فسهرنا في تلك الليلة وعولنا على أن نسير إلى المرصد الفلكي مع كل أهل الدار كافة، وكنت أكره أن أترك فراشي ليلًا لأشهد تلك الظاهرة. ولكنني علمت أن هذه الظاهرة لا تبدو للعيان إلا في كل ثمانين سنة مرة، فتحملت المشقة وقمت في نصف الليل ولا أدري من الذي أفتى بزيارة المرصد كأن المذنب لن يبدو إلا خلال العدسات المكبرة، أو أنه سيخضع في حركته لإرادة الرقباء

من بني آدم ولا سيما أهل چنيف السعيدة، ولم أكد أخطو خارج الدار بضع خطوات وأرفع رأسي إلى الأفق الأعلى، وفي ظني أن الكوكب لن يبدو إلا بعد ساعة أو ساعتين، وإذا بي أرى منظرًا فخمًا رهيبًا لا ينسى، وإني آسف على أن الصور المتحركة لم تكن في سنة ١٩١٠ بلغت ما بلغته الآن لتسجل هذا المشهد الرائع الذي لا ينسى، فجأة رأيت سباعيًّا من النور مكونًا من عشرات الكواكب الكبيرة المصحوبة بعدد آخر أصغر حجمًا ومذيلة بسلسلة نورانية، وقد ملأت الأفق نورًا وبهاءً وهي تقطع أجواز الفضاء بسرعة عجيبة كأنها القطار السريع من الشمال إلى الجنوب، وكانت لشدة جمالها في موكبها ولغرابة المنظر وجلالته ولاعتقادك أنه لن يعود لك في هذه الدنيا، تكاد الروح تطير شعاعًا إليه، فبقيت في مكاني كما لو أن أقدامي شدت إلى الأرض بأمراس كتان مشدوهًا سابحًا سائحًا في عالم من الجمال والدهشة، لقد مرت بي فترة من الأزلية ولمستني يد علوية وأظن كل من شهد هذا المنظر يذكر هذا الشعور العجيب، ولعل كثيرًا ممن تحفزوا واستعدوا لمراقبة المذنب العظيم لم يروه ولم يدركوه إلا بعد أن فاتتهم فرصته؛ لأنهم كانوا يحسبون أنه سيظهر ثابتًا في الأفق كالثريا أو كالشعرى اليمانية أو كالنسر الطائر أو أخيه الواقع. ولكنه كان أغرب من هذه وذاك بل كان أغرب من القمر؛ لأنك ترى القمر ثابتًا وينتقل في منازله ببطء شديد، ولكن المذنب يجري لا مستقر له، وناهيك بهذا الكون الذي يتسع لأن يذرعه هذا الجرم المزدحم بالكواكب والأقمار ويطوف ركنًا من أركانه مطافًا مئينيًّا بحيث لا يظهر لأهل الأرض — ذلك الكوكب القاتم المطفأ — إلا في كل قرن مرة واحدة.

وعندما عدنا إلى المنزل قابلت فتاة بدرتني بسؤالها هل رأيت يا سيدي الكوكب؟ وكان وجهها مضيئًا مملوءًا عجبًا وإعجابًا وإيمانًا، فقلت لها: نعم وأنت؟ قالت: نعم رأيته ولم أعرف نعمة رؤيته إلا بعد أن مرق في السماء مروق السهم المخترق جوف الفضاء العلوي، ويا حبذا لو كنت أراه مرة أخرى، طبعًا لن أراه؛ لأنه لن يظهر إلا بعد ثمانين سنة أخرى وأين نكون بعد ثمانين سنة. طبعًا سنكون تحت التراب، قلت لها: من يدري؟ قالت: أترضى لي أن أعيش ثمانين عامًا أخرى؟ قلت: ربما ولكن لعلك تكونين بحيث يكون هذا الكوكب من أصغر ما تتمتع روحك برؤيته. فنظرت إلى السماء وقالت لي: من يدري!

٤

عائلة جاي

ذهبت مع أوجستا إلى بيت عائلة جاي التي يأوي عندها طفلها بوريس Boris، وهو بيت نصف قروي، فاتبعت عادة حسنة بجعل ولدها في عناية أسرة ريفية في ضواحي جنيف، ولكنني أعتقد أنهم يهود لاسمهم أولًا ولسحنة صغارهم وكبارهم، وكانت أمهم الشيخة على جانب من المكر يتضاءل عنده خبث مدام پيدو، كانت تنظر إلي نظرة ريبة وبغضاء مكتمة لم أدر سببها، وقد رأيتهم على جانب من الثقافة ودقة النظر، وأظن ارتياب الأم في نظرتها إلي أنها فطنت إلى ما بيني وبين أم الطفل الذي تكفله، وظنها أن الأم تخالف الفضيلة وأن صلتها بي قد تعوقها عن السهر على ولدها. وربما كانت العجوز وضعت عينها على السيدة لأحد ولديها لتتملكها، وإن قلوب النساء ولا سيما العجائز لا قرار لها ولا يصل أحد إلى عمقها، غير أنني شعرت بنفور هؤلاء القوم مني، وقد يكون حقد الطبقات؛ لأنهم مهاجرون وليسوا من أهل السياسة ليكون اضطهادهم في بلادهم بسببها، وكان هذا نقيض ما كانت عليه زينا من الميل والعطف والثقة بي لحداثة عهدها بالمجيء من وطنها، وسلامة قلبها ولم تلوثه الإقامة في جنيف وهم أهل حضارة مشوبة بضيق العقل والتعصب الديني والرياء في سبيل الربح المادي. ومنهم خبثاء وإن كانوا منتسبين إلى العلم مثل إرنست ناڤيل عالم الآثار المصرية، فقد كان طوال حياته عدوًّا لمصر وخادمًا للإنجليز، وقد سرق تمثالًا لرمسيس الثاني وهو قائم في بهو مكتبة الجامعة، فليست جنيف مفروشة بالأزهار لكل قادم، وليس كل من تأويه على جانب من الفضيلة أو يستحق التحية والإكرام وقد شهدت فيها عجائب.

الخلاصة في هذا الموقف أنني لم أبال كثيرًا بشعور هذه العجوز جاي نحوي؛ لأن زيارتي بيتها لم تتجاوز بضع دقائق لم ألف أثناءها إلا وجوهًا كالحة، ولكن بعد خروجي أخبرتني أوجستا أن رب هذه الأسرة كان مصورًا شهيرًا فدهشت، ثم قالت: وإن له لوحة شهيرة في متحف جنيف تمثل الجلجلة (صلب المسيح)، وإن الحكومة السويسرية حجبتها عن الجمهور سنين كثيرة ثم أباحت النظر إليها؛ لأن بعض المفتونات حاولن الانتحار عند رؤيتها.

فاتجهت فورًا إلى متحف جنيف وهو مجاور لدار التمثيل في ساحة الجنرال ديفور، وأنا لا أكترث لمتاحف سويسرا ولا ثقافتها؛ لأنها مصطنعة من باب التقليد ليقال: إن

عندهم فنونًا أو آثارًا وليس لديهم عراقة في شيء مطلقًا وطبيعتهم تناقض الأصالة ويستغرقها التصنع والرياء. دخلت المتحف ونظرت إلى الصورة فهالني منظرها حقيقة، فإن الحزن والنكد والحسرة والغم الناطق والأسى الصارخ المنبعثة كلها من وجه نبي النصارى — عليه السلام — لا تطيقه النفس البشرية، وشعرت فورًا بانقباض لا حد له. إن نفس المصور جاي لم تكن منطوية على الإيمان ولم يدخلها شعاع من الأمل أو انشراح الصدر، فأفرغ كل هذا الهم الدفين في وجه عيسى بن مريم.

ولا عجب أن تحول مفتونة أو مجذوبة أن تقتل نفسها بالسم أو بالخنجر أو يغمى عليها على الأقل. أما كون جماعة جاي ينتمون إلى الدين اليهودي فإن صح فلا عجب، فإن أبشع وأبلغ وأنكى ما يصنعه يهودي أن يبغض المسيح لأهل ملته وأتباع دينه.

وأي إنسان تقع عينه على هذه الصورة ولا يضيق بها صدره ولا يغير رأيه في معبوده؟ فهذه ليست خدمة للفن ولا للعقيدة ولا الحقيقة. إن جو الصورة نفسه يمثل مهارة المصور، ثم هذا الالتواء في الأعضاء والتراخي الناطق بالقنوط وانحدار الوجه على الصدر، وهو وجه خلا من أدنى بارقة للرجاء أو الثقة بالنفس أو بالله، وقد لا يلام المصور إذا استند إلى النصوص المقدسة، ألم ينسب إلى السيد المسيح أنه قال: «إيلي إيلي ليما سبكتني» بالعبرية «إلهي إلهي لم تركتني أو تخليت عني»! غير أنني أعتقدها سوأة وجريمة ووصمة في جبين الفن.

ثم ما شأن چنيف البروتستية الكالڤانية المتحرجة ضد التصاوير والتهاويل والأصنام والأزلام والتماثيل، ما شأنها بصورة كبيرة ملونة للمسيح في متحف الفنون؟!

أنا أفهم هذا وذاك في إيطاليا وفرنسا مقر الكثلكة، اللتين تزخر كنائسهما بهذه الأشباه والأشباح ولا أفهمه في چنيف أو لوزان.

وخرجت من المتحف ناقمًا على رب الأسرة ذلك المصور الملحد أو اليهودي نقمتي على تلك العجوز أرملته أو أخته لا أدري، وقد ورثت في سحنتها وفي نظرتها صبغة من قلب مؤسس عائلتها. لست والحق متجنيًا على المصور ولكنني أحتج عليه وأنتقده، فقد رأيت مئات الصور للمسيح في أشد المواقف حزنًا وألمًا، ولا سيما «حنان الأم» (البيتا) من صنع ميكل أنجلو وقد رسمها في شبابه، واختارها بعد ستين عاما شعارًا لقبره فرسمها قبيل موته، وهي تمثل العذراء وقد حملت على ركبتيها جسد ولدها متوفى بعد إنزاله من الصلب، وهي صورة تهيج الأشجان حقًّا؛ لأن مجلس الأم الحنون تحمل جثة

وحيدها يثير أعمق الشعور، وقد استغل المصورون النصارى موقف الأم تحمل ابنها منذ الطفولة أعظم استغلال في استدرار العطف والرحمة حتى اتخذته نساء مصر للاستجداء، فكل سائلة في شوارع القاهرة تحمل رضيعًا، وقد تكون جميلة بالية الثياب فتمزق قلوب الرجال والنساء، ولم أر في صورة البيتا من صنع أستاذ الفن الفلورنسي غير الكرامة والثقة والإيمان مع أنه كان شبه ملحد وخاصم الباباوات ورسم أحدهم في النار (شاپيل سيستين) لما تأخر عن مدّه بالمال اللازم له!

وقد فاتحت أوجستا في هذه الصورة، ونصحت إليها أن تنقل ولدها من بيت هؤلاء الناس الذين خلت قلوبهم من الرحمة، فدافعت عنهم دفاعًا حارًّا. وقد صدقت كهانتي فيهم بعد ذلك بأعوام، فقد كتبت إلي خطابًا داميًا وأنا في مصر، فإنها سافرت يومًا إلى بلدة نائية في سويسرا لعمل لها، وكان ابنها في حضانتها فاشتاق الولد لهذه الأسرة ففر من بيت والدته وسار على أقدامه ليلًا ونهارًا إلى أن وصل إلى بيتهم في ضاحية جنيف التي ألفها فطردوه، ثم أخذت الشفقة أحدهم فسلمه إلى الشرطة فوضعه رجال البوليس في ملجأ المعوزين، فقضى ليلة في فراش أشبه بنعش الموتى. وكتبت إلي هذا الوصف في خطاب فلم يدهشني، وقد سافرتْ وتسلمت الطفل من الملجأ، وكان من خبث هذه الجماعة أنهم وضعوا بين يدي الطفل كتاب «عائلة روبنسون»، وهو كتاب يروي قصة طفل وحيد يتيم أو مهجور يعيش في كنف متسول، وقصدهم أن يشعروا الصغير بالذل والهوان ومرارة الوحدة مع أنهم كانوا يتقاضون من أمه مئات الفرنكات في كل شهر.

وهذا الذي حداني إلى الظن بيهوديتهم لقسوتهم وحبهم المال.

على أنني لا أضع كل التبعة على كاهل الكفلاء المأجورين، بل على كاهل زواج السيدة من كهل غني هو والد الطفل، وإن اختلاف الطباع والأمزجة وتفاوت السن وتعلق الزوج بالماديات وانصراف الوالدة إلى المثاليات، كل هذه أدت بالأسرة إلى التفكك فوقع الطلاق في السنة الرابعة من مولد الطفل، فكفلته جدته لأمه ثم أرادت الأم أن تصحبه إلى أوروبا الغربية خوفًا عليه من الوسط الروسي في بلدتهم مويلف وما تزال هي في نضرة الشباب والجمال وبحبوحة العيش، فكانت بين نارين عنايتها بفلذة كبدها وقناعة قلبها بمطالبه الملحة. وكان لأمها ضيعة في مقاطعة پادولي وكان لها أخوات قادرات في بطرسبرج وموسكو فما كان أخلقها بأن تأمنهن على ولدها إن كان سفرها إلى غرب أوروبا حتمًا عليها. ولكن عذرها أنها خشيت عليه النشأة في الأوساط الثورية

التي بدأت تنمو وتزدهر في روسيا، وتدعو إلى الفوضوية والعدمية، ولم يتقدم أبوه لضمه إلى حضانته ولعلها هربت من روسيا؛ لتنفرد برعايته أو خوفًا من أن يحرمه مطلقها من حنانها، هذا ما لم أهتد إلى معرفته وكان جزءًا من الغموض الذي يكتنف قلبها وعقلها وماضيها، فلم تكن تجود علي إلا بالقليل من أخبارها ولم أكن أرى من حسن العشرة أن أحاول الوقوف على أسرارها، واكتفيت بأمرين؛ الأول: أنها مطلقة حقًّا من زوجها وأنها ليست مرتبطة برجل، والثاني: أنني رأيت أمها في سنة ١٩٠٨ بلوزان فتركت في نفسي أثرًا بالغًا بكمالها وعقلها وأدبها وحسن لقائها وكرم وفادتها.

وقد روت تلك الأم في أغسطس سنة ١٩٠٨ وهي تذرف الدمع أن فتاة نبيلة روسية من أشرف الطبقات وأكرم البيوت دخلت عليها في ثياب رثة، وبعد أن حيتهما طلبت منهما إبرة وخيطًا لترتق فتقًا في ثوبها المهلهل، وكانت الفتاة على جانب كبير من الجمال والثقافة والنبل، فقدمتا إليها ما طلبت ثم عرضتا عليها في استحياء أن تشرفهن بشرب فنجان من الشاي، فغضبت وقالت لهما: «أتظنان أنني دخلت بيتكما بحيلة الثوب لأستجدي أو لتتطوعا بإنقاذي من الجوع والظمأ. على رسلكما لقد أخطأتما خطأً بعيدًا، ولم أهجر وطني وأهلي وبيتي لألتمس من روسيات غير لاجئات «أي: ثائرات» مددًا أو زادًا أو نقودًا، طاب ليلكما»، ثم همت بالانصراف ولم تستطع إحداهما أو كلتاهما أن تثنيها عن عزمها وقد توسلتا وتشبثتا ونفتا جهدهما هذا الوهم من ذهنها بكل وسائل الاعتذار والتوكيد والتبجيل، فلم تجد معها وسيلة، فقلت للسيدة: «لعلها مصابة بدخل في عقلها بسبب وحدتها وغربتها وحاجتها». فقالت لي: هذا الذي أخشاه، وهو أشد ألمًا وحسرةً. وكل هذا في سبيل شعبها ووطنها وا رحمتاه!

وقد أحببت المرأة من تلك اللحظة لإنسانيتها وإدراكها ولم أرها في حياتي إلا في تلك المناسبة.

عيشتي وأعمالي في چنيف

كانت هذه الأسطر من صفحة الحياة وذكريات الصيف الأليم الذي قضيته في لوزان تلقي شعاعًا على صلتي بهذه الأسرة الأم والبنت والطفل، وقد بقيت في نفسي ذكرى حسنة عن الأم وكنت أنتظر أن أراها في چنيف، وكذلك بقيت في نفسي فكرة غامضة عن انتساب هذه السيدة الشابة للحرية والحركة الفكرية، التي كانت في تلك الفترة تغلي غليان المرجل ولا سيما أنها خبرتني أنها كاتبة ومؤلفة وتنقل عن اللغات ومطلعة على

الآداب، فبيني وبينها على الأقل رابطة الأدب والاغتراب، وكل غريب للغريب نسيب، وقد خرجت من ليون هاربًا بعمري خائفًا من المرض الذي يتعقبني، مرض الجسم والروح، وفارًّا من جمود البلد وبرود طبيعة أهله ووحدة العيش في بيت مأجور.

نعم كنت أتسلى بالمطالعة في أوقات الفراغ وأغشى مجالس العلم وأستمع إلى محاضرات القانون، وأصرف همي في الدرس وأروّح عن نفسي بكلية الآداب ودراسة الهيروغليفي على الأستاذ لورتيه وكان من رفاقي في الدرس بيير مونتيه الذي اكتشف مقبرة بشنس في صان الحجر والمرحوم أحمد زكي شقيق الأستاذ توفيق سري، وشهدت مرضه ومصرعه في مقتبل العمر فحز في نفسي موته بعيدًا عن وطنه، وكنت أحاضر في قاعات المحاضرة وأشارك لامبير وهريو في تكوين المدارس العلمانية (ميسيون لاييك)، ومن بينها الليسيه الفرنسية التي تأسست في مصر لمقاومة النزعة الدينية في مدارس الفرير، وقد لفت كثير من أصحابي نظري إلى ضعفي وتغير حالتي، وأشاروا علي بانتهاز فرصة عطلة الفصح لأخرج عن هذا الأفق السمج المظلم لولا سماع الموسيقى وحضور حفلات التمثيل في تياتر سلستان، وقد عشت عيشة سعيدة في چنيف في بيت آل راسين وكنت أتسلم بريدًا ضخمًا، فإني لم أقطع صلتي بأصدقائي الأيرلنديين والهنود الذين عرفتهم في مؤتمر چنيف المصري سنة ١٩٠٩، وكان كثير من الفضلاء يبعثون إلي بكتبهم المطبوعة وكنت إلى جانب الدرس والحديث مع أوجستا ومدام راسين أخرج إلى النزهة حيث تقودنا أقدامنا، وأشتري الأزهار بكثرة لأوجستا، فقالت لي يومًا: إن زينا قالت لها: «إن فلانًا يحبك حبًّا شديدًا والدليل على ذلك إهداء الأزهار بكثرة هائلة. لو كنت مكانك لبادلته الحب»، فقلت لها: أتجرؤ فتاة أن تتحدث إلى سيدة رشيدة بهذا الكلام، فقالت: نعم وأي عيب في ذلك، إنك لا تعرف الحرية التي تتمتع بها الفتيات في روسيا إن عندنا مذهب نيشڤو! لا مولى في الأرض ولا في السماء!

قلت: أعوذ بالله، فضحكت وقالت: لستُ على هذا المبدأ ولكن هذا يدلك على الحرية، إذا زاد الضغط عن القدر المحتمل انفجر الوعاء ولا بد من التطرف للوصول إلى الاعتدال، فقلت لها: بماذا أجبت زينا كاتمة أسرارك وكاتبة يدك؟ فسكتت ثم قالت: قلت لها: ومن يدريك يا صغيرتي أنني لا أحبه!

٥

غيرة

وفي يوم من الأيام خرجنا عصرًا إلى شاطئ نهر الرون في مكان خال، وجلسنا على ضفة النهر وكان الغروب جميلًا والأفق بديعًا والنفس هادئة فقالت لي: إن المرأة مجنونة. قلت: أية امرأة؟ قالت: كل امرأة وأنا خاصة فإن الإنتاج العقلي عندي تصحبه رغبة شديدة في الإنتاج الجثماني ... أريد أن ألد طفلًا يكون مثلك، فذعرت فابتسمت وقالت: هذه مجرد رغبة فقد انطبعت صورتك في نفسي وأريد انطباعها في بدني فأراك دائمًا. ثم إنني أغار عليك من جان راسين فإنها كالمطعونة في قلبها، وهي مغيظة محنقة، قلت لها: لم أر ذلك. قالت: الليلة أكشف لك سرها. ونهضنا من جلستنا وعدنا إلى البيت، وأويت إلى غرفتي وأوت أوجستا إلى غرفتها وغابت ثم استأذنت بعد برهة طويلة وهي خارجة من حمام وشعرها مبلل ووجهها على طبيعته. فلمحت للمرة الأولى في عينيها لونًا لم ألمحه من قبل، خضرة بزرقة خفيفة تجعل لون العين كلون من القطيفة النادرة، وكانت منفعلة ممتقعة وتحمل إلي فنجانًا من الشاي بيدها وقالت بصوت متهدج: صنعته لك بيدي.

وجلست إلى جانبي وكانت خائرة القوى فسألتها عن حالها وسبب اضطرابها قالت: كنت أفكر فيك وفي نفسي وهل أنا مخطئة إذ اقتحمت حياتك هكذا بغير دعوة منك وأنت شاب وطالب وغريب، وقد تعلقت بك وكان لفراقنا عند سفرك إلى ليون فجعة لم أر مثلها في حياتي، فكيف أربطك بنفسي وعليك واجبات، ونحن نختلف جنسًا ولغةً ودينًا وإن كنا متفقين طبعًا ومزاجًا وميولًا، وكنت أتمنى أن أصادقك وأعطف عليك وأحبك كما تحبك مدام جوتز ومدام كورفون حبًّا هادئًا رزينًا.

فقلت لها: على كل حال لست مصنوعًا من خشب البلوط، ولا من مرمر كارارا ولست جاهلًا بالنساء، ولا تظنين أنني صبي بكر ولكن لا أخفي عنك أنك تفاجئينني مفاجأة سارة.

قالت: صحيح؟ إذا أرت أن تحب زينا فأنا لا أمنعك.

فقلت: ويل لي إذا خطر ببالي هذا الخاطر.

قالت: إذن حب مدام راسين فإنها تحبك وهي كاثوليكية ومتزوجة وتبغض زوجها وتحتقره، وتغار عليك مني وترمقنا بعين الحسد والحقد وتوعز إلى أمها أن تتجسس

علينا لترى مدى علاقتنا، ألا ترى أنها تكاد على المائدة تلتهمك بنظرها، وأنها تتفانى في رضائك وأنها تقشر لك الفاكهة وتتفنن في طهي ما يرضيك، وتتزين لك وتحقد علي كما عزفت لك على البيانو ... وقالت لي: إنك بعثت إليها من ليون خطابًا قلت فيه: إن طبيبك قال لك: عد إلى المكان الذي كنت به فإنه أصلح لحياتك، وأنا أعلم سر عودتك ولكنني لم أشأ أن أكسر قلبها أو أثير غيظها، وأفضل أن تبقى غيرتها مكتومة في صدرها وهذا أقتل لها وأنفع لنا، قل: إنك عدت لأجلي فإنني لم أطق عنك صبرًا، وأوشكت أن أرحل عن چنيف وآتيك في ليون أليس كذلك أنك جئت لأجلي؟ قل لي هذا فأنا أحب أن أسمعه منك.

فقلت: أكون مبالغًا لقد جئت لأسباب كثيرة. إنني لا أزال ناقهًا ولم أبلغ نهاية التعب وبداية الصحة التي أرتضيها لنفسي، وأنا أحب مجلسك وحديثك، وقد تفاهمنا في أمور كثيرة، وأحب عزفك على البيانو أدوار شتراوس وبراهمس باخ فقد فتحت لي عالمًا جديدًا، وأحب صوتك ويديك الناطقتين وأحب حبك ابنك وعنايتك به وأرثي لطلاقك أو فرقتك من زوجك، أما مدام راسين هذه فلا يعقل أن أفكر فيها؛ لأنها زوجة وأم أولاد وصاحبة فندق وحولها آفات من أهلها وذويها، ثم إنها لا تجذبني ولكني أتأدب معها، ثم إنها امرأة سطحية جدًّا، وفوق هذه كلها لم أجئ إلى جنيف لأقارن بين النساء لأختار منهن واحدة، فإن مدينة ليون زاخرة بالجمال والفتنة ولكني لم أفكر في هذا قط وإخواني المصريون يسخرون من عفتي ويعيرونني بالتقوى، ويعتقدون أنني ماهر في التغمية عليهم ولا بد أن يكون لي فتاة أفضلها وأخفيها عنهم؛ لأنهم لم يروني قط في صحبة امرأة ولا يدخل في عقلهم أنني بعيد عن النساء بعدي عن اللحم والنبيذ والطباق والقهوة والشاي. ولكن هذا موضوع طويل.

موسيقار أمريكي

وعندئذ دق جرس العشاء فنزلنا معًا إلى المائدة ورأينا للمرة الأولى رجلًا طويلًا بادنًا يشبه في تقاطيعه وجه بيتهوفن، فقدمته مدام راسين إلي باسم مستر ويكس الأمريكي، فوجدته رجلًا مؤدبًا خجولًا متواضعًا يكاد يكون زاهدًا، وإلى جانبه عجوز عانس دميمة جدًّا متبرجة وقالت مدام راسين: هذه الآنسة بورتبيان شرَّفت بيتنا بعد مراسلة طويل حتى وثقت أننا نقطن بجوار كنيسة كاثوليكية؛ لأنها متعبدة، فانقبضت نفسي لها بقدر ما انبسطت لمستر ويكس الذي ظننته موسيقارًا موهوبًا لشدة الشبه بينه وبين بيتهوفن.

وكانت المائدة من قبل مقصورة على آل راسين، وعلينا فسرني قدوم الضيفين؛ لأن فيه فائدة محققة لخزانة الأسرة.

ولكن رأيت جان راسين باقية على عادتها معي من العناية، فلما قشرت لي الفاكهة مدت لها الآنسة العانس يدها بفاكهتها زاعمة أنها لا تعرف كيف تقشرها وترجوها أن تصنع لها ما صنعت لي، فأغضت عنها صاحبة البيت ولم تنظر إليها فابتسم ويكس ابتسامة ساحرة ساخرة، وكان يتكلم الإنجليزية ولكنه يفهم الفرنسية والألمانية.

وبعد العشاء قمنا إلى الصالون واعتذرت المدموازيل العانس العجوز بتعبها بعد السفر، وبعد فترة قصيرة نهضت أوجستا إلى البيانو وعزفت مقطوعة لشوبان، فرأيت ويكس مصغيًا إصغاءً تامًّا يتتبع في اهتمام زائد أناملها، وهي تجري على مفاتيح البيانو ولما انتهت صفق لها.

فقلت له: هل أجادت العزف؟ قال: نعم.

قلت: أتحب الموسيقى؟ قال: نعم.

ثم نهض وخلع حرملته أو مشلحا پلرين وانحنى يحيينا ثم جلس إلى البيانو بين دهشتنا وصمتنا ثم بدأ يعزف. دقة معلم عبقري وفنان عريق، فرأيت الانفعال في وجه أوجستا والعرق ينبذ في جبينها، عزف من باك ومن بيتهوفن من الذاكرة. ثم نهض وحيا وجلس في ركنه بعد أن لبس حرملته التي تجعله كالكاهن الحاج أو كالسائح في الجبال.

فعقد الإعجاب ألسنتنا إلا أوجستا فإنها قالت لي: قل له بالإنجليزية: إنني أعتذر إليه؛ لأنني تجرأت أن أعزف في حضرته فإنها لم تسمع أحدًا مثله من قبل، فابتسم في حياء وهو خافض البصر وقال: آسف لأن البيانو الخاص به لم يصل بعد وأنه لن يأتي إلى جنيف بل سيسبقه إلى تيزنيه وسيون وڤيڤي؛ لأنه سيحيي هناك بضع سهرات.

وكانت في عين جان راسين نظرة انتصار وفرح كبير؛ لأنها اعتبرت ظهور هذا الموسيقار هزيمة كبرى لأوجستا فقالت: «لم نعلم يا سيدي أنك موسيقي بارع حتى هذه الدرجة»، فأردت أن أنقذ الموقف وقلت: لأن بعضنا لا يقرأ مجلات الفنون فإن مستر ويكس عازف بيانو عالمي، وقد قلت ذلك مجازفًا وبنيته على الظن؛ لأن من يتبعه بيانو من أمريكا ويُدعى ليحيي حفلات في مدن سويسرا لا يمكن أن يكون مثل زيد وبكر وعمرو. فصمت ويكس ولم ينطق بكلمة، ولكنني عقبت قائلًا: يكفي النظر إلى وجه المايسترو ويكس ليعلم الناظر أنه مقسوم للموسيقى ومكتوبة عليه ومقدّر لها، فكل النوابغ متشابهون وهو أشبه من رأيت من الأحياء ببيتهوفن.

فنهض وانحنى وعزف من جديد وأجاد وأبدع. ثم نهض وحيا واعتذر بالتعب وأوى إلى غرفته.

وبقينا نحن الثلاثة، فقلت لمدام راسين: أنا أهنئك بهذا الضيف العظيم، قالت: ولكن إقامته قصيرة.

قلت: يجب علينا أن نفيد من إقامته بقدر المستطاع وأن نكرم مثواه، وانتهت السهرة وانفض المجلس، وقالت لي راسين: بقدر سروري بمستر ويكس فقد انقبضت لمقدم هذه الكالثوليكية العانس والعجوز المتبرجة التي تريد أن أقشر لها الفاكهة. فقلت لها: لا تجعلي اختلاف المذهب يتحكم في مصلحتك فهي على كل حال ضيفة كريمة.

فقالت، وهي تنظر إلى أوجستا: إن الإنسان يتحمل كثيرًا بحكم الصنعة وحكم الأقدار، ونظرت إلى أوجستا وقالت: أليس الأمر كذلك؟ فأجابتها: لا تكلفي نفسك يا سيدتي أكثر من طاقتها ولا تحملي عبئًا أثقل مما تستطيعين.

وصعدنا بعد أن ودعتنا إلى أول الدرج.

وفي الغداة تيقظت ووجدت ورقة مكتوبة ومطروحة على الأرض مدفوعة من الفراغ بين الباب والعتبة، فتناولتها وإذا بها بخط أوجستا وفيها تيقظ يا صديقي فإن الشمس تملأ الحديقة والهواء جميل والربيع يناديك، ولم يسبق لها أن تكتب لي ولكنني ذكرت أنها كانت تريد أن تخرج إلى نزهة في الصباح.

ولكنني أردت أن أقابل ويكس قبل أن أغادر البيت فقد سرتني عشرة هذا النابغ المتواضع.

سؤر الكأس

وبعد العمل والتعب جلسنا على مائدة الغداء وحدث حادث لم يسبق له مثيل، وكان على المائدة مستر ويكس وآل راسين ومعهم سيدة متقدمة في السن لطيفة العشرة تمتُّ لهم بصلة قرابة بعيدة قضت معظم أيامها في إنجلترا والعانس الدميمة المتزمتة.

وكانت أوجستا تأكل اللحم وتشرب النبيذ في إبريق، وقد ألحت علي أن أتذوق النبيذ مرة إكرامًا لمستر ويكس وأن مرة لا تعد عادة ولا تكسر الجرّة ولا تضر الصحة، ولم أفطن إلى قصدها، وقد أضاف ويكس رجاءه إلى رجائها وكذلك مدام راسين وليتها لم تفعل وقالت: إن عندها نبيذًا ألمانيًّا من كروم نهر الراين، فلم أشأ أن أظهر بمظهر

التنطع وضيق العطن إلى هذه الدرجة، وقلت: لن أشرب إلا قدحًا واحدة. فقالت أوجستا: ونحن لم نطلب أكثر من ذلك.

فرفعت الكأس وتذوقت النبيذ ولست به خبيرًا ولكن كان طعمه ولذعته ونكهته مدهشة، فاستحسنته جدًّا وشربتها حتى نصف الكأس، فقالت مدام راسين: إنه ألطف من شاتونيف وأن أباها ذواقة، وفي وسط سكون وصمت حدث الحادث العجيب.

بدأ هكذا، قالت أوجستا: هل أعجبك النبيذ يا صديقي؟ وكانت تخاطبني من قبل مخاطبة السيدة للسيد بلفظ موسيو. قلت لها: نعم يا سيدتي، قالت: لتعلم في المستقبل أن لا ترفض لي رجاء، ثم مدَّت يدها إلى كأسي وما يزال بها نصفها وتناولتها ببطء، وقبل أن أفطن إلى قصدها رفعتها إلى شفتيها وشربت وقالت: هذا لتوكيد صداقتنا، فكادت أدوات السفرة تقع من يدي وانقطع الطعام وتبادل الأضياف نظرات ذات معنى، وأرغت العانس الدميمة وأزبدت، وجحظت عينا مدام راسين ودفن زوجها أنفه في الطبق، وأرسل ويكس ضحكة عالية وظهر في وجه أوجستا شيطان الطرب والفوز.

وقالت لي: ماذا جرى يا صديقي أليس لك أن أشرب سؤرك وأتذوق من الكأس التي تذوقتها؟ إننا في روسيا لا نقيم للأوضاع المتفق عليها في غرب أوروبا وزنًا ونعد أكثرها نفاقًا.

فلم أر أن أهزمها أو أغدر بها وأنا أعلم بواعث نفسها في تلك اللحظة، فقلت: وأنا أيضًا لا أبالي بالأوضاع المتفق عليها.

وتصنَّعت جان راسين ضحكة صفراء حزينة أشد من البكاء ولعبت تقاطيع وجهها ثم انفجرت بالبكاء، ثم تمتمت ببعض ألفاظ مبهمة. ولكنها لم تغادر المائدة، ولكن أحدًا منا لم يذق الطعام بعد ذلك.

وقمت إلى قاعة الجلوس وتبعتني السيدة العجوز قريبة أهل راسين، وجاء ويكس وقالت لي السيدة العجوز: ربما لا تعلم يا سيدي أن جان فتاة مسكينة (هكذا) وأنها بقيت إلى سن العشرين خرساء لا تتكلم، وأنها كانت منذ هنيهة في خطر شديد وربما يعاودها البكم، فذعرت وقلت لها: ماذا تقولين يا سيدتي؟ قالت: أقول لك الحق وأنها شفيت بانفعال شديد وقد يعاودها الأمر بانفعال مثله وأنا لا أعيب السيدة على شرب النبيذ من كأسك، فهذه عادة روسية بين العرس والعروس وإنْ تكن مجهولة في غرب أوروبا ولا أرى فيها عيبًا، ولكن جان فتاة خجول شديدة الحياء فهذا الأمر قد آلمها جدًّا؛ لأنه بغتها وأنت لا تعلم أنها كانت بكماء، قلت: وكذلك السيدة التي شربت لا

تعلم وأنها لا تقصد شيئًا غير ما ذكرت من رغبتها رفع التكليف ولا أدري ماذا قام في ذهنها، على أنني لا أملك أن ألومها ولم يسرني هذا الأمر ولم يسؤني.

فقالت السيدة الطيبة: «ثم إنكم لستم في دير رهبان ولا مدرسة بنات ولا صومعة راهبات، ولم تأت السيدة أمرًا إدًّا، وأنا عشت في روسيا وأعرف عادات أهل البلاد. فلا تشغل بالك بجان وسأتولى بنفسي تهدئة خاطرها». فقال ويكس يسألني: هل يدور الأمر حول الكأس كما أظن، إنها زوبعة في فنجان. ليس الأمر عجيبًا وهل جوار الكنيسة الكاثوليكية يضع حرجًا على مسالكنا. فقلت له: أنا لا أفهم هذه المسألة. قال: ولا أنا ليس هذا خرقًا في درع سان چورچ ولا في مسوح كالڤن.

وذهبت إلى غرفتي فوجدت أوجستا قابعة بها فلما رأتني قالت: هل أنت عاتب أم ناقم علي أم ناقد مسلكي؟

قلت: لا هذا ولا ذاك، ولكنني فوجئت بالفعل ولو كنا على انفراد أو على اتفاق سابق لشكرتك، وقد وجدت في الأمر مظاهرة لا مسوغ لها ولكنني ناصرتك؛ لأن هذا واجبي فقد فعلت هذا لأجلي ولم أكن بحاجة إليه فإنه لا يزيد في علاقتنا ولا ينقص.

قالت: أراغب عني؟ قلت: ولا هذا موطن السؤال.

قالت: ولكنني قطعت على جان خط الرجعى وأعلنت لها أنني لا أبالي ولا أصبر على المكايدة، ولم أحرج موقفك بل أحرجت موقفي وفرحت أن هؤلاء السويسريين المنافقين يقضون علي بأنني تهتكت في هواك. وإن كنت هفوت أو أخطأت فلا بد في حالتي أن أهفو وأخطئ.

قلت لها: ولكن شيئًا واحدًا آلمني وهو ما أصاب المرأة من الانفعال والبكاء، ولعلك لا تعلمين أنها كانت بكماء خرساء وأن انفعالًا قد يعيد إليها البكم كما أزاله عنها انفعال سابق.

فقالت: بكماء خرساء؟ من قال هذا؟

قلت: مدام فلانة قريبتها.

قالت: ولكن عينيها ونظراتها ليست بكماء. إنها كادت تجنّ من الفرح عند نجاح ويكس في عزفه وظهوره تفوقه علي مع أنني هاوية متطوعة وهو محترف متقن. وعلى كل حال فلست نادمة.

تصميم على مغادرة منزل آل راسين

وفي صباح اليوم الثاني انتظرت مدام پيدو حتى الضحى، ثم ظهرت لي فجأة في ثياب قذرة مهلهلة ووجه كالح وأسنان صفراء محطمة وأيد معقدة وحذاء من خشب (سابو) وحيتني ووقفت صامتة ثم دخلت وأغلقت الباب وراءها وقالت: أريد أن أفاتحك في أمر. قلت: هاتي ما عندك. قالت: إن ابنتي تريد أن تزيد العناية بك وترعاك رعاية فائقة وتصونك من كل سوء وهذا باتفاقنا جميعًا ومعنا زوجها؛ ولذا نقترح عليك أن ننقل غرفتك إلى جوار غرفتها فهل توافق؟ فقلت لها: بلا ريب وأشكرها على هذا الجوار ولكن أين زوجها المحترم؟ قالت: في الدور التحتاني مع الأطفال.

قلت: ظننتهما في غرفة واحدة كعادة الأزواج.

قالت: كلا فإنك ومعشوقتك (كذا؟) تنامان في غرفتين منعزلتين وهذا لا يمنعكما الاجتماع وقتما تشاءان.

وانتظرت العجوز الخبيثة لترى تأثير كلمتها في نفسي، وكنت بريئًا من تهمتها ولا يغيظني شيء كالظلم والكذب، وقد عرفت العجوز كيف تغيظيني فصممت على أن أرد كيدها في نحرها فضحكت وقلت لها: لا ريب إذا نقلت غرفتي إلى جوار ابنتك العزيزة سيكون بيني وبينها ما ذكرت أنه بيني وبين السيدة الأخرى. قالت: هذه أشياء لا تقال، وعندما حضرتَ ونزلتَ بيتنا قلتُ للسيدة الروسية: «إن حبيبك قد وصلت» Votre amoureux est arrivé فلم تعترض ولم تغضب وسألت عن منظرك ومظهرك ووصفتك لها، ففرحت واحمر وجهها وكانت مريضة فزال مرضها.

قلت: قلت لها ذلك؟

قالت: نعم ولم لا ونحن نرقب هداياك إليها وتلك الأزهار التي تسرف في شرائها.

قلت: حسن جدًّا وعليك أن تعدي لي الغرفة التي تريدين وليكن الانتقال غدًا حتى أودع غرفتي هذه؛ لأنني شديد التعلق بالأماكن.

ففرحت العجوز وشكرتني وهى لا تدري ما عقدت عليه النية، وصممت عليه وهو أن أغادر هذا المكان.

وهرولت قائلة: سأبشر جان.

وأحسست برعشة تعروني وبرد يتمشى في عروقي.

وبعد هنيهة جاءت جان نفسها وهي باسمة ودخلت وأغلقت الباب وراءها.

وقالت: أشكرك وسوف ترى مني كل ما يسرك فقد قالت لي أمي كل شيء.

وفى تلك اللحظة سمعت صرخة مدوية، صرخة كصرخة الوحش الجريح ولم أستبن الكلام الذي قيل، ولكنني أيقنت بوقوع كارثة ولم أعلم مصدرها. فنهضت جان وأبلست ونهضتُ خارج الغرفة فرأيت غرفة أوجستا مفتوحة وهي واقفة ممتقعة تشير بيدها وترتجف من قمتها إلى أخمص قدمها وأمامها الماكرة پيدو تقول: لا تنكري!

فوقفت إلى جانب أوجستا وقلت لها: أنت التي صرخت هكذا! ماذا جرى؟

فأبلست پيدو بدورها وهرولت.

وأجهشت أوجستا بالبكاء، فقلت لها: لا تفكري فيما حدث. ماذا قالت تلك العجوز الشمطاء الساحرة؟

قالت: قالت لي: محبوبك سيسكن بجوار ابنتي، فقلت لها: اخرجي من هنا يا امرأة السوء، قالت: هل غاظك بعده عنك ... لا تنكري.

قلت لها: لا عجب لقد وعدتني بأن تظهري سر مدام راسين، وها أنت أظهرته وقد صمَّمتُ على الرحيل من هذا المكان.

قالت: وأنا معك فلا تتخلّ عني ولا تتركني إني أتبعك إلى آخر الأرض.

قلت لها: لا آخر الأرض ولا أولها.

ودعوت الخادمة جانيت وكانت تبكي وقلت لها: أعدي حقائبي ريثما أحاسب مدام راسين وأتحدث بالتليفون. فقالت: يا سيدي يا له من نكد وغم يصيبني، وسارعت بالنزول فألفيت موسيو راسين الزوج المسكين، فحياني بلطف كعادته وناولني الصحف التي أحضرها لي من جنيف المدينة فقلت له: هذه هي المرة الأخيرة التي تسدي إليَّ فيها جميلًا.

وتحدثت في التليفون إلى ڤيلا دي روز بشامبل وهي بيت عرفته من قديم في حي من أجمل أحياء جنيف، وطلبت إليها أن تحجز لي غرفتين منفصلتين، وودعت ويكس والعجوز القريبة وحاسبت جان وأنا مشفق عليها وودعت ولديها وقلت لها: إنني لم أتفاءل خيرًا بوجه العانس المتكثلكة، ولا أحمل لك ضغنًا وكنت أنوي أن أقبل اقتراح أمك الوقورة لولا أنها كشفت سر الاتفاق، وأهانت السيدة المظلومة فعلّميها أن الأسرار لا تذاع والأستار لا تهتك على هذه الطريقة التي ألفها من ينتعل القباقيب. قالت: إن مدام أوجستا لا يصح لها أن تغضب من أمي؛ لأنها تعرف أنها عجوز خرقاء أصابها خرف وأنا لم أسمح لها أن تهين أضيافي في بيتي ولم يكن لها دخل وهي ظنت أنها تحسن إلي فأساءت، فاعدل بربك عن الرحيل فإنك لن تجد مكانًا كبيتنا وإن مدام

فارين صاحبة فيلا دي روز ضيقة العطن تجمع في بيتها خليطًا لا تروقك عشرتهم. قلت لها: إنني أتخذه موطئ قدم إلى أن أستعد للسفر إلى ليون.

وهنا حضر راسين وفرك يديه وقال: يسرني أن صحتك تحسنت وأن واجبك يا سيدي ...

فقالت له زوجته: صه يا شارل فلم يبق إلا أنك تتكلم عن الواجبات.

قلت: لا تحجري عليه يا سيدتي. قال: إن واجبك يا سيدي يقتضي أن تعني بصحتك حتى تستكمل عافيتك.

ومددت يدي بالحساب وكانت جانيت قد أعدت حقائبي، واستقدمنا سيارة وغادرنا بيت راسين في غروب الشمس تقريبًا.

٦

في شامبل

ووصلنا شامبل بعد نصف ساعة، فأنزلتنا مدام فارين على الرحب والسعة، وأعدت لنا العشاء في إحدى الغرفتين وتعمدت أن أضحك وأداعب أوجستا وقلت لها: تأبى بنات حواء إلا أن تخرجن بني آدم من الجنة كأن بيننا ثأرًا قديمًا ولم يكن إبليس في هذه المرة مسئولًا، ولكن المسئول حية تسعى هي مدام پيدو. قالت لي: أغاضب علي؟

قلت: كلا لقد صرنا على الأقل أحرارًا فإذا اتهمونا ونحن أبرياء فقد آن الأوان أن نستمر على تكذيبهم باستمرارنا في براءتنا؛ ولذا طلبت غرفتين منفصلتين وكان يمكنني أن أرضى بغرفة واحدة.

وتعلمت من مدام پيدو أن سويسرا وأتباع كالڤن قد درجوا على المحافظة على الظواهر وأتقنوا النفاق السكسوني من طول ما خدموا الإنجليز ووقفوا على أحوالهم.

وكان المجتمع في هذا المكان عجيبًا جميلًا، ففيه علماء ألمان وفتيات بولونيات وآنسة تتكهن بالمستقبل وتعمل الطوالع من مدينة براج، وتطلب القانون الروماني واسمها فراولين فراير، وقد أحاط السيدات والأوانس بأوجستا وأحببنها ولم يكترثن لي ففرحت بذلك وضمنت راحتي، ولم أر وجهًا كالحًا كوجه پيدو ولكنني حننت من قلبي للأطفال ولچانيت التي خدمتني بإخلاص، وحننت للمكان كله والليلة الأولى التي قضيتها تحت سقفه، وعجبت لتعاقب الحوادث وتواترها كأنها سلسلة فصول من رواية تجمع بين الضحك والبكاء من تأليف القضاء والقدر.

وفي اليوم التالي قالت لي أوجستا: أنا شاعرة أنني أسأت إليك وأقلقت راحتك، وأرهقتك وأرغمتك على ترك مكان تحبه وقد اخترته بنفسك. قلت لها: لم أخسر شيئًا ولكن أسفي على أنك بعدت عن مقر ابنك وعن مكان زينا، وعن أماكن تعودت أن تعيشي فيها أشهرًا. وعلى كل حال يا صاحبتي ليست جنيف وطني ولا وطنك ونحن أنَّى نكون فيها فنحن غرباء نكرم حيث ندفع الثمن ونأجر الخدم ونحاسن السادة، ولكنني لم أستطع أن أمالئ أسرة راسين إلى الدرجة التي أرادتها تلك القوادة الذميمة مدام پيدو.

فقالت أوجستا: إذن صحيح ما قالت لي: إنها دعتك لابنتها وقبلت دعوتها فقلت: لو كنت قبلت ما رحلت وما حدث شيء من هذا. الأمر كله منحصر في كلمتين أنك أشفقت من غيرتك وغيرة چان راسين، فتآمرت ومدام پيدو بغير وعي؛ لأن كلًّا منكما كانت تعمل لما تراه في مصلحتها، فأحدثتما زوبعة جنيت أنا ثمارها واكتوت جان البكماء بنارها، فلا نعود إلى هذا الحديث مطلقًا.

ودق جرس التليفون ودعتني الخادمة باسمي فدهشت من يكون في جنيف يعلم موطني الجديد بهذه السرعة.

وإذا بصوت چان راسين في التليفون: صباح الخير يا سيدي.

– نعم يا سيدتي.

– إن مدام … نسيت هنا شيئًا ثمينًا.

– أتحبين أن تخاطبيها.

– كلا بل فيك الكفاية.

– وماذا تريدين. كيف صحة زوجك وأولادك أولًا؟

– شكرًا لك، إنها نسيت قميص نومها في غرفتها.

– حسنًا افعلي به ما يسرك، ابعثي به مع رسول أو في البريد أو احتفظي به، فلن يكلف أحدنا مشقة الانتقال من أجله فليس قميص يوسف ولا بلقيس.

وقطعت الحديث. وأظن جان كانت تحب التحكك بنا والمماحكة لعلها تصل حبال المودة التي صرمتها أمها، فلم أمدّ لها ولم أخبر أوجستا. وقد ذكرت هذه المحادثة تدليلًا على لكاعة أهل جنيف وخبثهم، فإذا كنت خرجت ومعي السيدة، فماذا يهم أن أسمع ذكر قميصها أو ثيابها كافة، وليس القميص حتى ولو كان قميص النوم بعورة.

بين روسو وڤولتير

وقد بدأت فترة جديدة في حياتي وصار قربي من جنيف أنفع لي في الوصول إلى المكتبة الجامعية، فإن الطريق كان قصيرًا بين شامبل وساحة بلانباليه وساحة اللعب وميدان الجنرال ديفور بطل سويسرا الوحيد مثل الميجور داڤل في لوزان. ومن هناك إلى كاروج فشارع مونبلان والجسر الكبير وجزيرة جان جاك، وفي هذه الأسواق والمتاجر كل ما تشتهي النفس، وساحة بلير وموقف الكهرباء الموصل لپيتي لانسي.

وعرفتني أوجستا بمكتبة كبيرة على أن تطلعني على روائع الأدب الفرنسي، ولا سيما مؤلفات جان جاك روسو وفولتير، وأحضرت لي الاعتراف والعقد الاجتماعي وأسباب التفاوت بين البشر وإميل فالتهمتها، ثم أحضرت لي مؤلفات ڤولتير ومسرحياته وقصصه الفلسفية، فأحببت روسو وأبغضت فولتير ورأيت في الأول شبهًا بين مزاجه ومزاجي وصعلكة ومغامرة وثورة تروقني، ووجدت في فولتير عقلًا جبارًا هدامًا متهكمًا ساخرًا متأففًا، أما روسو فقد حاول البناء والتعمير وهو حكيم على الفطرة مخلص صادق متصوف صريح فضاح، لا يخشى في الحق لومة لائم، لم يلجأ إلى الملوك ولم يعش وراء سراويل سيدات البلاط مثل فولتير، ولم ينافق كما نافق فولتير الذي كان ملحدًا وممعنًا في الإلحاد ثم يتمسح بأعتاب البابا، ويهدي إليه كتبه وفيها طعن في حياة نبي المسلمين لينال رضاه وغفرانه، وهو لا يؤمن بالغفران ولا بجنة ولا نار، ثم يهدي إلى ملك إنجلترا كتبه وينظم في مدحه القصائد الطوال ويدخر المال ويقرضه، ويقطن قرية ڤرني في قصر فخم زرناه وأطلنا النظر إلى سحنته المرسومة ودخلنا غرفة نومه وبهو جلوسه وقاعة طعامه، وقد أقامت له القرية نافورة وتمثالًا كتبت تحته إلى موسيو دي فولتير؛ لأنه كان يقرض المجلس البلدي بغير فائدة ربوية. والفرق كبير بين الاثنين فأحببت روسو حبًّا عظيمًا، وقدرت فولتير وما وددت أن أكون من معاصريه لو أتيح لي أن أعيش في بعض القرون الماضية؛ لأن فلسفته كانت مزيجًا من الدس والإلحاد والجحود والكفران بالنعم والروغان والمداورة وحب الدنيا والتزلف إلى العظماء أمثال فردريك الثاني والبابا وملوك فرنسا وإنجلترا. أما روسو فكانت حياته سلسلة آلام وآمال وإخلاص وزهد وعفة وإيثار وحب الإنسانية والصعلكة النبيلة والحيرة الجميلة، والإيمان الراسخ بالله وبالحق والكفر بالظلم والاستبداد والثورة على الباطل وعلى الأوضاع المتفق عليها، وخصوصًا النفاق والمراءاة وتضحية الباقية الخالدة في سبيل المنافع العاجلة.

وكان روسو ظريفًا خفيف الروح صريحًا متوكلًا عصاميًّا معلم نفسه محبًّا للسياحة والتنقل دقيق الملاحظة، مرهف الأحاسيس وكانت له خصال ثلاث: الأناة، والحياء، والوفاء. فكان مستأنيًا أبغض شيء إليه العجل، وكان محسنًا إلى من يسيء إليه، يحن إلى وطنه وإلى أصدقائه وإلى الأماكن التي عاش فيها ولو ذاق فيها الألم، وكان شديد الحياء من نفسه قبل حيائه من الناس، وبعد هذا كله محبًّا للحرية والحق وللضعفاء، ولم تكن حياته إلا وفاء لمن أحبهم وأخلص لهم حتى ترك المرأة الحقيرة الخئون تيريزا ليڤاسير التي لم تفهم طبعه ولم تعرف مواهبه ولم تقدر فضائله، تلك التي كانت خادمة أو طاهية ثم لم يأنف فيلسوف الزمان أن يتخذها حليلة تحمل اسمه.

فدرست حياة چان وكتبه وداومت على تفهمها وصممت على أن أفتتح بفلسفته وأفكاره وآرائه ومبادئه محاضرات ألقيها على المتأدبين من أهل مصر عند عودتي إلى وطني، فهو لا بد أن يكون أقرب الناس إلى قلوب هذه الأمة.

وكنت أكثر الجلوس في جزيرة جان جاك في وسط بحيرة جنيف ومعي أوجستا، وكنا نسير معًا في ساحة بلانبليه، وأقول لها: في هذه الساحة وقف روسو منذ أكثر من مائة سنة وودع وطنه، فلا بد أن يكون في ذرات الأثير وفي طبقات الجو أثر لصورته فتضحك وتقول لي: هذا إغراق في الخيال وتعلق بأرواح قد لا يكون لها أثر في الكون.

خطباء سياسيون

وكنا نحضر خطبًا ومحاضرات في بيت الشعب وسمعنا سباستيان فور، وجان جوريس وبرتوني، وسباستيان فور هذا كان كهلًا مكافحًا وأهدافه محاربة المبشرين وإظهار فضائحهم وأكاذيبهم، وكان يتحدى ويدعو خصومه لمنازلته في ميدان الفصاحة والتاريخ والفلسفة، وكان إذا تحمس يخلع سترته ويشمر عن ساعديه، ويفيض بنهر منهمر من البلاغة المرتجلة.

أما جوريس فكان نوعًا آخر من الرجال، فقد شبهته أوجستا بخطباء اليونان والرومان الأقدمين وقالت لي: إنه أستاذ فلسفة وأدب في السوربون، وإنه غادر منصب التدريس لينصر الشعب المظلوم وينشر الاشتراكية، وقد تعودت من ذلك العهد أن أقرأ جريدة الإنسانية «إيومانتي».

وكان برتوني عاملًا سويسريًّا في مطبعة يعيش من عرق جبينه وجهد ذراعيه، ولكنه كان ينشر مبادئ العمال في أنحاء سويسرا وينتقل ويرحل ويؤلف اللجان ويكتب الرسائل ويبيع الكتب، ويجمع المال لنصرة المبدأ الذي يدافع عنه، وقد زرناه في بيته ورأينا امرأته وتحدثنا إليها.

وقد عشنا في جنيف حتى رأينا البوليس السويسري وهو مطبوع على الغدر والتلفيق والانتقام، يلصق ببرتوني وثلاثة من أنصاره ورفاقه تهمة التحريض على الثورة والشروع في قتل الشرطة، وأنه ورفاقه كانوا يعلقون منشورات ويلصقونها بالجدران تدعو إلى الفتنة وزعزعة الأمن إلى آخر تلك التهم الحاضرة في أذهان البوليس في كل مكان، والعجيب في أمر هذه التهمة في تلك البلدة الضيقة العقل المحكومة بجمهورية رجعية وحكومة رأسمالية، أنها عندما وصلت إلى محكمه الجنايات تقدم للدفاع عن برتوني لفيف من المحامين متطوعين، فشكرهم واعتذر لهم وقال: إنه سيتولى الدفاع عن نفسه بنفسه، فبهت الرأي العام؛ لأن برتوني لم يكن على علم بإجراءات المحاكم، ولكنه قال: ما دام في المحكمة محلفون فلست أبالي، فإن تهمة البوليس أوهن وأضعف وأخزى وأكذب من أن تقف على قدم واحدة فضلًا عن قدمين. وقد كان وصحَّ نظره وصدق رأيه.

وتحطمت التهمة بل التهم وحكم قضاة جنيف ببراءته بعد أن أبدى المحلفون رأيهم بأن لا جناية. وهلل الناس في المحكمة وهتفوا للعدل ولبرتوني، وتولى البوليس الذي لم يخجل المحافظة على النظام ومنع المظاهرات.

وكانت الآنسة فراير المجرية من براج تجالسنا وتأنس لنا، وتسألني في القانون الروماني؛ لأنها تطلب الحقوق في الجامعة. وكنا جالسين يومًا تحت ظل شجرة في حديقة الفندق، فنظرت في يدي ثم قالت لي: إن التي شربت من كأسك ستتبعك إلى آخر الدنيا وتطيعك في كل ما تأمر به. فدهشت جدًّا وقلت لها: أفصحي يا آنسة فقالت: أنا لا أتنبأ ولا أتكهن ولكن أروي لك مثلًا قديمًا مشهورًا.

ولما كنا منفردين ولم تسمع أوجستا هذا الحديث فلم أشأ أن أرويه لها؛ لأنني تذكرت حادثة الكأس، ولا أدري إن كانت عملتها عامدة أو مازحة تقصد إلى النكاية والمكايدة.

مجلة ميركوردي فرانس

وكنا نخرج أحيانًا في نزهات إلى ضفاف البحيرة، وانتهزت أوجستا فرصة زيارتنا المكتبات وأرشدتني إلى مجلة مركور دي فرانس ولم أكن سمعت بها ولا قرأتها، فكان اهتدائي إليها ظفرًا لي ومصدر معرفة واسعة بالأدب والفنون الحديثة.

وكانت تلك المجلة يصدرها الأستاذ ڤاليت وزوجته راشيلد، وكانت أوجستا تتكلم عن راشيلد كلام من عرفها وعاشرها، فأقبلت على المجلة ودلتني أوجستا على مفتاحها فهي تنشر للأساتذة الراسخين والنوابغ البادئين، وتميل إلى التجديد في كل شيء وتلخص الكتب والمجلات الأوروبية، وتصدر مرتين في الشهر وتطبع كل مرة في أكثر من مائتي صفحة بفرنك ونصف، فبادرت إلى الاشتراك فيها وما زلت مشتركًا إلى عام ١٩٣٨ أو ١٩٣٩ واحتفظت بمجموعتها، وشاءت الأقدار أن أكتب فيها مقالة في سنة ١٩٢٠، وعاملت مكتبتها فمدتني بالكتب الجديدة وفيها اطلعت على الحركة الجديدة في فرنسا وألمانيا وإيطاليا وحتى إنجلترا والمدارس الأدبية نثرًا وشعرًا، وتعرفت في صفحاتها إلى أكابر النقاد وتسلسلهم كابرًا عن كابر، فكانت جريدتا الطان والفيجارو ومجلة مركوردي فرانس تغذي نهمي في الأدب وتربط الماضي بالحاضر، فكم قرأت لپول ڤيرلين وارتور ريمبو وجان ريشبان وفرنسيس چام وريمي دي جورمون صاحب الشهريات الباهرة، وهي مزيج من الفلسفة والأدب والعلم، وما أزال أذكر بحثًا كتبه مارسيل كولون في تحليل أفكار دي جورمون في خمس وثلاثين صفحة، أما نقد الكتب والحركة العقلية وتلخيص الرسائل والبحوث الممتعة المسهبة فحدث ولا حرج، ثم الشعر الحديث للكونتس دي نواي وغير هؤلاء عشرات.

ولهذه السيدة المجتهدة يرجع الفضل في إيقاظ رغبتي وإشباع نهمي وتطلعي الدائم للاتصال بالعقول الكبيرة الدائمة الحركة في العلم والفلسفة والأدب.

ولما كانت أوجستا ترقب حركاتي ورأت ميلي إلى بوتوني، وتتبع محاضراته وقراءة رسائله وأرادت أن تحوِّلني عنه في لطف، لفتت نظري إلى بحث في مجلة سويسرية حرة تصف برتوني بأنه ليس اشتراكيًّا ولا شيوعيًّا ولكنه فوضوي أنارشيست، ولكنه فوضوي عقلي يريد أن يفكك أجزاء المجتمع انتصارًا لطائفته وهي طائفة العمال وأنه من مقاطعة تيسينو. وهي إن تكن مقاطعة سويسرية، إلا أن معظم أهلها إيطاليون متأثرون بالمبادئ الفوضوية، فشكرتها وقلت لها: إنني لا أحب برتوني ولا أعجب به ولكنني أحب أن أعرف كل المذاهب الفكرية لأقف على البواعث والدوافع والحوافز في

هذه الأوروبا المحمية في سنة البركة ١٩١٠، فلا تخافي علي من الاندفاع، قالت: لا أخشى اندفاعًا ولكن هؤلاء الفوضويين في غرب أوروبا ليسوا إلا مقلدين لأهل روسيا وهناك منبت الفوضوية ومصدرها.

فضحكت وقلت لها: أتشيرين علي بالاتجاه إلى المصدر والمرجع في وطنه الأصيل، فقالت: كلا! لا سبيل إلى ذلك ولكن اقرأ كتاب «دخان في الهواء» لتورجنيف تقف على المبدأ من أوله وتعرف تطوره بأفضل مما تلتمسه في خطب برتوني وكتبه ومجامعه؛ لأنه عامل غير مثقف ولكن تورجنيف كان من زعماء الفكر ودراسة كتبه أليق وأخلق بغايتك.

الراقصة إيزيدورا دنكان

ثم دعتني إلى حفلة أحيتها إيزيدورا دنكان الراقصة العالمية، ولم أكن سمعت بها إلا في مجلة كوميديا الباريسية وكانت السيدة متحمسة جدًّا لهذه الحفلة وقالت: إنني سعيدة جدًّا لتلك الفرصة السانحة؛ لأن ثلاثة أمور أحب أن أطلعك عليها: الأول زيارة متاحف إيطاليا ولا سيما فلورنس، وموسم أوبرات فاجنر ببايروت وسماع صوت شاليابين وهو أعظم من كاروزو وصديق لجوركي ويقيم معه في رومه، ومشاهدة رقص إيزيدورا دنكان. ولا أحب أن نفترق دون هذه الأمور الثلاثة.

فشكرتها وقلت لها: إن الذي أريده حقًّا هو سماع الأوبرات؛ لأنها تجمع كل هذه الفنون؛ لأن إيزيدورا دنكان لا تزيد عن أن تكون رئيسة لفرقة الباليه. فقالت: إنها ليست راقصة باليه بل هي عبقرية أفهمت الدنيا أن الرقص شعر الحركة الإنسانية كما أن القصيدة نظم موزون مقفى بالنسبة للنثر المكتوب والمحكي فكل رقصة لها معنى. وسوف ترى.

وكانت إيزيدورا ترقص في كازينو الكورسال وقد حضرنا الحفلة، وكانت أوجستا شديدة الانفعال وقد حاولت أن تعديني بانفعالها العميق فلم توفق، ولعل مرجع هذا الجمود مني أن جسمي كان أصم لا يستجيب لموسيقى الرقص وأتأثر بالموسيقى تأثرًا عقليًّا لا عضليًّا ولا يستخفني الطرب، وهذا نقص بلا ريب في الثقافة، ولقد حاولت عام ١٩٠٩ أن أتعلم الرقص لأحضر حفلة المحافظ في ربيع العام الماضي بليون، واتخذت لذلك كل عدة وتلقيت دروسًا عملية في مدرسة راقصة على أيدي سيدات مدربات. وحضرت المرقص وقضيت فيها سهرة ممتعة إلى الفجر، ولكنني لم أوفق التوفيق كله؛

لأنه ليس في دمي ولا في أعصابي نغم ولذلك لا أزن الشعر ولا أستطيع الغناء ولو في الحمام، ولا يمكن أن تخرج من فمي نغمة مضبوطة وإن كان هذا نقصًا في الثقافة أو جمودًا في المزاج فلم يدركني عليه أسف ولم أندب حظي أبدًا؛ لأنني لم أغن ولم أرقص لا بلغتي في بلدي ولا في غيرها.

ولكنني ذهبت مع أوجستا إلى إيزيدورا دنكان شغوفًا برؤية هذه المرأة لكثرة ما قرأت عنها في الصحف الإنجليزية؛ لأنها أسكوتلندية متحررة وأوروبية النزعة عالمية الشهرة كونية الفن.

وأحب أن أقول قبل الكلام عنها: إنني عندما مارست الرقص في ليون، وجدت أعظم تكذيب لمزاعم الجهلاء من الشرقيين عن أن الرقص مع النساء له أثر في إثارة الرغبات الجثمانية، فقد تأكدت بنفسي أن هذا كذب صراح؛ لأن الراقص يتتبع نغم الموسيقى ويوفق بين التوقيع وحركات البدن وهذه في نفسها لذة عقلية وبدنية لا دخل لها في سواها. نعم أعلم أن هناك مراقص في أوروبا وأمريكا تتخذ المراقصة والمخاصرة ستارًا بل وسيلة لغيرها وهذه دعارة وتهتك وعربدة وخلاعة مخالفة لنظم الرقص الفني الذي يعدّ جزءًا من ثقافة الفتى والفتاة في المجتمع الراقي.

كانت الساعة التاسعة عندما رفعت الستار عن مسرح إيزيدورا دنكان، ولهذه الفنانة العظمى مناظر خاصة وديكور خاص يقوم به عمال تابعون لها؛ لأنها ذات فرقة كاملة، ولها أوركسترا كاملة ولها حواريون وتوابع كالنجوم التي تتبع الكواكب السيارة في أفلامها، وهي الكوكب السيار، وأكون قد رأيت في هذا الربيع كوكبين سيارين أحدهما رامح وهو مذنب هيلي والثاني راقص وهو إيزيدورا دنكان، فلم يقل أحدهما: في نظري في الجمال والروعة ودقة الحركة، وإن كان يصح إطلاق صفة الكوكب على امرأة ممثلة أو راقصة فعلى إيزيدورا دنكان دون سواها لصح إطلاق هذا الوصف عليها إطلاقًا؛ لأن كل كواكب الفنون المسرحية عيال عليها.

وهذه المرأة لها بدن ليس مثل الأبدان فهو طوع إرادتها كأنه خال من العظام تنشره وتطويه وتفرده وتثنيه وتمدّه وتمطّه وتطيله وتقصره وتسهب فيه وتختصر، وأعصابها طوع عقلها وعضلاتها طوع أعصابها، وميزتها وحدتها كالقصيدة الملحنة أو الأغنية الموقعة، ثم هذا كله في مجموعة من المناظر العجيبة النابضة بالحياة.

وعندما ترقص تتنفس وتختلج تبعًا لرقصتها وكل عضو من أعضائها طروب يتبع النغم الرتيب كأنها بمجموعها ساعة دقيقة الصنع شديدة الضبط، تتبع الكواكب

في حركتها الفلكية، وهي لا تنطق ولا تغني ولذة النفس منها بصرية سمعية، فأنت ترى هذا البدن اللين اللدن المرن وتسمع تلك الأنغام العجيبة، وتتحد اللذتان فتوجدان لذة عقلية مثل التي نصيبها عند سماع موسيقى فاجنر.

وقد حبست أنفاسي مرتين بغير قصد مني وطال احتباسها ولم أشعر بضيق، المرة الأولى عند سماعي أوبرا لوهنجرين والثانية عند مشاهدة رقص إيزيدورا. وفي كل منهما لم يكن لغير العقل لذة مطلقة ولا دخل لعاطفة الجمال، لا أدري إن كنت أقول ما يطابق آراء النقاد والخبراء ولكنني أقول ما شعرت به.

هذه المرأة قالوا عنها: إنها أحيت الرقص اليوناني القديم وأنها تقلد رقص الهياكل في الهند وفي دلف، وقالوا كثيرًا، ولكن أقول: إنها تبتكر رقصًا نوعيًّا مثل رقصة الأوزة، ورقصة النامف في الغاب وهي الفتيات اللواتي يتعقبهن پان، وهي تجعل من هذه الأشياء والكائنات صورة ذهنية تفسر بها المعاني تفسيرًا بالحركات حتى الجماد تعطيه الحياة، فقد رقصت في تلك الليلة رقصة الأوعية les vases لا نقصد الصحن أو السلطانية، ولكن نقصد إلى الأوعية من الصيني والقاشاني والخزف والذهب والعاج التي تفنن النحاتون والمصورون في صنعها في العهود القديمة لأسباب دينية أو فنية، وهي الأواني التي تعرض في المتاحف وقد حذقها أهل الصين واليابان، تخيل وتصور أن هذه الأواني ترقص أمام عينيك أو أن امرأة من لحم ودم وعظم تتخذ أوضاع تلك الأواني المختلفة، فتتبع الأوضاع بعضها بعضًا في أناة حتى تملأ عينيك ويتم تخيلك وتدرك النسبة بين الحقيقة والتقليد وترى الحياة تنبض في الجماد وترى الجماد الجميل يندمج مع الحياة في صورة امرأة عارية لا يسترها إلا مهلهلات من الأقمشة الشفافة بلون البحر أو الورد أو الفل أو الشفق أو الفضة.

وأرجو أن أكون صادقًا عندما أقول: إنني لم أر من بدنها إلا التوقيع، وكانت في رقصة الأوزة تبتكر أوضاعًا وحركات برأسها ويديها ورجليها وجذعها torse تجعلها كالإوزة في سبحاتها وفي طيرانها وحركة أجنحتها وفي طول رقبتها.

وكانت الموسيقى الموضوعة لكل منظر خاصة به تتمشى مع المناظر والحركات تمشيًا مدهشًا. ولم يكن الناس مسرورين أو مدهوشين أو معجبين بل كانوا مجانين وصرعى ومأخوذين، وكان أغرب الشيء أن المرأة المخلصة لفنها كانت هي أيضًا طروبًا وفخورًا، ومنتشية بنشوة الرقص الذي أبدعته وحققته للمرة الأولى في تاريخ الفنون.

وكان بجوارنا رجال وسيدات يصفقون ويصيحون ويبكون ويضحكون، ويعبرون بكل وسائل التعبير عن مشاعرهم وأحاسيسهم، فهذه ساعات يقول العوام: إنها لا تحسب من العمر ولكن حقيقتها أنها هي التي دون سواها التي تحسب من العمر.

وكانت أوجستا ممتقعة من شدة الانفعال فاحترمت صمتها وسكرها وعبادتها الجمال والفن، وبي بعض ما بها ولا أقول كله؛ لأنه لو كان مثل ما بها ما وعيت لمراقبة جمهور النظارة.

وسرنا على الأقدام في الشوارع الساكنة وعبرنا جسر مونبلان وطرقنا بولفار دي فيلوسوف (شارع الفلاسفة) المعروف في جنيف مارين بالحديقة العامة، التي يسمونها باستيون وكم لي فيها من صباح وعصر ومساء وقراءات ومحادثات لا تنسى.

وقد اخترنا هذا الطريق؛ لأنه أقصر وأهدأ وكنا صامتين إلى أن وصلنا إلى شامبل وبيتنا وعثرنا على أفراد من جيراننا كانوا في الحفلة، ولكننا لم نقابلهم؛ لأننا اتخذنا سبيلًا غير التي أخذوها وبينهم مدموازيل فراير التي أطلقت عليها أوجستا لقب ساحرة براج (وماذا كانت تقول لو أنني رويت لها نبوءة الكأس؟).

ولما وصلنا الدار جاءت أوجستا إلى غرفتي وقد خف انفعالها وسألتني: أمسرور مما شاهدت أم حاقد عليّ؛ لأنني أضعت عليك سهرة؟

وهذه مداعبة تجعلني أسيء الظن بذوقي عفا الله عنها. فقلت لها: لقد أخطأت في واحد وهو أنني إذا اشتقت إلى مشاهدة رقصة النامف أو السيرين (عروس البحر) فلن أجد من يسعفني بها.

ولم أشهد إيزيدورا بعد ذلك أبدًا، ولكنني تتبعت أخبارها بشغف شديد وشهدت إحدى تلميذاتها بافولوفا في مصر وهي مقلدة لا مبتكرة، ولم يظهر لها ذكر ولا شأن إلا بعد موت شيخة الطريقة ومؤسسة المدرسة.

المولوية

وقد ذكرت إيزيدوا دنكان مرة عندما كنت في تكية المولوية في القاهرة، وحضرت حفلة راقصة موسيقية. وكانت فتنة وأعجوبة. فإن لهؤلاء المولوية فرقة موسيقية نادرة المثال أهم ما فيها الناي والدف والصنوج، وهم يجلسون صفًّا في شرفة عالية وفي ساحة التكية المكسوة بالخشب يحضر الشيخ والدراويش، ثم يذكرون ثم يبدءون رقصتهم الدينية وهي رمز إلى دورة الأفلاك كما أن الموسيقى التي تهبط عليهم تمثل أنغام

الكواكب في دورتها، وشهدت مكان وقفة ابن شيخ التكية وقد ترك في موضعها بركة من العرق الذي نضج به بدنه أثناء ذلك المجهود المضني، وكانت حفلة جميلة وكانوا أساتذة في الموسيقى والرقص الروحي، ولكن لا أدري لماذا غضبت الحكومة المصرية عليهم فقوضت تكيتهم على عروشها، وشردت شيخها ودراويشها في الطرق وصادرت أموالهم وأوقافهم مع أنهم أرقى بكثير من فرقة البكتاشية الذين يسكنون في المغاور في حمى أحد أولياء الله (اسمه المغاوري) ولكن البكطاشية أحذر وأحذق، فإنهم يقطنون في ملكهم وتحميهم أمراء من الأسرة المالكة ولا سيما الأمير يوسف كمال الذي بنى له في تكيتهم مدفنًا.

أما إيزيدورا دنكان فقد قرأت بعد ذلك بسنوات كثيرة أنها عشقت شاعرًا روسيًّا شابًّا فتنت به فعذَّبها وأذاقها مرارة العيش ومرارة الحب من امرأة في خريفها لولدٍ في ربيعه، وقد دونتْ ذلك في مذكراتها التي نشرت في كتاب وكان لها ولدان ماتا بإهمال مربية مستهترة وهما يتنزهان على أحد جسور باريس، ومن ذلك التاريخ فقدت الفنانة العبقرية عقلها وحظها وانتحرت، ولكن أصدقاءها صاغوا خبر موتها في صورة فنية، فزعموا أنها كانت تقود سيارتها فاشتبكت أطراف شال الحرير بالعجل، والتفَّت على عنقها فراحت ضحية الشال والعجل مشنوقة! ولم أصدق هذه الرواية في وقتها ولكنني أشفقت عليها وكانت قبل وفاتها أسست مدرسة لفتيات تلقنهن فنها الخالد.

٧

الاستعداد للامتحان

كان يخيل إليّ في تلك الأيام التي بدأت برحلتي إلى چنيف أنني مقبل على عهد سعيد جدًّا. وقد تحقق ذلك التخيل كما يتحقق الحلم، فقد توافرت لي فيه أسباب السعادة المادية والمعنوية والعقلية والروحية، وكان شعوري بالواجب وانتظار الامتحان لشهادة الليسانس من عناصر هذه السعادة التي تكاثرت أسبابها، ولم تكن قلة المال والحرمان من بعض الكماليات بمنقصة هذه السعادة بل لعلها كانت من أسباب زيادتها.

وكانت فترة الإقامة في «شامپل» أهنا من الإقامة في «بيتي لانسي»؛ لأن بيت راسين على كل ما نالني فيه من هناء وطمأنينة وشعور بالعافية، وتفتح في رغبة الطعام وإقبال على الدرس واشتغال بالكتاب والدرس، كانت مشوبة بالحسد والحقد والخوف

الخفي من چان راسين، وأمها العجوز وزوجها الأبله؛ لأنهم شهدوا بداية قصتنا ولم يشاركونا سعادتنا إلا تصنعًا ونفاقًا، فكانت جان تنفس علينا النزهة اليومية والأزهار التي أقدمها إلى أوجستا، وتطمع في أن تكون في موضع المحظية المفضلة.

وكان الزوج يسألني هل أقرأ كل المجلات والكتب والصحف التي يحملها إلي والتي تصل إلي بالبريد وأجمع بين هذا وبين المذاكرة والدرس؛ لأنه لم يغب عنه أنني أستعد لامتحان نهائي في بلد بعيد. وكانت الأم تحقد وتحسد وتلدغ بلسانها وتكوي بنظراتها وتلذع بابتسامتها الصفراء ودمدمتها المكتمة وتتساءل في نفسها لِمَ لمْ تكن هذه النعم الطارئة من نصيب ابنتها المحرومة من السعادة، ولم يكن في البيت من مخلوق مأمون العاقبة سوى الأب بيدو، وهو شيخ كبير يدمن الخمر ويعيش في كوخ في آخر الحديقة وهو أصل نعمة هؤلاء الناس جميعًا، ثم الخادمة چانيت التي كانت مثال الإخلاص وسلامة النية.

ولكن في شامپل أقبلنا معًا، سيدة ورجل على أن نعيش متجاورين ورآنا الجيران معًا في عملنا وذهابنا وعودتنا ولا يشعر أحد منهم بأنه هيأ لنا سكنًا أو خدمنا خدمة خاصة أو أن سعادتنا رهينة رضاه، وهكذا يوجد اللؤم الإنساني في كل مكان حتى لدى الذين تأجرهم على خدمتهم وتمدهم بالمعونة وخصوصًا عند هؤلاء.

وكان يدهشني ما واتاني الله به من قوة، وتفتح ذهن وإقبال على العمل وشعور بالسرور وبنضارة العيش.

وقد زادني فرحًا أنني أخذت أنظم فكري وعملي، وأجعل حياتي مطابقة لتفكير منطقي وأكلف نفسي فوق وسعها في القراءة والرياضة ولا أجد لذلك إلا استجابة واستعدادًا. وكان يرد إليّ في كل يوم بريد ضخم من مختلف الجهات وأتمكن من الإجابة على كل مكتوب وخطاب وأساير الحركة الفكرية الأوروبية والحالة السياسية العامة وأتتبَّع أنباء مصر وكانت هذه الأيام أليمة في نفسي لوجود بعض القضايا السياسية في القاهرة التي كانت تصلني أنباءُها في الصحف.

أما أوجستا التي سخرها الله لخدمتي ومعونتي وإيناسي وتنويري في كثير من الأمور والسهر على راحتي، فكانت هي الأخرى سعيدة هي وزينا وولدها الصغير بوريس.

ووصلني في يوم خطاب من رفيق الدرس في الكلية إرمان بيكر ينبئني فيه أنه لم يبق على الامتحان سوى ستة أسابيع، وأن الأساتذة يلخصون المحاضرات ويتناولون المبادئ العامة وأن الطلاب يجتمعون ويتناقشون، وأن بعض الأساتذة ولا سيما هوڤلان

وكوهندي وإيمانيويل ليڤي قد سألوه عني؛ لأنهم يعرفون صداقتنا، ويسألني إرمان متى أعود وحسبت الزمن الذي قضيته في ذلك النعيم فوجدته سبعين أو ثمانين يومًا، ولكنني كنت أتوهمها سبعين شهرًا لشدة ما امتلأت به من الحياة والخير والنشاط والبركة.

فصممت على الانتقال إلى ليون لأستعد للامتحان في ميدان العمل، وفي جو الجامعة وفي وسط الأساتذة والتلاميذ، وخشيت عاقبة الوحدة والرطوبة ففكرت في عدم العودة إلى ليون والإقامة في شاربونيير إحدى ضواحيها وهي بالنسبة لها مثل حلوان للقاهرة وفيها خضرة وماء وهواء طلق وجبال عالية وبساتين.

وأنا أعلم أن هذا النبأ سيقع على صاحبتي وقوع الصاعقة ولكن أقنعت نفسي بأنني لم أجئ إلى أوروبا، ولم أتجشم المشقات والأضرار والأمراض لأمتع نفسي بالخضرة والماء والوجه الحسن. خضرة جنيف وماء البحيرة ووجهها، وإنما تلك النعم جاءت عرضًا ولا يصح أن تكون هدفًا أو غاية لي في هذه السن، وأنني لن أكون بحيث أنسى واجبي الأول بسبب متعة مدركة لن تفوت عليها الفرصة أبدًا، بينا فرصة الامتحان تفوت وتفر بسهولة وتعقبها غصّة بل غصص.

في جزيرة چان چاك روسو

وحددت يوم السفر وهو أول يونيو (وكان الامتحان يعقد في أواخر يوليو)، وقبيل ذلك اليوم بأيام انتهزت فرصة صفاء نفس أوجستا ورضاها ونضارتها وازدهارها، وسرنا على شاطئ البحيرة ثم جلسنا في جزيرة چان چاك وشربنا قهوة تركية (هكذا تسميها القيمة على الخان)، وما هي إلا قهوة مصرية بنُّها مطحون وصنفه جيد.

وقلت لها: عندي كلام أحب أن أقوله.

فانفعلت واضطربت وقالت: أنا أعرف ما تريد أن تقول، لقد آن أوان فراقنا وأنت ضجرت ومللت، وقد استعدت عافيتك وتحب أن تعود إلى مدرستك.

وانفجرت باكية على طريقة النساء ولم أكن أتخيلها تبكي؛ لأنها مرحة تبدو مستهترة أحيانًا وأحيانًا تقتل الحزن بالمرح والدعابة، وحضرتني كلمة أليمة كنت أراود نفسي أن أقولها «ألم تقولي لي على شرفة بيتك في لوزان في ليلة قمرية بعد نصف الليل: يبدو لي يا سيدي أنك متعب جدًّا، والأفضل لك أن تعود إلى بيتك وتنام!» ولكنني خشيت أن تكون شماتة أو تشفيًا ونفسي خالية منهما، فضحكت وهي تبكي لأخفف عنها وقلت لها: أنت تنقمين على المناظر Scéne ونحن لسنا مرتبطين بالرباط المقدس

ولكن بيننا رباط أقوى وهو رباط العقل، وقد عهدتك كريمة حليمة ودودًا تفضلين مصلحتي الباقية على السعادة العابرة. وأنا قبل كل شيء طالب علم لا طالب أدب ولا طالب حب ولا طالب موسيقى ورقص، وغايتي وأملي أن أحقق أمنيتي وأماني آخرين ينتظرونني أو أتوهم أنهم ينتظرون، وقد لا يكون في الدنيا أحد أشد تعلُّقًا بي منك، وبعد فإن أحدًا لا يمل هذه البحيرة وهذا الشفق ولا يمل الصحة والعافية ولا يمل عشرتك ومجلسك ومسايرتك وحديثك، وقد صنع الله مني رجلًا جديدًا على يديك وبفضلك، وكنت أنتظر أنك تحثينني على ما أشاورك فيه، وقد قضيت شبابي في خدمة وطني وقومي أو هكذا توهّمت، وقد دنوت من هدفي في التعليم فهل تمانعين في بلوغ غايتي، أنت تعيشين بالمنطق والعقل وقد أبديت لك عذري، ولكن أعلم أن الحق في مثل هذه المواقف لا يقبل وأن الغلبة للعاطفة، ولكن ليس بين أمثالنا المجاهدين في سبيل المثل العليا، وعندنا شعر عربي يقول صاحبه:

لا تعذليه فإن العذل يوجعهُ قد قلتِ حقًّا ولكن ليس يسمعهُ

فأنا أقول الحق وأنت لا تسمعين.

فجفت دموعها فورًا وتصنَّعت الضحك ولكنه ضحك كالبكاء أو أشد.

وقالت: أنا موافقة ولكن بشرط واحد وهو أن أتبعك ولو إلى آخر الأرض. وقد شربت من كأسك وندمت بعد ذلك؛ لأن عندنا مثلًا قديمًا «من يشرب سؤرك يطعك ويتبعك». وانا أتبعك بطاعتي.

قلت لها: هذا حسن اتفقنا ولي اعتراضان، الأول لا بد لي أن أسبقك لأهيئ لك مكانًا ووسطًا يرحب بك وأتمكن من الاندماج في الكلية وحياة الدرس، ثم تحلّين عليّ كما حللت عليك ونزلت بمكان مهيّأ، الثاني ماذا أنت فاعلة بولدك وكاتبة يدك؟

فقالت: هما يبقيان في جنيف، حتى ينتهي امتحانك ثم نعود.

قلت: ولو لم نعد إلى جنيف فكيف العمل؟

قالت: هذا مستقبل بعيد ونحن نفكر والله يدبر.

قلت: حسن ولكني لا أريد أن آخذ على كاهلي تبعة قاسية، وهي أنني فرقت بين والدة وولد.

قالت: لا تؤاخذني هذا هراء، فأنا لست طفلًا ولا ضحية غواية، ولست أنت الراغب في، ولست «عروسًا جفلانة» ولا صبية غريرة. وقد قضيت زمنًا بعيدة عن ابني حتى

تعوَّد، ثم إن زينا كالأخت الشقيقة له وهي تحبه بإخلاص، وهذا كلام مفروغ منه وما عليك إلا أن تقول لي: هل حددت يومًا لسفرك؟

قلت: كلا.

فقالت: نحن الأن في أواخر مايو وأظن أن أول الشهر المقبل موعد مناسب على أن ألحق بك بعد أسبوع أو عشرة أيام على الأكثر.

فاتفقنا. ثم نهضنا وغادرنا جزيرة جان جاك وقالت لي: لن نعود لهذه الجزيرة أبدًا؛ لأنني سمعت فيها نبأ فراقنا فزال حبها في قلبي. وقد صدقت نبوءتها ولم نجلس في هذه الجزيرة بعد ذلك اليوم أبدًا.

وقد تولت عني مفاوضة أصحاب الدار وقضينا الأيام الباقية من مايو في الاستعداد لسفري. وقد ودَّعت الجيران والأصدقاء وشكرتهم وودعت زينا وبوريس، وشددت رحلي في اليوم الأخير من مايو وتركت كثيرًا من الكتب والمتاع في أمانتها على أن تحملها إلي عند مجيئتها إلى ليون أو ضواحيها.

وكان هذا السفر من أقسى ما عانيت.

لو كنت من المتطيرين لصدقت أنني عوقبت بالحرمان والعذاب على البطر، ولو كنت ممن يعتقدون بالسحر لأيقنت أن الصديقة سحرتني، ولكنني لم أكن بطران ولا مضمرًا سوءًا ولا متحيلًا على الخلاص، وإنما أتبع الحق والخير وإنْ تألمت، ولا يقبل أنني تركت وطني وأهلي وأصدقائي في سبيل المعرفة وخدمة الوطن، ثم لا أترك صديقة لا تربطني بها رابطة في سبيل تحقيق غايتي، ولا سيما بعد أن شهدت أوبرا لوهنجرين ومقدمتها وفاتحتها، وفيها يصرخ البطل ويستغيث من طول أساره في كنف ڤينوس.

٨

الحياة في شاربونيير

وصلت شاربونيير في يوم شديد القيظ في أوله ثم شديد المطر في آخره وأودعت متاعي، ثم أخذت أطوف وأنشد السكن وأسأل كل رائح وغاد. وقد ذقت من الحر مرارة وعذابًا حتى أصابتني ضربة شمس مخففة، وبللت الأمطار في الجو المبرق المرعد الطافح بالكهرباء والغيوم المكمودة، بلَّلت الأمطار ثيابي ولم تجلب نسمة واحدة تلطف من حالتي. وفي ذلك اليوم تحملت الجوع والتعب وتخبطت في مجاهل واحتميت بكهوف،

واكتشفت محاسن الطبيعة ولكنني كنت منصرفًا عنها مشغولًا بالمأوى وشاعرًا بوحدة أليمة، وفي وقت ما ندمت على عودتي إلى البلد الغريب وحيدًا.

وقلت: لو علمت أنني سألقى بعض ما لقيت لعدلت، وكنت طريح الفراش في غرفة فندق الكازينو لا يطرق بابي أحد، ولا أستطيع أن ألمس قبضة الباب أو جرس الخادم، أعاني بحرانًا وحمى ثم لا أذوق طعامًا ولا شرابًا، وبعد غيبوبة طويلة لم يعلم بها أحد إلا الله نهضت وخرجت فاهتديت إلى مسكن جميل مستقل عند مدام بوديه وزوجها، ونقلت إليه متاعي واستجممت يومًا ثم نظمت عملي وقصدت إلى الكلية، وأعدت أواصر القربى وصلات المودة وحضرت المحاضرات في الساعات المبكرة، وكنت أسافر من شاربونيير إلى محطة سان بول (وهي مثل باب اللوق في القاهرة)، وأذكر كل أساتذتي وإخواني بخير ولا سيما الأستاذ إدوار لامبير الذي فرح بي ودعاني إلى منزله، واطمأن علي، ثم أعود إلى الغداء عند موسيو بيلهوم، وأفطر عند مدام بوديه وأتعشى عند بيلهوم. وفي أسبوع واحد اتصلت اتصالًا وثيقًا بدراستي فلم يفتني شيء، وأكثرتُ من التردد على الأساتيذ أسألهم وأناقشهم لأفحص نفسي، وأقيس استعدادي واندمجت ونسيت جنيف ووجدت خضرة وماء وحدائق وفاكهة غضَّة وأزهارًا فاخرة في شاربونيير ولم أفكر أبدًا في الوجه الحسن، ووصلت إليّ من مصر ذخيرة من البن والشاي وطاحونة وتنكة وفناجين وتوابعها لأحظى بقهوة البن المصرية.

وأخذت أعمل بعد الظهر في بيتي ويزورني فيه الطلاب المصريون المقيمون في شاربونيير ومنهم المرحوم علي فوزي وصديقه عبد الحليم البيلي ومحمد بيومي وغيرهم، وكنت أشرب على السفرة ماء ڤيشي أو إيڤيان ولا أتذوق اللحم، فكان بيلهوم يكثر لي من الدجاج والسمك، ولا سيما (السومون) ويقول: إنه ينفع طلاب العلم والمتزوجين وأنت بلا ريب أعزب؛ لأنك طالب فأحذرك من النساء؛ لأن مرض الزهري منتشر في محافظتنا هذه ولا سيما ليون ونساء ليون مغريات جميلات حسنات التقاسيم ناضجات الأنوثة مثل دجاج بريس (مشهورة بدجاجها مثل الدجاج البجاوي بالفيوم)، ولكن لا تخدعنك الظواهر، وما دمت تصبر على الظمأ، فأنت تصبر عن النساء، قلت له: ولست صابرًا على الظمأ؛ لأنني أشرب ماء فيشي كما ترى، قال لي: الذي لا يشرب النبيذ في فرنسا نسميه ظمآنًا؛ لأننا لا نشرب الماء ونسميكم الشعوب الشاربة الماء، هذه المياه للمرضى أما الأصحاء «فينتع» أحدهم «لتر» النبيذ في الوجبة الواحدة ولم أرَكَ تشرب نقطة واحدة من دم العنقود، إن الزهري يا سيدي هو وباء الحضارة الحديثة سوف يفني العالم الجديد ولا سيما أوروبا وأمريكا.

وكانت تقام في فندق بيلهوم أفراح ومآدب كثيرة، وتعزف الموسيقى وتطلق أصوات الفرحين بالأغاني الشعبية، وهو رجل ضخم في الأربعين من عمره وديع كالطفل، كريم كحاتم، ثرثار كالنافورة، خدوم كالأخ الوفي، وقد أوصى بي الصيدلي وموظف البريد والبقال والبدال وتولى من شئوني ما لا يتقنه سواه، وينهاني عن غشيان الكازينو؛ لأن فيه موائد للعب الميسر ومصايد الشباب، ويشير عليّ بأكل الخوخ وشرب الشاي بغير سكر لمقاومة القيظ، وينهاني عن التدخين ولو تظرفًا أو مجاملة، فلما رويت له أنني نزلت بفندقه أول قدومي، وأصابني ما أصابني من ضربة الشمس والحمى أنحى عليّ باللائمة وقال: إنك دخلت غرفتك ولم تطلب شيئًا فظنناك هاربًا من الجندية أو تاجرًا أجنبيًّا فلم نتدخل في أمرك، ولو علمت شيئًا مما تحكي لدبرت لك المسكن وأنت جالس.

لقاء الرسام محمد ناجي

وبعد أيام وفي يوم شديد المطر بعد أسبوعين من إقامتي جاءت برقية من جنيف تنبئ بوصول أوجستا في الساعة ٤ من ذلك اليوم. وزارني في ذلك اليوم الأستاذ محمد ناجي (المصور وكان طالبًا بالحقوق معي في فرقة واحدة)، فصحبته إلى ليون وكان المطر شديد الانهمار فروى لي ناجي وصف سياحته في إيطاليا وزيارته المتاحف في روما وفلورنس، وأذكرني بسياحتي إليها منذ أربعة أعوام (١٩٠٦)، ولكنه تكلم بلسان الفنان الذي عرف ودرس، فلزمت الصمت خشية أن أكشف عن جهلي وأنا شديد الحسرة ونذرت أنني إذا نجحت في الامتحان فلا بد لي من السفر إلى فلورنس؛ لأن روما شديدة الحر في الصيف وودعته في محطة سان بول وقصدت إلى محطة بيراس وفي الساعة ٤ وصل القطار. ووصلت أوجستا فسافرنا توًّا إلى شاربونيير ومعنا المتاع ودخلنا على مدام بوديه عند الغروب والمطر ما يزال نازلًا، فلما رأت السيدة القادمة جحظت عيناها وقالت: هذه صديقتك، قلت: أكثر من ذلك، قالت: على الرحب والسعة. ودعت خادمتها فأعدت لها أجمل غرفة وأفسحها وأمرت بالتدفئة والحمام، وقدمت إلينا الشاي وأرسلت إلى بيلهوم ليبعث إلينا بالعشاء فقلت لها: ليعلم بيلهوم أن ضيفتي تأكل اللحم والعظم والجلد وتشرب النبيذ، أما طعامي فكما يعلم.

ولم تنم أوجستا قبل نصف الليل وقد روت لي كل شيء، تكلَّمت حتى تعبت واستراحت وتكلمت حتى تعبت أنا واسترحت، ثم تكلمنا معًا حتى تعبنا، وأطلعتها على نظام حياتي وأنني أغادر البيت والقرية في كل صباح، وأعود بعد الظهر ثم لا أخرج

إلا نادرًا، فقالت: اصحبني إلى دار الكتب البلدية ثم مر بي نعد معًا إلى شاربونيير فكان لها ما أرادت، وإني أخجل من ذكر عفة هذه السيدة وقوة إرادتها وسيطرتها على نفسها سيطرة عجيبة، وقد وجدت عند مدام بيدو بيانو، فأخذت تعزف عليه ونشرت في غرفتها كتبها وصحفها وملأت محابرها وشرعت أقلامها وبدأت تقرأ، وتكتب بعد الظهر بعد مطالعتها الصباحية في المكتبة العامة.

ولما رأتني منهمكًا في دراستي عرضت على أن تقرأ علي أو تلخص لي أو تعينني على أية صورة، وكان هذا دأبها دائمًا، وقد أعانتني كثيرًا بذكائها وسرعة كتابتها وسهولة إحاطتها، ولا سيما في تاريخ القانون والقانون الدولي.

وكان ذهابنا للملاهي والملاعب نادرًا جدًّا فلم نقصد إلى تياترو سلسلتان إلا مرتين. وشهدنا في الأولى رواية روسية مترجمة عن الحياة السياسية، والأخرى تهذيب الأمير لموريس دوني ولم يكن لدينا من الوقت والفراغ ما يسمح بكثرة التنقل أو البعد عن مواطن العمل.

من أسعد فترات الحياة

كانت هذه الفترة من أسعد فترات حياتي، فإنني وإن كنت في جوار العلم وأحضان كليتي وبين أساتذتي وإخواني الطلاب أقصد إلى ليون في كل صباح أتابع دروسي، وأشارك في تكوين «خلوة الشرق» وهي المعهد الذي أسسه إدوار لامبير لمواصلة بحوثه في الشريعة الإسلامية ومقارنتها بالشرائع الأخرى، وقمت بقسطي من إلقاء المحاضرات العامة فيها في الكلية وقد خلفني الأستاذ مصطفى عبد الرازق في فترة غيابي، وكنت ألقي تلك المحاضرات بالفرنسية ثم بالعربية لمصلحة إخواني المصريين والتعريف بالاصطلاحات.

ولي في جانب ذلك حياتي الخاصة في ضاحية قريبة من المدينة والجامعة، وتشرف عليها أوجستا إشراف الصديقة الحميمة والمدبرة الحكيمة التي تستهويها ملذات العلم والأدب والروح دون غيرها من الملذات.

وقد وجدت سرورًا كبيرًا في حياة الريف الفرنسية لما فيها من الطرافة والعراقة، وكان لحياة الريف الفرنسي لذة وجمال يفوقان لذة الحياة في ضواحي جنيف، فإنك هنا تشعر بأنك في وطن لا في اغتراب، وتشعر أن الناس لا يستغلونك لأنك سائح بل يعاونونك ويقدرونك ويألفونك ويساعدونك، ولا ينافقون في معاملتك كما يفعل أهل

جنيف بقصد المكسب والمن عليك بأنهم أصحاب البلد والأرزاق والجبال والبحيرات والأنهار ويؤجرونها لك ويبيعون لك جمال الطبيعة بيعًا، ثم إن للجمال في ليون وضواحيها طابعًا خاصًّا، طابع الفطرة لا طابع الاصطناع، وكنا ننزل في بعض أيام الأحد إلى ليون ونقصد إلى رصيف نهر الرون حيث تعقد أسواق الخضر والفاكهة والأسماك الحية والصيد واللحوم الغريضة والطيور الطرية والأزهار والزبدة والجبن بأنواعها وقد نشروها على الأرض وتبيعها فتيات بالغات الحسن والنضارة، وكنا نرى النعم والأرزاق مكدسة تكديسًا كأن الله يرمي بالخيرات، ويقذف بها قذفًا ليتصرف فيها هؤلاء المزارعون الكرام لأهل المدينة، وتعقد الأسواق مع الفجر ويقبل أرباب البيوت وربات الأسر حتى إذا حلت الساعة التاسعة تهبط الأثمان هبوطًا عجيبًا. فمن الحمص الأخضر والبطاطس والفاصوليا والحميض تكاد تكون بلا ثمن ولا رغبة للبائعات إلا أن يتخلصن منها بأبخس الأثمان ليعدن إلى ضياعهن، أما الزبدة فكانت بغير مبالغة مكدسة كالهضاب، وكذلك أنواع الجبن والفواكه الناضجة ولا سيما الخوخ والكريز والبرقوق والعنب واللوز الأخضر والأزهار اليانعة تباع بغير عدد، وفيها الورد والنرجس والبنفسج، وكانت أوجستا تدهش لوفرة الأرزاق ورخصها حتى تغريها الأثمان بشراء ما لا نحتاج إليه فتأخذ أرنبًا جبليًّا غريضًا ودجاجة وسمكًا، وما نحن بحاجة إليها، ولكنها تتفنن في طهيها في ساعة فراغ، وتكثر من شراء الفاكهة مع أن شاربونيير زاخرة بالخوخ، وكان هذا موسمه في مقاطعة الرون وهو كموسم المشمس في القليوبية ولكنها غريزة المرأة والأم المدبرة التي تغلب تطبع المرأة على العلم والأدب، فهي تريد أن تغذي رجلها من صنع يديها فلم أمانع، واعتبرت هذا الشراء نوعًا من حمد الله على هذه النعم والاشتراك فيه إقرار بها، ثم إن الاتصال بهؤلاء الفتيات الناضرات القرويات الموردات الخدود الناعسات الطرف من أثر الكرى؛ لأنهن نهضن من فرشهن قبل الفجر ليدركن السوق في إبانها، كان هذا الاتصال يسرني ويشعرني أنني في صميم حياة فرنسا، وألمس الشباك وأتنفس ريحه وريحانه، وكنت أفرح عندما أرى فتاة منهن تحمل حقيبة من الجلد، وقد ملأتها بنقود الفضة والذهب وهي تقضم لقمة ضخمة من الخبز الذهبي وقطعة من الجبن وتروي هذا كله بقدح من نبيذ، وهي تبيع وتساوم وتبتسم.

ولا يعجب أحد من ذكرى هذه الأشياء في وقت الدرس والإنتاج العقلي، فقد عرفت بالخبرة أن راحة النفس وصحة البدن تبسط الحياة بسطًا، وتزيد الطاقة البشرية عشرة أضعاف وتزيد الشعور وترهف الحواس وكأنها تضخم اللذات وتكبرها مثل مكبرات

الصوت، أو معظمات الأشياء في المجهر أو التلسكوب، وتجعل للعمر قيمة وقدرًا وتتخذ الأيام والليالي لونًا وطعمًا، وحتى الساعات والدقائق فما بالك بالأسابيع والأشهر. وهذا طعم لا يعرفه إلا من ذاقه ولا يعرف بالوصف بالكلام أو الكتابة.

كنت أعطف على السيدة وكانت تزيد هي عن العطف وتصفه باسم آخر هو المتعارف عليه في اللغات، وكانت ترمي قبل كل شيء إلى نجاحي في الامتحان؛ ولذلك تحول بيني وبين كل ما فيه تبديد القوى، وتحرص على نومي ويقظتي وتحدد مواعيدها وتشرف على مواعيدها وقالت: إن سعادتي لا تقدر هذه فرصة وحيدة في حياتي، ونحن لم نشعر بالحرية في حياتنا إلا في هذه الأيام وليس علينا رقيب ولا عذول ولا حاقد ولا حاسد؛ ولأجل هذا يجب علي أن أقدر هذه النعمة وأن أحرص عليها وأن لا أسرف في الانتفاع بها، وأن أدخر قوتك لما ينفعك نفعًا مؤكدًا مباشرًا، فإذا شعرت أنت بالصحة والفوز وصفاء القريحة زادت سعادتي بزيادة ثقتك بي وشعورك بكسب الحياة.

وكان هذا الكلام منها يدهشني؛ لأنني فهمت أنه جاوز حدود الصراحة، وكان لا بد لي أن أقابل معروفها بمثله بل بأضعافه وكانت متوثبة الذكاء ترى روح المغامرة والرمانس في كل شيء، فإذا تقابلنا في محطة سان بول تعد هذا اللقاء موعد غرام، وأننا مقبلان على سياحة بعيدة وتذكر لي فونتناي أو روز وهي ضاحية شهيرة لباريس يؤمها أهل الأدب من الروس، وتذكر لي أن ضاحية آنيير مشهورة بخضر السلدة التي يحبها أهل باريس، وهذه قرى على طريق. وتخبرني أنها وجدت في شاربونيير شبهًا كبيرًا وبين ضواحي باريس، وأحبت أن تلبس من حرير ليون الشهير وقد زرنا سوق الحرير وانتقت ما شاءت، وأحبت أن تزور لاكروا روس وهو حي صناع الحرير في أعلى ليون.

وكان يتبدى لنا من الجمال ولي أنا بالذات ما لم أكن أراه من قبل، وكانت معجبة بليون لكثرة جسورها وجمال مناظرها ليلًا واجتماع نهر الرون بالسون، والأول مذكر والثاني مؤنث فتشبه اجتماعها بالزفاف والزواج بين روحي النهرين، وتعجب من أسماء المحطات الصغيرة ويذهب الخيال بعيدًا، فمنها «نصف القمر» و«حلق الذئب» وتسألني عن هذه الأسماء فأقول لها: إن الأسماء يا حبيبتي لا تعلل، إلا اسمك فإنه رمز العظمة والفخامة ويقنعك بالانتماء إلى الملوك الأقدمين، فهذا أوجست إمبراطور روماني وفيليب ملك مقدوني ووالد الأسكندر العظيم، فتضحك من هذا التعليل.

وكانت تصلها من زينا مكاتيب يومية تنبئها بأخبار ولدها بوريس، وقد عرضت عليها أن تدعوهما فإن شاربونير لا تقل جمالًا وطيب مناخ عن ضواحي جنيف، ولكنها

أصرت على بقائهما في كنف عائلة جاي وقالت لي: قد أفكر في هذا بعد أن ينتهي عملك ولم يبق بيننا وبين هذا إلا شهر وبضعة أيام، ولا يجوز لنا أن نشتت ذهننا في شئون شتى وليس في هذا الأمر تضحية علي، ولكنك أنت المضحي؛ ولذا علي أن أتفانى في خدمتك لأعوض عليك. فلا أفهم هذا القول من امرأة محبوبة لا تكلف رجلًا فوق طاقته.

وكانت الأمطار تهطل أحيانًا في شهر يونيو فنفضل أن نسير معًا تحت الطل أو نجلس نرقبه، ونتنفس الهواء النقي الذي يعقبه ولكن كان الرعد يرعبها والبرق يخيفها، وتبقى كالمأخوذة وتسد أذنيها بالقطن وتلزم الفراش أحيانًا.

أدب الشعوب (الفولكلور) والتجديد في الفنون والتطور في المدارس الأدبية

وكانت في تلك الأيام تقرأ كتب الفونس دوديه وباربي دورڤيلي وفلوبير وكتب كثيرٍ من المؤلفين المحدثين أمثال پول هرڤيو وإميل فاجيه، وتفضل نقد سانت بوف ومدام ريكامبيه تأليف إدوار هريو، وقد لفتت نظري للمرة الأولى إلى علم الفولكلور أي: أدب الشعوب ولغاتهم الدالة على أخلاقهم وفيها أغانيهم وأمثالهم فلم أعرف قدر هذا العلم إلا بعد سنوات عندما وجدت له علاقة وثيقة بالدراسة الجنائية والاجتماعية، وتذكر لي شارل موراس الكاتب الملكي النزعة (رويالست) وتصفه بأنه من أكبر الكتاب الأحياء في لغته، وإن كانت آلة تفكيره فاسدة؛ لأنه لا يعقل أن يكون للملكية أتباع في هذا الزمان، فلما ناقشتها في مبادئ هذا الرجل قالت لي: إنه مخلص في مبدئه لا حبًّا في الملكية ونقائصها ومفاسدها، ولكن بغضًا في الجمهورية التي تفشى الفساد في عهدها واستشرى الشر والرشوة والمذاهب الهدَّامة، وكانت قد اهتدت إلى مجلة أسبوعية تكتب بأقلام كتاب كبار من المعاصرين أمثال أناتول فرانس وپوانكريه فتقول لي: هذا التاريخ أبي؛ لأنه يحلل أهل هذا العصر ويجاري الزمان في سيره فتعلقت بهذا الجانب، وهي التي حدثتني عن التجديد في الفنون الرفيعة والتطور في المدارس الأدبية من شعر ونثر وتصوير ونحت وموسيقى، وأول من أسمعتني شعر تيوفيل جوتييه وبول ڤيرلين وأرتور رمپو وأرشدتني إلى معارض الرسم التي تقام في عواصم أوروبا، وأوجدت صلة بيني وبين رومان رولان مؤلف جان كريستوف وتواريخ الموسيقيين، وصار بعد مؤرخًا للتصوف الهندي (غاندي وراما كريشنا)، وكانت تتابع الأدب في بروكسيل، وتذكر أن الروح الفلمندي غير الألماني وأن موريس مترلنك وهو بلجيكي صار عالميًّا وطريقته وسط بين الرمزية والواقعية، وتقرأ القصص الألماني وتنقل بعضها إلى الروسية، وكذلك

الكتب البولونية وتتذكر من الأدب الإنجليزي جورج مرديث وأوسكاروايلد وتقول: إن اضطهاد أوسكار وايلد مظهر فاضح من مظاهر النفاق السكسوني، فهم يفعلون المخزيات ويتسترون، وأوصتني بقراءة صورة دوريان جراي وأغنية ليمان ردنج، ووصفت لي شخص وايلد كما رأته سيدة روسية في باريس في السنة الأخيرة من حياته، وكتبت وصفها في مجلة تصدر في موسكو وهي صورة مؤثرة.

وإني إذ أتذكر هذه الأشياء الآن وأقلب بعض الأوراق التي سجلت فيها أسماء الكتب، وبعض الحوادث في الحياة اليومية، أدهش من سعة رزقي في هذه الفترة الغزيرة الخير وأعدها من مفاتح الأقدار.

وكلما وصلت إلى يدها صحف ومجلات روسية تروي ما يجري في تلك البلاد من النضال العنيف بين القيصرية وطلاب الحرية، وشدة التنكيل بالثائرين في السجون والحصون وفي مجاهل سيبريا، وكانت عندي فكرة حسنة عن الحياة الروسية من قراءة كتاب البعث والحرب والسلام لتولستوي.

حركة العمال والاشتراكية

وكان في تلك الأيام (صيف ١٩١٠) حوادث آزيف وهو نوع جديد من الجاسوس الذي يلبس ثوب الثائر ليوقع بالثائرين، ويبلغ عنهم لتهلكهم مظالم القيصر، ومصرع الأب جابون (صاحب مظاهرة العمال في الأحد الدموي)، وقد انقلب هو الآخر جاسوسًا فاستدرجه أتباعه السابقون وشنقوه في بيت خلوي جزاء خيانته، وقيل: إن الشرطة السرية هم الذين شنقوه. وظهر في باريس رجل اسمه بورتزيف وصل إلى شهرة كبيرة؛ لأنه كان جاسوسًا على الجواسيس وهو الذي أفشى أسرار آزيف ودل عليه وأرغمه على الفرار والاعتراف، وقد لقي حتفه منتحرًا في أسبانيا، وكانت هذه الأيام زاخرة بالحياة والحركة والمعركة حامية في كل أنحاء العالم ومن بينها مصر، وكذلك إنجلترا كانت تتمخض عن حركة العمال والاشتراكية على طريقتهم الجامدة الباردة. وصار الجمهوريون في فرنسا شيوعيين والأحرار ملحدين وأحزاب الشمال فوضويين، ونزل أناتول فرانس وأندريه جيد ومارسل سمبا إلى الشوارع لقيادة الحركات الجديدة.

فلا عجب إنْ كان الشباب المتعلم قد تأثر بهذه النهضة التي كانت تخفي وراءها تحفز أوروبا للحرب سنة ١٩١٢ ثم كظمت أوروبا غيظها سنتين، ريثما تستكمل استعدادها لتخوض غمار الحرب العالمية الأولى.

وإن الحضارة الأوروبية ازدهرت ونمت وتضخمت والأذهان تفتقت والنفوس اشتعلت والأمزجة توهجت، وأنذرت بنهاية هذه الحضارة التي عجل على نهايتها ساسة إنجلترا أمثال اسكويت ولويد جورج وكتشنر وغليوم الثاني وفرانسوا جوزيف والسلطان عبد الحميد وتيودور رزفلت، وكان بعض المفكرين رأوا علامة الخطر ونذير الهلاك وإشارة آخر زمن، ولا سيما أوزڤالد شبنجلر في ألمانيا وماكس نورداو في النمسا، ورومان رولان وأناتول فرانس في فرنسا وأوجست ببيل في ألمانيا، وحاولوا تفكير الدنيا وتذكيرها بواجبها.

ولكن أفلت الزمام من أيدي هؤلاء وتقدم الجناة والسفاحون وخدام المستبدين والمستعمرين، وعباد المال إلى المعركة التي كانت الضربة الأولى.

وأظن هذه الحالة وما تلاها يفسر الغليان الذي كنا نشعر به كأننا نودع العصر الحديث الذي لم نقض منه إلا عقدين من الزمان، فقد كان عمري في مستهل العقد الثالث، ولم أتمتع بالوعي والإدراك إلا منذ خمس سنين.

ولم تكن أوجستا ترى هذه الفكرة بوضوح، ولكنها قدمت إلي كل العناصر التي ساعدت على تكوين فكري.

٩

مكاتيب من الساسة الإنجليز والفرنسيين والاتصال بالهنود

وكان من أهم الأمور أن أسارع إلى جواز الامتحان لأتحرر من قيود الدراسة، وإنْ لم تكن الدراسة عاقتني عن المساهمة في مؤتمر جنيف (سبتمبر ٩٠٩)، ولم تعقني عن الاتصال برجال السياسة والأدب في أنحاء العالم، ولكنني ما زلت طالبًا ولا ينظر إلى قولي وفعلي إلا نظر الرجال إلى طالب علم في ريعان الشباب، وكانت ترد علي خطابات ومكاتيب من المرحومين بلنت وكير هاردي وتوم كيتل وهزلتون ووروتستين ولفيف من الساسة الإنجليز والفرنسيين، وقد اتصلت منذ عام بالهنود، ولا سيما شياد مجي كريشنا فارما صاحب مجلة إنديان سوسيو لوجيست ومدام كاما وهارديال وساڤاركار.

وكانت تصلني كتبهم المطبوعة والمخطوطة وأخبارهم المتتابعة، وقد نصحت لي أوجستا أن أخفف من وطأة اتصالاتي بالحياة العامة ريثما أجتاز الامتحان فعملت بنصحها.

وكانت المودة توثقت بين أوجستا وبين مدام بوديه، وهي من ربات الجمال اللواتي بلغن الكبر، ولكنها احتفظت ببقية من محاسنها وبكل كرامتها وفضلها وتمتاز كثيرًا عن زوجها بوديه فقد كان دميمًا قاصر العقل سخيفًا. وقد ذكرت مدام بوديه لأوجستا أن سخافة زوجها بلغت به أنه لما علم أنني من مصر أي من أفريقيا تولى تعليمي كيف أشعل السراج، وكيف أطفئه خوفًا عليه من أن لا يكون في بلادنا مصابيح تضاء بغاز الاستصباح، وأنه يجب علي أن أحرك المفتاح بالتوطئة، وأن لا أنفخ أبدًا في اللهب من أعلى الزجاجة لئلا تشتعل، فشكرته وقلت له: أحسنت يا سيدي بتحذيرك إياي فأنا قادم من سويسرا حيث يوجد في كل غرفة مصباح كهربائي وتدفئة كهربائية. وكانت مدام بوديه جالسة صامتة تحمر وتصفر أثناء كلام زوجها، فلما انصرفت أنَّبته وسخرت منه وقالت: تنصح هذا الرجل الذي غادر وطنه في سبيل العلم لا شك أنك جاهل. وشاجرته طول اليوم، فروت هذه القصة لأوجستا وقالت لها: منذ ذلك اليوم أخجل أن أرفع عيني في وجه السيد فلان.

وحدث أن جاءت فرقة تمثيل فرنسية وأقامت في إحدى البيوت المملوكة لموسيو بوديه. وحدث بينهم وبينه شقاق كالذي يحدث عادة بين الممثلين والملاك، واكتشف رئيس الفرقة أن اسم بوديه Baudet معناه الجحش! وفي شاربونيير في كل عام حفلة سبق للحمير.

وانتهزت الفرقة هذه الفرصة وأعدوا استعراضًا غنائيًّا ونظم أحدهم أغنية هزلية فيها «يوم الأحد يقام سبق الحمير في شاربونيير، وسوف نسوق لكسب الجائزة موسيو بوديه». وكان أهل شاربونيير جميعهم حاضرين تلك الحفلة وكان بوديه في الصف الأول، وقد لبس الردنجوت ووضع في عروة سترتة زرًّا يثبت أنه من أعضاء جوقة الشرف «لجيون دونير»، فضحك الناس وأغرقوا في الضحك واستعادوا هذه المقطوعة مرات عدة.

وكانت مدام بوديه أولى الضاحكات وقالت لزوجها بصوت مسموع: «هذا أقل ما تستحق لقاء نزاعك مع أهل الفنون» Ce tate servira bien.

واحتج بوديه ولكن رئيس الفرقة قال له: «نحن نمثل رئيس الجمهورية موسيو فاليير ونسخر منه ويشاركنا الجمهور، ولو كان بينه محافظ المدينة وعمدة القرية ورئيس الشرطة. أفتظن أننا نبالي باحتجاجك إن الفنون حرة والأدب طليق».

الامتحان

وعندما حل يوم الامتحان وكنت سأؤديه في ثلاثة أيام، تبعت حمية خاصة وانقطعت عن المذاكرة وقضيت يومين في الرياضة البدنية والسير في الحقول وفي غابة قريبة من شاربونيير، ولم أتناول خلال اليومين إلا الفاكهة والحليب ومحّ البيض (صفار) دون البياض وقليلًا من الشاي والقهوة.

وحدثت لي في هذا الامتحان بعض الحوادث العجيبة منها أنني في عشية الامتحان رأيت في الرؤيا بعض الأسئلة في القانونين التجاري والدولي، فاحتطت لذلك بمراجعة خاصة لهاتين المادتين، ولا سيما الأسئلة التي رأيتها في الرؤيا.

ودهشت إذ صادفتني هذه الأسئلة نفسها في الامتحان وأجبت عليها إجابة حسنة جدًّا.

وفي اليوم الثاني كنت أتوجس خيفة من امتحان عمانوئيل ليڤي الإسرائيلي؛ لأنه شديد الفطنة وشديد مع الطلاب في الامتحان ولا سيما الغرباء ويبدو في معظم أوقاته مستهترًا وهو خطيب سياسي اشتراكي النزعة وثقة في القانون المدني، ويفاخر في الدرس بأنه ابن خراط ولا يرجع الفضل في نجاحه إلا لاجتهاده، ويحقد على الأرستقراطية والبورجوازية حقدًا في محله.

وهو رجل لا يحب الاتصال بالطلاب ويتعالى ويتشامخ ويسمونه شيلوك؛ لأن له سحنة يهودية صارخة، وإن كان أبعد الناس عن الربا والمال.

فلما كان يوم امتحاني أمامه وهو الثاني أقبلت عليه وأمامه طالب ياباني، وقد اضطرب ابن طوكيو اضطرابًا شديدًا وأظنه كان مؤهلًا للرسوب أعظم تأهيل؛ لأنني لم أره طول العام في محاضرة أو مناظرة أو مكتبة.

فألقى عليه ليڤي سؤالًا لا يعدّ سهلًا ولا صعبًا ولكن بين بين، فاحمر الياباني؛ لأنه أصفر بالفطرة وقال له: أرجوك يا سيدي الأستاذ أن تكتب لي السؤال لأجيب عليه.

فنظر إلي ليڤي وقال نكتة هائلة، تنهَّد واستجمع قوته وضاق نفسه؛ لأنه مصاب بربو مزمن! وقال: وا أسفاه يا سيدي الياباني، إن خطي أردأ من نطقي، أشكرك وأرجوك الانسحاب!

فلما جلست بين يديه بعد الياباني قال لي: وأنت أيها السيد المصري، أجب على السؤال الذي عجز عنه سلفك إنْ شئت. فأجبته بتوسع، فقال: لا عجب فقد كانت عندك فرصة الإجابة بينما كان صاحبك مضطربًا فهذا لا يدّل على شيء. فأجبني عن

كيت وكيت. فأجبته باسمًا، فقلب في أوراقي وقال: أنت من مواليد الإسكندرية سنة ١٨٨٦ قلت: نعم قال: بما أنك تعرف مقررك فما سبب الشائعة بأن الطلاب المصريين لا يستعدون؟ فقلت له: لا علم لي بهذه الشائعة. فألقى علي سؤالًا ثالثًا، وقال لي: لا تغضب ولكن أسألك ليطمئن قلبي: ما الفرق بين القانون المدني والقانون التجاري في آراء الفقهاء، قلت: أجيب من المراجع أم من واقع درسك. قال: يكون أوقع.

قلت: كالفرق بين الحسناء المحتشمة والدميمة اللعوب، فافتر ثغره عن ابتسامة عريضة؛ لأن هذه كانت نفس ألفاظه في محاضراته، فقال: أشكرك لا فائدة في تعذيبك وتضييع وقتي، فابتسمت وتركته ومررت أمام كل اللجان، وفي كل منها ثلاثة أساتذة محلفون وعميد الكلية.

وفي اليوم الثالث كان امتحاني في التشريع الاستعماري وتشريع العمال والمبادئ الاقتصادية.

نجاحي في الامتحان

وفي اليوم الثالث ظهرت النتيجة وهي نجاحي بتهنئة المحلفين، وهي نتيجة تعلن والأساتذة وقوف ويتلوها تصفيق جمهور الطلاب وأهلهم. وكانت هذه المرة الثانية التي نلت هذا الشرف في كلية الحقوق، وخرجت مسرورًا ووصلت إلى شاربونيير في الساعة الثانية بعد الظهر ولم أجد أوجستا ولم أرها في ليون، فقصدت إلى مطعم بيلهوم لعلها تكون سبقتني إليه، فوجدت في انتظاري برقية بالتهنئة وعليها توقيعها ومصدرها ليون محطة سان پول فكأنها ذهبت وعرفت ولم أرها لانشغالي.

وبعد هنيهة وصلت إلى شاربونير وهي تحمل أزهارًا وحلوى فرحًا بتلك النتيجة السارة، وكان وجهها مبللًا بالعرق من شدة العرق ومن دموع الفرح. وكان اليوم عظيمًا وأردت مداعبتها فأرسلت إليها برقية نصها:

> وصلتني برقيتك وأشكرك وأقر لك بالفضل والمعونة وانتصاري انتصارك، وقد ساهمت فيه أكثر مني.

وعلم بيلهوم وأراد أن يكرمني فقدّم لنا في العشاء طعامًا فاخرًا، وقال: هذا العشاء على حساب البترون (أي: نفسه) وقدم لنا قنينة من نبيذ شمبانيا وقال: يا سيدي الزاهد إن الضرورات تبيح المحظورات ومشاركتك في سرورنا بك ضرورة، فقالت أوجستا: لا

أنا ولا هو نشرب الشمبانيا، ولكننا نقبل هديتك على أن نأخذها معنا ونشربها في بيتنا في الوقت المناسب.

فقال: قبلت هذا الحل، وخرجت من مأزق معاقرة الخمر كما أخرجني من مأزق مثله الأستاذ لامبير في حفلة عامة في مدينة تارار في العام الماضي بقوله: «اتركوا تلميذي وابني ولا تلحوا عليه في شرب الشمبانيا فإنني لو أذنت له، فإن دينه وتقاليد قومه لا تسمح له، ثم إنه يشرب الماء ولا يشرب النبيذ مطلقًا، هيا يا سيداتي وآنساتي تفضلن بقبول عذره ولا تحقدوا علي، فإن في عنقي أمانة هؤلاء الشبان».

وكان معنا في هذه الحفلة عبد الحليم البيلي وعبد الرحيم مصطفى وعلي فوزي وعبد الرحمن فكري وغيرهم من طلاب الحقوق بليون، ولا سيما المقيمين في رعاية الأستاذ لا بورت، وفي ذلك اليوم خطبت بالفرنسية عقب خطبة الموسيو دي بريسانسيه عضو الشيوخ عن مقاطعة الرون، وهو رئيس تحرير قسم الخارجية في جريدة الطان، وكان مصابًا بالروماتيزم في ذراعه وقد شدهما إلى صدره بقماش، فلما تكلّمتُ وفتح الله عليّ بما نال رضاه نهض الشيخ الملتحي وصفق وقال: لقد سرني خطاب هذا الشاب، حتى انحلَّ رباط يديّ.

واغرورقت عينا لامبير بالدموع.

وكانت أوجستا تعرف هذه القصة فيما تعرف عن امتناعي عن النبيذ، فكان اعتذارها المقبول إلى صحاب المطعم، وتكفل بإرسال القنينة في جردل ثلج إلى بيتنا، فقدمتها أوجستا إلى مدام بوديه، وأنعشت شيخوخة زوجها من حيث لا يحتسب.

وفي تلك الليلة سهرنا في الكازينو وحضرنا التمثيل الموسيقي، وكان القمر في السماء (١٧ و١٨ يوليو)، وسرنا في الحديقة وشعرت بحرية وسعادة لم أشعر بمثلها منذ أربع سنوات أو ثماني، وهي مناسبات الشهادتين الابتدائية والثانوية وكل منهما تدل على قضاء مرحلة من الحياة والدخول في المرحلة التالية، ولكنني أخبرت أوجستا أنني عازم على أداء امتحان الدكتوراه، وأنني مجبر على أداء امتحان المعادلة في مصر بعد عام.

وقلت لها: الآن أنا طليق ولن أترك أوروبا قبل آخر هذا العام أو نصف العام المقبل؛ ولذا أضع نفسي تحت تصرفك لتضعي خطة السفر والاستراحة والسياحة والترفيه التي استحققناها معًا، ولم أكن أعلم عندما قلت هذا الكلام أنني في شهر سبتمبر من تلك السنة نفسها سنة (١٩١٠) سأكون في باريس وبروكسيل في سبيل المؤتمر المصري

الوطني الثاني، وكنت أظن أن الدهر يسمح لي براحة ثلاثة أو أربعة أشهر على الأقل قبل استعدادي للدراسة الختامية.

طباع الشعب الفرنسي

كان الجو جميلًا في شاربونيير والفرح شاملًا والزمان مواتيًا والنجاح مؤذنًا بالسعادة المقبلة، والفرنسيون شعب مرح وأهل الطبقة الوسطى والطبقة الفقيرة يحتفظون بطباع أجدادهم وخلالهم، رجالًا وإناثًا حتى تكاد تراهم كما كانوا من مائة سنة، ومرجع الأمر في هذا خصوبة الأرض ومرح الحياة وجمال الطبيعة وبساطة العيش. نعم إنهم خفاف الأمزجة، ولكنهم شجعان وأذكياء والكثير منهم مخلص، وإنما عيبهم في ساستهم وقوادهم وضعف الإرادة أكبر عيوبهم، ثم مزاجهم الهوائي تارة والناري تارة أخرى، واستعداد الكثير منهم للجنون الوقتي كأنهم ولدوا جميعًا تحت سلطان القمر … الطيش والرعونة الغالبة في أقوالهم وأفعالهم والتقلب والتحول والتعلق السريع بما يسمونه عشقًا، والاهتمام بالأمور الظاهرة والسطحية، ولكن عندهم علماء عريقون في العلم وباحثون يستقصون الأشياء إلى نهايتها وعبقريات كونية ممتازة في كل فرع من فروع المعرفة، وعند كثير منهم وفاء، وفي أخلاقهم تناقض ولكن من يعرفهم ويعاشرهم لا يسعه إلا أن يحبهم، ويودّ لو أنه يندمج في أمتهم وأن لا يفارقهم أبدًا.

وتكاد حياتهم تكون صفحات من كتبهم، وقصصهم وأدبهم وألحانًا من موسيقاهم وتصاوير من لوحاتهم، ألا ترى إلى كتابهم ومتفننيهم يستلهمون الحياة مباشرة، سواء فيهم القديم والجديد، فهذا مونتاني يصف الحياة كما يراها ويسوق السخرية للموعظة وهو قسيس قديم ولا يبالي، ولا ينقطع هذا النوع من الرجال فيخلفه بعد مائتي سنة قسيس آخر هو إرنست رينان، لا يقل عنه دعابة حزينة ويفوقه في العلم والفطنة، ويهاجم المعتقدات صراحة ويجد من نفسه شجاعة تكفي لأن يخلع ثياب الكهنوت، ويتعرض للذم والاضطهاد ومتاعب الحياة ثم ينتج ذخائر الفلسفة والأدب ويصف المسيح — عليه السلام — بأنه ابن الإنسان نكاية فيمن يقولون: اتخذ الله ولدًا.

وهذا الشاعر الفخم والثائر الجبار ڤيكتور هيجو يؤلف كتاب الميزابل (البؤساء) وكأنه ينزح من بحر، يكتب كما يفكر وكأنه يروي ما يرى ثم ينظم الشعر الرزين الغالي في الله والملائكة والملكوت والروح والشيطان، وفي تاريخ القرون والأجيال الماضية كأنه ينظم توراة جديدة ثم يمجدّ الثورة الفرنسية ويعادي بونابرت، ويتصدى لابن

أخيه فيسلقه بألسنة حداد ويصفه بأنه نابوليون الصغير تحقيرًا لشأنه، ثم يؤلف تاريخ جريمة ويصف انقلاب الحكومة من جمهورية إلى إمبراطورية بأنه جناية على الإنسانية والوطن، ويصم كل من اشترك فيها بوصمة العار ثم هو يتعفف، ولا يذكر حياة السيدة أوچيني بسوء ولو شاء لنسف العرش الجديد بذكر مثالبها وحدها.

ثم جاء جيل جديد من الكتاب والنقاد يصفون هيجو بأنه أكبر منار في محيط الأوهام والأباطيل؛ لأن الأفكار سريعة التطور في فرنسا فهي ليست دولة ولكنها عالم بأجمعه.

أيام سعيدة وأعوام شقاوة

الأيام السعيدة التي تعقب نجاحي في الامتحان هي وحدها التي استمتعت بها وحسبتها أعيادًا يجب علي الاحتفال بها، وهي أيام معدودة في سنوات محدودة مثل ١٩٠٠ و١٩٠٧ و١٩١٠ و١٩١١ و١٩١٢، وكانت تتخللها أعوام شقاوة وعناء وعنت من الدهر فيخفف الله عني أهوال تلك السنوات بأيام غرّ محجَّلة يعقد فيها لواء الحرية والنصر لوطني مثل أيام مؤتمر جنيف سبتمبر سنة ١٩٠٩ ومؤتمر بروكسيل (١٩١٠).

ومن الآلام التي تتخلل تلك الأعوام انشغالي الدائم على رزقي أثناء دراستي، ولم يكن لي مصدر محدد معلوم إلا جهادي بقلمي وما يجود الله به علي من فيض نعمائه فتغنيني عن الناس. ومن أحزان تلك السنوات وفاة المرحومين الشيخ محمد عبده ومصطفى كامل وقاسم أمين.

وفي تلك السنة (١٩١٠) إعدام المرحوم إبراهيم ناصف الورداني، وفي نفس أيام الامتحان كانت قضيته تنظر أمام محكمة الجنايات بمصر، وكانت الصحف المصرية تحمل إلي مرافعات المحامين وفي مقدمتهم محمد علي علوبة بك، وكانت مرافعة الهلباوي لا تهزني؛ لأنني أشعر بأنه يحاول الإخلاص ويبذل أقصى الجهد ليمحو عن نفسه وصمة المرافعة ضد الفلاحين إخوته وأبنائه وآبائه الذين شادوا مجده وأغنوه وأوصلوه إلى مكانة العظماء في غفلة الزمان، ولكنني تأثرت في نبذة الوداع التي وجّهها إلى إبراهيم ناصف أمام رئيس محكمة مالطي الجنس إنجليزي النزعة اسمه ديلبرغلو، وكان في شبابه مشمولًا بوصاية الطاغية كرومر، فحاول منع الهلباوي من الاستمرار في مرافعته قائلًا له: عليك أن تتوجه بخطابك إلى المحكمة لا إلى المتهم.

وكان الهلباوي حاضر البديهة فقال له: كنت أتمنى يا سعادة المستشار أن أتوجه للمحكمة بخطبة الوداع، ولكنني لا أودعها ولكن أودع موكلي الواقف بين يديها.

وكانت جريدة الطان الباريسية تأتي ببعض أخبار المحاكمة، ومن ذلك أنها سردت الأسباب التي قرر المتهم أنه اغتال حياة بطرس باشا لأجلها وهي خمسة: توقيع معاهدة الحكم في السودان، والقوانين الاستثنائية في تقييد الحرية، وممالأة الإنجليز في أحكامهم، وشذوذ مسلكه في معاملة أعضاء الجمعية التشريعية أثناء نظر مشروع مد امتياز شركة قنال السويس، الذي كان يدافع عنه سعد زغلول ويعارضه المرحوم إسماعيل أباظة باشا إلخ ... الأسباب التي ذكرها الورداني.

وقد لاحظت أن الطان الباريسية كانت تعنى بذكر الحوادث المهمة التي تحدث في الشرق، فهي وحدها التي نشرت في العام الماضي نص الصلاة التي وجهها دنجرا قبل إعدامه في لندن لقتله سيركيرزون وايلي وطبيب هندوسي ممالئ للإنجليز، وبسبب هذه القضية قبض على ساڤاركار مؤلف كتاب الثورة الهندية الذي وصلني في مارس بجنيف، وهو ربيب وتلميذ مدام كاما المقيمة في باريس، وصديق شيامد چي كريشنا فارما صاحب مجلة إنديان سوسيولوجست، وقد قبض على ساڤاركار في لندن ونقل إلى الهند وحوكم وحكم عليه بالنفي المؤبد في جزيرة لاكاديف مالا ديف المشهورة بسوء جوها وفظاعة طقسها، فنقص وزنه في شهرين عشرين رطلًا.

وفي تلك الصلاة التي وجهها دنجرا إلى أمه الهند «باندي ماترام» تمنَّى أن يموت (وقد شنق فعلًا)، ثم يبعث مرات لا عدد لها (على مذهب التناسخ البوذي)، وفي كل مرة يتاح له أن يقتل عددًا من أعداء وطنه، ونشرتها جريدة الطان وقرأتها في جريدة ديلي ميل، ولكن علمت أن الشيخ عبد العزيز جاويش حكم عليه في مصر بالسجن ستة أشهر؛ لأنه كتب كلمة في اللواء يوم إعدام دنجرا عنوانها «اليوم يعدم دنجرا»، وكان وكيل إنجلترا في مصر حينذاك المدعو الدون جورست صديق الخديوي عباس حلمي.

كانت مثل هذه الحوادث تعكر صفاء أيامي، ولكنها تستحثني على المثابرة والمصابرة حتى أتم دراستي وأقوم بنصيب أوفى وأوفر في خدمة وطني.

وفي تلك السنة (١٩١٠) في فبراير عندما قتل بطرس غالي خطب سير إدوارد جراي خطبة في مجلس العموم يتهم مصر بالتعصب الديني، وانتشار المذاهب الثورية والفوضوية، فوفقني الله لكتابة خطاب مفتوح إلى أعضاء البرلمان الإنجليزي أرسلت منه ألف نسخة مطبوعة في ليون، ورددت فيه على هذه التهم ووصفت عمل الورداني بأنه

عمل وطني سياسي فردي لا علاقة له بالدين ولا بالجمعيات السرية، ونشر هذا الكتاب الإنجليزي بترجمته العربية في العددين الأول والثاني لجريدة «العلم» التي حلت محل جريدة اللواء.

ولكن هذه الأعمال لم تكن كافية في نظري، وكنت أريد أن يزيدني الله علمًا وقوة لأقوم بنصيب أوفر، ولم يكن نشر جريدتي إيجيبت وصوت الشعب بكاف كذلك مع أنني كنت طالبًا وقانون وزارة المعارف الفرنسية يحرم الاشتغال بالسياسة على الطلاب في جامعات فرنسا، وقد لقيت عنتًا من موسيو إريستيد بريان وزير الداخلية، ومن دومرج وزير المعارف ومن عميد الكلية الأستاذ فلورير، ولكنه كان أقلهم تشددًا وأكثرهم فهمًا؛ ولأنني ذكرته بأنه ألزاسي الوطن والمولد والنشأة (وكان ذلك الحديث في بيته)، وأن كراهيتي للاحتلال البريطاني تشبه كراهيته لاحتلال ألمانيا للألزاس واللورين مسقط رأسه.

ليالي الروح الحائر

وكان من أثر انفعالي بتلك الحوادث أنني اتجهت في إنتاجي إلى نوع جديد من النثر هو الذي ظهر في «ليالي الروح الحائر»، ولا سيما مصرع طيبريوس أحد طغاة رومه وجوديت قاتلة هولفرن، وقد جاء في حقها سفر في التوراة من الأسفار المحذوفة باسم «يهوديت»، وكنت أجمع إخواني المصريين وأدعوهم لسماع تلك النبذ التي كنت أعدها تجديدًا في الأدب.

سياحة إيطاليا

١

أوهام ومخاوف

حاولت أن أستريح عقيب الامتحان في شاربونيير، ولكن القيظ اشتد كثيرًا في الأسبوع الثالث من يوليو، فسألت أوجستا عن المكان الذي يصلح لنا مصيفًا وهل تود أن نعود إلى جنيف أو لوزان أو إلى مكان في سويسرا أو في سافوا، وفيها جبال وغابات وحراج وأنهار وبحيرات وحقول وكل ما تشتهي النفس. فقالت: إنها تفضل لأجلي أن نرحل إلى إيطاليا وأن يكون مقصدنا الأول، شواطئ البحر الأبيض في جوار جنوا وأنها تعرف قرى صغيرة تعد دراري على شاطئ البحر مثل پيلي وبرجامو وراپالو، فوافقتها وودعنا شاربونيير ومدام بوديه وزوجها وموسيو بيلهوم، وقد أكرموا وفادتنا ووعدناهم بالعودة إليهم.

وتخليت في ذلك اليوم عن كثير من الصحف والمجلات لثقل وزنها، ونفقة نقلها بالسكة الحديد والحمالين، وسافرنا من محطة بيراس إلى حدود إيطاليا، وأظنها محطة مودان وركبنا قطار باريس السريع الذي يهدف إلى رومه، فبلغنا جنوا بعد الظهر اليوم الثاني ونزلنا في فندق قريب من المحطة، وكانت رحلة جميلة تتخللها لمحات من جمال فرنسا وإيطاليا وشاطئ البحر أحيانًا، ولكنني شعرت في أعماق نفسي أننا مقبلان على المجهول وقد يكون فيه أخطار.

ولم أفاتح السيدة في هذا الأمر لفرط سرورها لإقبالها على إيطاليا، ولرغبتها في الترويح عن نفسها بعد ما عانت في سويسرا نحوًا من عام، وأرجعت حالتي النفسية وأوهامي إلى مزاجي العصبي ومخاوف المشتغلين بالدراسة والأدب أمثالي، فإنهم يطلون

على الحياة بمنظار قاتم وكثيرًا ما يتوقعون خيرًا وشرًّا فلا يأتي هذا ولا يقع ذلك، ومن بين تلك المخاوف ما كان يصيبني من حداثة سني كلما شرعت في طبع كتاب مثل في «بيوت الناس» و«تحرير مصر»، وكنت أتوهم دائمًا أنني سأموت فجأة قبل أن أرى نسخة مطبوعة من هذين الكتابين، وقد رأيت أن هذه المخاوف لم تغادرني حتى بعد أن تقدمت السن بي، فكانت تعاودني تلك الحال أثناء إعداد كتبي الأخرى للطبع، ولا سيما التي أجعل لها في وهمي شأنًا خاصًّا مثل «حياة الشرق» و«تاريخ فلاسفة الإسلام» و«الشهاب الراصد». وما كان يصرفني عن الأوهام إلا أن أعدّ نفقات الطبع كاملة، وأكتب بيانًا أشبه بالوصية ليشرف أحد أصدقائي على صدور الكتاب. وبالجملة قد دلني طول الاختبار مع نفسي أنها مفطورة على الحزن والطيرة، وانتظار الموت وتوقع الآلام ولكن الله كان يلطف بي في كل حال، وكان هذا الشعور ينتابني قبيل الامتحانات المهمة والأسفار ذوات النتائج الحاسمة في حياتي؛ ولهذا صرفت من ذهني هذه المخاوف التي يزيدها سفر الليل ووقع حركة العجلات وأرواح الظلام وأشباحه التي تبدو خلال النوافذ، فترسم لي الظلمة من الأشجار والتلال أقزامًا وعمالقة، ومن كل عود أو سلك للبرق صورة مزعجة أو فكرة تدعو إلى الطيرة.

أما أوجستا فكانت أثناء تلك الرحلة تنام في ركن ركين من ديوان المركبة، وتتيقظ أحيانًا لتشرب ماءً أو لتصفّف شعرها أو لتلقي نظرة على وجهها في المرآة كعادة بنات حواء، ثم تسألني في رفق إن كنت تعبًا أو مستريحًا أو في حاجة إلى النوم.

جنوا

وعندما بلغنا جنوا وجدنا القيظ بها شديدًا فتغدينا ثم بدأنا رحلة من أجمل الرحلات على شاطئ البحر في ضواحيها، وللبحر في تلك الناحية جمال وجلال، وطفنا بالقرى وقد تحولت كلها مصايف فلم نجد مسكنًا ولا مقرًّا، وأخطأنا مرة خطأً جسيمًا ودخلنا بيتًا فخمًا له حديقة غناء توهمت أوجستا أنه فندق، وقد استبنت الخطأ منذ وطأته أقدامنا، فتقدم إلينا خدم لهم كرامة وليس عليهم سيما خدم الفنادق، وسألونا في ظرف وأدب إن كنا نريد مقابلة جناب الكونت فقلنا: نعم لعلمي بأن ألقاب الكونتات والبارونات رخيصة جدًّا في إيطاليا وأن معظمها موروث وبعضها تبيعه الكنسية.

وما كان أعظم دهشتنا عندما حضر للقائنا كونت حقيقي له كل مظاهر لقبه وآداب أمثاله، فرويت له القصة وقلت له: لقد خدعنا يا حضرة الكونت وزاد في خديعتنا

تعب السفر يومًا وليلة فتفضل بقبول عذرنا، فابتسم الرجل وقال: هل أدلكما على فندق جميل في بقعة جميلة حقًّا؟ قلت: نعم، قال: جراند أوتيل راپالو، وهو لا يبعد عن هنا إلا بضع خطوات، وشكرناه وخرجنا نتعثر في أذيال الخجل من الخطأ في الذوق، ولكن الرجل ظن أنَّا من أهل روسيا وهم مشهورون بجفاء طباعهم وعدم تعودهم مظاهر النعمة والرفاهية، ولعلهم يقضون بعض أعمارهم في السجون فلا عجب إذا اتخذوا بيته فندقًا! وكنت — وأنا أغادر بيت الرجل وأمامي أوجستا وحولنا الخدم ينحنون لتوديعنا إكرامًا لمقام مولاهم الذي استقبلنا — أكاد أذوب خجلًا.

وقصدنا إلى فندق راپالو واتخذنا غرفة مطلة على البحر، وكان أمامنا منظر لا يعدله منظر وتحتنا كازينو ومطعم ومرقص تصعد إلينا موسيقاه وضوضاؤه مع صوت الأمواج المنعطفة على الشاطئ، ويهب علينا نسيم منعش، ولكن هذه الليلة نغَّصها مرض جلدي أصاب السيدة فجأة، وسبب لها انتشار حرارة شديدة في سائر بدنها ودمامل صغيرة، فخشيتْ أن تكون عدوى من القطار وأخذت تبكي وتندب حظها، فاستغثنا بإدارة الفندق فبعثوا إلينا بطبيب كهل اختصاصي في أمراض الجلد، فلما فحصها ابتسم وقال: pella molta delicata أي إن الجلد شديد الرقة والليونة وعلاجه حمام دافئ والتدليك بعصير الليمون. فسرت السيدة من هذا الثناء أكثر مما سرت من هوان المرض.

وأخذت حمامها ودلكت دماملها فاختفت ونامت نومًا هادئًا، وفي الصباح رحلنا إلى شاطئ بيلي وفيه فندق باسم بلاڤيستا، وقد عودني الزمن أن كل مكان يوصف بالمنظر الجميل بلافيستا فلا يكون مقامي فيه سعيدًا. وكان هذا الفندق آية في حسن الموقع وهو يطل على البحر وعلى خليج چنوا وعلى حديقة غناء، ولكن أصحاب المكان من أحط لصوص الفنادق، ومعظم ضيوفهم من الإنجليز والأمريكان، فدرج صاحب الفندق وأولاده وأصهاره الذين يشاركونه في العمل والخدمة على استغلال الضيوف مع الرخاء الذي كان سائدًا في تلك الأيام في كل أنحاء أوروبا. فقد كانت أجور هذا الفندق مرتفعة وكان طعامه رديئًا وخدمته معيبة. ولكننا تجملنا بالصبر وتحملنا فظاظة الطليان وطمعهم الأشعبي حيال ما كنا نصيب من متعة النفس وجمال المنظر. ولما كان الطعام لا يكفينا كنا نكمل نقصه بشراء الفواكه وأنواع الجبن والزبد والمربى، ونعمل الشاي لأنفسنا في غرفتنا، وكانت سفرة هؤلاء الأوغاد لا تتجاوز المكرونة والباذنجان الضلمة وبضع رقائق من لحم البقر المتناهي في السن، واسمه عند القصابين «الربع القافل» أي: الذي بلغ من الكبر عتيًّا.

كتب رينان

وكنا في كل صباح نستنقع في ماء البحر في أحد الحمامات المنتشرة على طول الشاطئ، وأذكر في هذه الأيام أنني تعلقت بقراءة كتب رينان «تاريخ شعب بني إسرائيل» و«حياة المسيح»، ولست أدري سبب هذا الشغف برينان في تلك الفترة، ولكن أسلوب الرجل سحرني وتاريخ حياته وشجاعته في حريته عندما خلع ثياب الكهنوت بهرتني، وأعجبني منه أنه قبل أن يكتب حياة المسيح وأعمال الرسل، ساح في الأرض المقدسة ومعه أخته هنريت التي لقيت حتفها في تلك البلاد، وكانت أوجستا تحفظ صلاته إلى منرفا إلهة الحكمة والجمال عند الأقدمين عن ظهر قلب، وقد ألقاها الرجل عند زيارته الأكروبول بأثينا.

وما أزل أذكر بريق عينيها عندما كانت تقرأ لي أحيانًا في كتب رينان، ولا سيما تاريخ شعب إسرائيل.

وفي يوم من الأيام ونحن جالسان في الشرفة المطلة على البحر وحديقة الفندق، وأقرأ حياة المسيح بذلك الأسلوب الفاتن الساحر قلت لها: إن هذا الكتاب خير من الأناجيل الأربعة عند النصارى، ولو كانوا يعقلون لرفعوا رينان إلى مقام الرسل الذين وضعوا الأناجيل الأربعة بدلًا من تكفيره واضطهاده.

وقلت لها: إنني أحب رينان؛ لأنه ألف كتابًا عن ابن رشد فيلسوف الإسلام في الأندلس وكنت قرأته بالعربي في ترجمة المأسوف عليه فرح أنطون منذ بضع سنين، وقام بالرد عليه المرحوم محمد عبده في مجلة المنار، وأعلم أن رينان احتفى بجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في باريس سنة ١٨٨٣ عندما كانا في باريس. وذكرت لها هذه القصة وأن نقطة الخلاف بين المفتي وفرح أنطون أن أنطون استنتج من كتاب رينان عن ابن رشد أن الإسلام أضيق عطنًا بالفلسفة وحرية الفكر من النصرانية، فرد عليه المفتي ردًّا مفحمًا ذاكرًا قتل فلاسفة النصارى بأمر الكنيسة ولا سيما برونو وأمثاله ومحاكم التفتيش. فاهتمت أوجستا بهذه المسألة الجديدة بالنسبة لها وقالت: إذن عندكم فلاسفة مسلمون؟ فابتسمتُ وذكرت لها أسماء عشرين فيلسوفًا في الشرق والغرب أمثال ابن سيناء وابن باجة والفارابي وغيرهم، فقالت لي: إن النصارى يضطهدون الحرية في كل مكان وإن اضطهادهم اليهود في روسيا لا مثيل له، فإنهم يصنعون في كل عام ما يسمى پوجروم وهو قتل اليهود بالجملة وجلدهم وسجنهم واغتصاب فتياتهم، ونهب أموالهم باسم الكنيسة الأرثوذكسية، تزداد هذه الفتنة عند

عيد الفصح إذ يشيعون كذبًا وباطلًا أن اليهود يذبحون طفلًا مسيحيًّا؛ ليمزجوا دمه بالفطير ويعملونه ضحية العيد ويدبرون هذه المكيدة في بلاد عديدة وفي المدن التي يكثر فيها اليهود، ولا سيما أوديسا وبادولي ومويلف عاصمة مقاطعتنا.

وقالت: إن اليهود أبرياء من هذه التهمة؛ لأن دينهم يحرم عليهم النجاسة وإهراق الدماء.

فقلت لها: أما النجاسة فنعم ولا سيما في الطهارة والاستحمام وانتقاء الطعام وإحسان الذبح والتمييز بين الكاشير والطاريف، فابتسمت وقالت: أنت تعرف ذلك، قلت لها: ولم لا وفي بلادنا كثير من اليهود المسالمين والإسلام في الأندلس وتركيا وسائر بقاع الأرض فتح لهم صدره، وأمنَّهم على حياتهم وأموالهم وهم ما يزالون يعتبرون المسلمين «جوييم» أي: غرباء، فدهشت من معرفتي بعض كلمات عبرية.

ثم قالت: لا شك أنك منوَّر لا تدخل إلى ذهنك تلك الخزعبلات التي تذيعها الكنيسة للانتقام من اليهود، ثم إن عيسى المسيح لم يكن إلا يهوديًّا من أبناء هذا الشعب وقد ألَّهه النصارى هو وأمه وأضافوا لهما أبًّا ووالدًا مما ينافي العقل والذوق السليم، فإذا كانوا اتخذوا امرأة وولدها إلهين فكيف يعذبون قومهما إلى آخر الدهر؟ فضحكت وقلت: لأن هؤلاء القوم — في اعتقادهم — صلبوا ربهم.

قالت: ألم يقولوا: إنه قدم نفسه للصليب مختارًا لتخليص العالم. فلم أعرف كيف أجيب على نقدها الصحيح.

وقلت لها: إنك تدافعين بحرارة عن وجهة نظر المسلمين، ويشمل دفاعك شعب إسرائيل فقالت لي: نحن في روسيا أحرار الفكر ولا نكترث للأديان؛ لأن التحرر من العبودية بدأ عندنا بالتحرر من المعتقدات.

قلت: حتى عند تولستوي؟ أجابت: تولستوي رجل فذ وهو يعامل الأديان كلها بالمساواة، حتى كتب رسالة في الثناء على نبي المسلمين وحكمته وذكر بعض أحاديثه.

قلت لها: وإذن تشعرين بالسعادة ما دمت بعيدة عن روسيا المتعصبة لدينها.

قالت: ومتعصبة لحكمها الظالم، فإن القيصرية حليفة الأرثوذوكسية، وإذا قدر للقيصر أن يزول هو وأسرته لا بد أن تضعف الكنيسة الأرثوذوكسية وربما تزول من الوجود.

قلت: يبقى شعبك بدون دين.

قالت: وهذه فرنسا أثناء الثورة عبدت الكائن الأول، وجعل لها روبزپيير دينًا جديدًا، وقد درجوا من ذلك العهد على حرية الفكر. وهنا في إيطاليا تجد في كل ركن

وزاوية كنيسة أو بيعة أو تمثالًا للعذراء والطفل، ولكن يندر أن تجد مسيحيًّا يعتقد حقًّا بدينه.

جولة في جنوا

وقالت: وبهذه المناسبة ينبغي لنا أن نزور كنائس جنوا الشهيرة، ففيها تحف كثيرة ولا سيما التصاوير من صنع الأساتذة الأوائل.

وفي اليوم التالي خرجنا لتلك الزيارة ورأينا اللوحات الباهرة والمباني الفخمة للمعابد وبعض قصور جنوى القديمة، ثم ألحت عليّ في زيارة الكامپوسانتو وهو قصر الموتى، وقد رأينا هناك من آيات الفن وبراعة التصوير وحذق المثالين والنحاتين والحفارين في المرمر ما يدهش الألباب ويبهر الأبصار ويذهل العقول.

فلكل قبر تمثال لصاحبه، فرأينا العرائس مزينات للزفاف والقباطنة في فلكهم المشحون والقواد يشهرون سيوفهم ويخوضون غمار المعارك، كل ذلك مرسومًا في المرمر والوجوه والأيدي وسائر الأعضاء ناطقة شاخصة كأنها أحياء. إن تلك المناظر تبلبل الأفكار وتسري لرؤيتها رعدة خوف وهزة إعجاب، ولم أرتجف من منظر مثل ما رأيت في كامپو سانتو في جنوى، فإنه يفوق مدافن نابولي وروما وتكاد الصور والأشباح تنطق وتحل فيها أرواح أصحابها.

وكانت أوجستا شديدة الانفعال وقالت لي: بقدر سروري لمشاهدتك هذه الأشياء الجميلة، أخشى أن تترك أثرًا سيئًا في نفسك؛ لأن دينكم ودين اليهود يحرم هذه الأشياء، قلت لها: لا أعرف عن عقيدة اليهود في التصاوير والتهاويل شيئًا، ولكن عن ديننا أقول لك: إن التحريم مقصور على الأصنام التي تتخذ للعبادة، أما التماثيل والتصاوير فمباحة؛ لأنها من الفنون الجميلة وكذلك الموسيقى والغناء والرقص والتمثيل.

قالت: أحب أن أرى مصر وأزور آثارها وأمشي في طرق القاهرة وأشرب من ماء النيل؛ لأني قرأت أن من يشرب من ماء النيل يعود إليه. قلت لها: من يدري قد تشربين وقد تعودين إلى ضفافه من يدري.

وجلسنا في الجالاريا وهي أفخم أسواق جنوى وأزخرها بالبضائع الحديثة وأثمنها، وفيها أفخر المقاهي ومشارب المثلوجات ودكاكين الحلوى والأقمشة النفيسة والتحف والألطاف، وجسنا خلال الشوارع في الأحياء الغنية والحارات والأزقة في الأحياء الفقيرة، ولمحنا تماثيل لكريستوف كولومب وأندريا دوريا وجوزيف متزيني وأذكرتني المدينة،

وخليجها الفخم بنابولي والبندقية في وقت واحد، ولم يكن ينغص إقامتنا إلا فظاظة الفندقي وأهله وجشعهم وبخلهم ولؤمهم.

وزرنا أفخم الكنائس ومتحف الصور وفيه لوحات عظيمة من الأساتذة الأقدمين، وكنت أعرض عنها معتذرًا بأنني بعد أن زرت اللوڤر ولكسمبورج وناسونال جالري، ومتاحف روما والفاتيكان لا أحب أن أزور متحفًا إلا إذا كنت قرأت عن محتوياته كلامًا كثيرًا من آراء النقاد، وأضنّ بهذا الوقت أن يضيع دون أن أقرأ تاريخ المصوّر وصورته ورأي الباحثين في فنه، وإلا فأكون كالقروي الذي يزور العاصمة أو البندر، وينتقل في بلاهة وغفلة بين الأسواق.

فقالت لي: هل زرت فلورنس (فيرنزه)؟

قلت: كلا ... قالت لي: اعذرني أن أقول لك: إنك لم تر شيئًا في الفنون إنك طفت برومه وبادوا وبولونيا والبندقية وباريس ولندن قبل اليوم، ولكنك لم تطف كما قلت كالقرويين في البندر وأنا طفت كالإنجليز والأمريكان.

قلت: هذا أشد ألمًا وأفدح مسبة؛ لأن القروي والفلاح والريفي معذورون لجهالتهم، أما السكسوني سواء أكان إنجليزيًّا أو أمريكيًّا فلا عذر له؛ لأنه متعلم أو شبه متعلم. قالت: سوف ترى فيرنزه وسوف تحب أن تزور ميونيخ وبرلين وفينيسا وأحب أن أكون في صحبتك في باريس لنزور اللوڤر ولكسمبورج معًا.

وقد أفاضت في الكلام على الفن فإذا هي أملك لناصيته منها في الموسيقى والأدب، وهذا لكثرة ما ساحت وسافرت بين العواصم بقصد التعلم والتنور وكثرة ما قرأت من الكتب. وكان معنا كتاب متزيني الذي صحبني في يوم ١٩ مارس وتحمل معي المطر والبرد وهطول الأمواه، كأفواه القرب في ذلك اليوم الذي لا ينسى فأريتها جلده، وقد تلطخت من أثر ذلك اليوم ولم أحاول إزالتها لتبقى ذكرى لما عانيت قبل لقائها، فقالت: ها نحن في مسقط رأس متزيني نفسه وقد جذبتنا روحه إلى وطنه ورأينا تمثاله، إن مثل هذه المصادفات في الحياة لها أثر بالغ في نفس الإنسان، ويظن الناس أنها مصادفات ولكنني أعتقد أنها خطط مرسومة وثابتة ولا بد من حدوثها وتنفيذها، حتى خطواتنا معدودة ومحسوبة.

فقلت: تعتقدين في القضاء والقدر؟

قالت: كما يعتقد عمر الخيام.

مكيدة

وحدث يومًا حادث يدل على غدر الطليان، فإننا كنا نستحم في حمام بحري تشرف عليه عجوز إيطالية حجمرش دردبيس، وكانت أوجستا تعطف على شيخوختها وتدفع أجرها مياومة وتزيدها عطاء وتتحدث إليها بالإيطالية. ففي أحد الأيام احتفت بنا المرأة فوق عادتها ودعتنا إلى شرب الشاي، وتلكأت في إعداد الشاي فعلّلنا ذلك بشيخوختها وفرحها بنا، ولشدّ ما كنا مخدوعين، فلم يكن تلكؤ هذه المرأة الغادرة التي ذكرتنا بعجائز الفنادق والحانات؛ إلا لأن مؤجريها ومسخريها لم يصلوا بعد. وإننا لنستعد لشرب الشاي ونشكر المرأة ونعدّ لها نفحة وإذا برجال من البوليس العلني والسري يدهمون المكان ويجلسون حولنا وأخذوا يتهامسون، وأخرج بعضهم ما يشبه التصاوير ويطيلون النظر إلينا، فكان في مسلكهم ما يلفت نظرنا، ولكننا لم نكف عن الحديث وكففنا عن الشاي الحرام الذي صنعته المرأة لنا مكيدة لا كرمًا وغدرًا لا وفاءً وطمعًا في كسب مدنس لا شكرًا، وقد تقدم إلينا رجل مهذب من الجماعة وحيّانا وقال بفرنسية فصيحة معذرة: يا سيدتي وسيدي لقد حدث سوء ظن وسوء فهم فقد وصفتكما لنا صاحبة الحمام بما يكاد ينطبق على رجل وامرأة من الروس تبحث عنهما الحكومة، ولكنها أخطأت خطأ جسيمًا ونحن نعتذر إليكما، نعمّا صباحًا ووداعًا يا سيدتي، فأجابت أوجستا وقالت: لم نلحظ شيئًا مما تذكر يا سيدي وإنْ كنا فهمنا الآن، ويسرنا أن يقوم كل مواطن بأداء واجبه نحو الأمن العام.

وتسلل رجال الشرطة في الفترة التي كان رئيسهم يخاطبنا، وقمنا في أثرهم ورأينا العجوز في طريقنا تكاد تذوب خجلًا مصطنعًا وقد شبكت أناملها علامة الأسى، كما يصنع الحزانى والثاكلين، ولا شك أن ضميرها لم يؤنبها ولكن الحزن برح بها؛ لأنها فقدت الجائزة المنتظرة التي فرت من يدها، فمرت أوجستا رافعة رأسها وألقت إليها ببضعة صلادي (نقود من نحاس) وقالت لها بالإيطالية: حساب الشاي. وخرجنا وكانت أوجستا منفعلة وقالت: كانت المرأة تود تسليمنا لو كنا نحن المقصودين أو لو أن رجال الشرطة أخطئوا في المقارنة بين وجهينا وبين التصاوير المحفوظة لديهم. فقلت لها: هذه إيطاليا وهذه جنوى بلد المافيا والكاربو ناري وموطن المؤامرات وأحزاب الفوضى واليد السوداء والوجوه الصفراء إلى آخر ما تعلمين فلا تغضبي. فقالت: لست غاضبة ولكن أشكر الله على أننا لم نذهب فريسة فتنة غادرة وغلطة جاسوس أو حماسة مخبر يريد الترقي على حساب الغرباء الأبرياء.

٢

إلى فلورنسا

وقصدنا إلى المدينة فسرنا في طرقها وتغدّينا في أحد مطاعم الجلاريا، وعقدنا العزم على الارتحال عن جنوى في عصر ذلك النهار. فلما عدنا إلى الفندق حزمنا أمتعتنا وربطنا حقائبنا ودفعنا حسابنا، وقصدنا إلى المحطة ولم يكن موعد القطار قد حل ولكننا وجدنا قطارًا فخمًا يقف بضع دقائق، فتبوأنا مقاعدنا وصففنا حاجتنا وانتوينا أن نأخذ تذاكرنا في القطار من بيلي حيث كنا إلى محطة جنوى، وفي جنوى نأخذ تذاكرنا إلى ... وقد جلسنا في القطار مدة طويلة وقطعنا مسافة بعيدة ولم يمر بنا رقيب ولا مفتش، وكانت مقاعد القطار مريحة جدًّا وهي مسجفة بالمخمل ومزدانة بالحرير، وأرض المركبات مفروشة بالسجاد ولم نر قطارًا مثله في إيطاليا أو في فرنسا. فقالت لي أوجستا: إنه قطار خاص يصل إلى برلين مباشرة ولكن لا بد أن يقف في محطة جنوى، وأن هذا الزخرف وتلك العناية وتلك النظافة والزينة لا تكون إلا في القطر الألمانية السريعة. وبعد ساعة وصلنا إلى محطة جنوى ووقف القطار ولم نر أحدًا فترجلنا وحمل الحمالون متاعنا، وصحبت أوجستا إلى غرفة الانتظار وذهبت لأخذ التذاكر ولم تسألني عن الجهة التي نقصد إليها. وكنت قد صممت على اختيار البلد؛ لأفاجئها باختياري مفاجأة سارة.

وكان علينا أن ننتظر ساعة فاشتريت فاكهة وخبزًا ولحمًا باردًا وقنينة من الماء المعدني لها وجبنًا وشكولاته، وبعض الصحف الإيطالية والإنجليزية والفرنسية، ثم عدت إليها وقد قلقت لغيبتي فضحكت من مخاوفها ودعوتها إلى شرب القهوة بمقصف المحطة وقلت لها: إن الطعام باق إلى القطار.

وبعد نصف ساعة تقدمنا إلى أفريز القطار فوجدنا مركبة عليها كلمتان (جنوڤا — فيرنزه) فقالت: إلى أين نذهب؟ قلت: إلى المكان الذي تنقلنا إليه هذه المركبة فسرّت ودنت مني وقالت: إني أقبلك ولا حرج عليّ فإن التقبيل في المحطات مباح لكثرة ما فيها من فراق ولقاء، وتعلم هذا الدرس وأوصيك بانتهاز الفرص ... وضحكنا وأخذنا مكاننا في مركبة من الدرجة الثانية، وسألنا أحد الموظفين عن موعد وصول القطار إلى فلورنس، فأجاب الساعة الرابعة عشرة يقصد الساعة الثانية بعد نصف الليل.

وقد وجدنا مقاعد المركبة مريحة جدًّا بحيث تستطيع أوجستا أن تضطجع إذا شاءت، وكنا ما زلنا بعد الغروب بقليل فبدأنا بالحديث وتناول الطعام إلى أن يحين وقت رقادها وأبقى ساهرًا على راحتها.

فقالت لي: إنها تشعر بتأنيب الضمير إذ كبدتني نفقاتها في الحل والترحال، ولم أكتف بما بذلته في سويسرا وفرنسا بل واصلت الرحلة إلى إيطاليا وأن مواردي محدودة، وأنني لم أعمل حسابها، فغضبت غضبًا صادقًا ولم أتغاضب وقلت لها: إنك تنغصين الساعات القليلة التي أعدّ نفسي فيها سعيدًا وتختلسين تحقيق أحلامي بهذه الدعوى، وإنني إنْ لم أعلم أن أمورنا مدبرة في السماء لم أكن لأتحرك من مكاني في قيظ شاربونيير أو جحيم ليون المحرقة، وخير لها ولي أن نكف عن هذا الحديث وأن تشاركني بهجتي في سفري إلى تلك المدينة الخالدة المشهورة بربيعها وجمالها. فقالت لي: أعدك بسداد ديونك علي. فقلت لها: بل أنا المدين لك بصحبتك وثقافتك وحسن تصريفك الأمور وفراق ابنك وهو محتاج إلى عنايتك. فاغرورقت عيناها بالدموع وقالت: لو لم أكن معك لمتّ كمدًا من الوحدة ومن عائلة جاي التي تستغل عواطف الأمومة في قلبي، فقلت لها: من الخير أن نكف معًا عن الحديث في هذا حتى الصباح. فانتقلنا إلى كلام آخر وعرضنا صورة جيراننا في فندق بيلي، وكانوا أسرة من الأمريكان أغنياء الصناعة الذين يقضون أعمارهم في السياحة، وذكرتني بكبيرة السيدات فيهم وهي أشبه المخلوقات بالفرس، وجه فرس وفمها ورقبتها وصوتها، وكانت ضحكتها تشبه الصهيل وتعبّ النبيذ الإيطالي عبًّا، وتتكلم بلغة البلاد بلهجة أمريكية مضحكة، وتحدثنا عن أصحاب الفندق وكيف حسبوا علينا الحمام بالماء البارد (دوش) بفرنك وغسيل القميص بفرنكين وكي الجوارب بفرنك وأجرة الفوطة على المائدة بنصف فرنك والصابونة بفرنكين وصحن اللحم بخمسة فرنكات ولم تجد معهم مناقشة ولا مساومة.

فقالت: إن الأمريكان والإنجليز المنكودين أفسدوا طباعهم وأطمعوهم في خلق الله، فإنهم لا يبالون بالمال ولم يتعبوا في جمعه ولا ينفقونه في بلادهم ولا يسيحون للعلم والمعرفة، وإنما ليقولوا: إنهم زاروا أوروبا ولا سيما إيطاليا وأنهم يحبون الإباحية التي يعرفون أوكارها في نابولي ورومه. وقد دمغهم مارك توين بكتابه «الأبرار الأبرياء يسيحون خارج بلادهم» ”Innocents abroad“، وقرأنا بعض الصحف ورجوتها أن تنقل لي بعض ما تكتبه الصحف الإيطالية، وكنت اشتريت مصادفة جريدة باسم «مارزوكو»، وظهر أنها أسبوعية أدبية تظهر في فلورنس، فراقتها جدًّا لأنها تكتب في

الأدب والفنون والنقد، فنقلت لي بعض بحوثها، فألفيتها أشبه شيء بجريدة مصباح الشرق وعليها حلاوة في الأسلوب والديباجة وجمال في الطبع والحجم وحسن الطبع، فوعدتها أن تداوم قراءتها في مصدرها وهو فيرنزه.

وكان الظلام أسدل ستوره فلم نر شيئًا من جمال الطريق، وخفنا أننا إذا وصلنا إلى محطة كبيرة مثل ميلانو وتورينو يزحمنا المسافرون، فنفت هذا الوهم وقالت: إنها سوف تتمدد وأغطيها بغطاء من الصوف وأن ألزم أنا ركنًا وأتناوم كلما أقبلنا على محطة كبرى، فإن هذا القطار لا يقف إلا فيها وأهل البلاد يخجلون أن يقلقوا سيدة نائمة أو رجلًا متعبًا في ركن، وقد أخذ الكرى بمعاقد أجفانه، وعندنا قائمة ببيان المحطات ومواعيد الوصول إليها.

والعجيب في هذه البلاد أن كوميساري يكاد لا يريك وجهه؛ لأن أحدًا منهم لا يتهم مسافرًا بالانفلات واستغلال الحكومة بالباطل، ولا يقبل على كرامته أن يركب قطارًا بغير أجر كما هي الحال في بعض بلاد الشرق.

ثم مددنا السماط وألفينا مائدة متحركة لاصقة بالنافذة، فأكلنا وشربنا وتذوقنا الفاكهة والجبن وغسلنا أيادينا في مكان بالغ النظافة.

ثم عدنا ولم يكن أحدنا يدخن للأسف أو لحسن الحظ، ولكنني شعرت بميل شديد إلى لفيفة من طباق على غير عادتي، وقلت لها بين الدهشة والحياء، فضحكت وقالت لي: هذا جو إيطاليا وخاطر شيطاني فاطرده. فضحكنا وقالت: العجب أنك من مصر ولا تدخن سيجارة مصرية ولها شهرة عالمية، فقلت: بل الدخان التركي والدخان الروسي أشهر، نحن اشتهرنا بصنع السيجارة ولفِّها ولصق ورقها ولكنكم معشر الروس اشتهرتم بزرع الطباق وتجويده، فقالت: حقك أن تدهش من روسية لا تدخن، فإن كل أصدقائي وصديقاتي في موسكو وبطرسبرج وأوديسا يدخنون، حتى أخواتي السيدات يكثرن منه، أما أزواجهن فحدثْ ولا تحرج، قلت لها: ولكنني لا أحب السيجارة الصغيرة البيضاء، فإنها لا تكفي كيفي وأتحدث عن سيجار هاڤانا، وقد سبق لي أن دخنته في هولاندا لرخصه وجودته وهو رخيص؛ لأنه يرد من جاوا ودخلت إنجلترا بصندوق ملآن سيجارًا، فسألني عامل الجمرك إن كان لاستعمالي الخاص أو للتجارة، فابتسمت وابتسم ووضع على حقيبتي علامة المرور؛ لأنني صارحته قبل أن يفتحها بما تحوي. ووجدت السيجار الواحد في لندن بثمن الصندوق كله.

وتكلمنا عن راسين وپيدو فتغير وجهها فقلت لها: لقد تعمدت أن أكلمك عنهم وأنني أشكرهم؛ لأنهم جمعوا بيننا، وأعذرهم؛ لأن ابنتهم كانت شديدة الغيرة منك وقد

أشرت عليّ أن لا أظهر الحفاوة بك، وأن أتوجه إليها بمعظم الحديث لأصرف غيظها عنك، وهذا دليل على شعورك بحرج موقفنا معهم، قالت: كل هذا مقبول ومفهوم ولكن العجوز كانت قاسية، وطالما وخزتني بأقسى من وخز المسامير في قلبي. لقد قالت لي يومًا: ألا تخافين الله يا سيدتي لقد أرغمت هذا الشاب الصغير الوسيم على أن يلتحي وهو في نضارة الصبي ليبدو أكبر سنًّا مما هو خشية أن تتهمي بعشق شاب يصغرك سنًّا ولو ببضع سنين، إنه عندما عاودته العافية وامتلأ وجهه صار وسيمًا وعاوده الصبا والحسن، فكان يخلق بك أن تشيري عليه أن يحلق ذقنه إن كان ملتحيًا لا أن تحثِّيه على تنمية الشعر الخشن في وجهه الناعم، لقد همت ابنتي جان أن تنهاه عن ذلك، ولكنها خجلت وتعهدت أنا بمفاتحتك في هذا الأمر لتشيري عليه بالعدول، لقد ذهب زمن اللحى والشوارب وصار الكهول يظهرون بمظهر الشباب، وأنت تجعلين من صديقك كهلًا خشن الوجه، وهو يكاد يكون أمرد لا نبات بعارضيه ألا تخافين الله؟

قلت لها: متى كان ذلك؟

قالت: قبل رحيلنا بأسبوعين.

قلت: وماذا قلت لها ولم لم تخبريني؟

أجابت كنت أجاملها وأصانعها وأكتم أنفاسها بصبري، وتصنع الحلم أحيانًا والتغابي أحيانًا، فلما بلغ السيل الزبى وطم الوادي على القرى انفجرت ولم أبال، كنت أحب أن تطول إقامتنا هناك؛ لأنه أصلح لي ولك ولكن بعد أن هاجمتني المرأة القاسية البذيئة في عرضي شعرت بأن إقامتي عندهم لا تليق بي ونسيت نفسي.

فقلت لها: في أمثالنا كم في الحبس من مظلوم! اعلمي أنني التحيت منذ عامين منذ وطئت أقدامي ليون؛ لأنني رأيت شبانًا أصغر مني سنًّا في الكلية يلتحون ولهم لحى جميلة مستديرة ذهبية اللون أو سوداء فراقني منظرها، وعندي تصاوير كثيرة، فلو ذكرت لي بعض قولها لأبرزت لها صوري المؤرخة سنة ١٩٠٨ لأفحمها وأقطع لسانها؛ ولتعلم أن لا يد لك في هذا، وأنني لم أحلق لحيتي إلا في مصر، فإن أهلي أبسط عقلًا من هؤلاء الناس ولم يتعودوا في مصر أن يروا شابًّا ملتحيًا ويكرهون أن يروا شيخًا يتصابى أو صبيًّا يتمشيخ. أما اللحية المدببة والعارضان المزينان بالشعر القسطني والأسود، فأليق بتكوين وجهي وأجمل، وصحيح أن الطراز الجديد هو نعومة الرجال، وتقليد اليونان والرومان والإنجليز هم الذين أشاعوا هذا النوع من الخنوثة أما أهل فرنسا فلا.

قالت: سامحني إذا ذكرت لك هذه المسألة وأرجوك إن كانت حلاقة ذقنك تروقك، فلا تؤجلها فأنا أحب أن يراك الناس وسيمًا كما قالت ولا أحب أن توحي إلى نفسك أنك أكبر سنًّا مما أنت، وهذا الذي قالته عني محض افتراء، فإن أوراقي وجواز سفري بين يديك وفيه تاريخ ميلادي واسم بلدي وأهلي ولست مغامرة مجهولة حتى أتلمس إظهارك بسن أكبر من سنك اتقاء ملامة الناس. ثم بكت وأجهشت بالبكاء.

فذعرت وقلت لها: ألا قاتل الله بيدو وراسين والعانس الدميمة ورائحتهم وسيرتهم. نحن الآن في طريقنا إلى فيرنزه وقد فزنا ونجحنا ونجونا من القوم الظالمين في سويسرا وفرنسا وجنوى.

قالت: لم أر في فرنسا ظالمين بل ألفيتهم جميعًا على أكبر نصيب من الكرم والظرف وحسن العشرة، ولا أنسى أبدًا مدام بوديه وزوجها الجحش وموسيو بيلهوم، وقبل هؤلاء جميعًا موسيو لامبير وزوجته وأخت زوجته فقد قابلونا معًا، وتحدثوا معي وتلطفوا بنا وشعرت أنهم يحبونك من صميم قلوبهم.

وأشرف القطار على تورينو وتمددت وغطيتها، وقبعت في ركني وغطيت وجهي بمنديل ولم نشعر بأحد ولا بمن يفتح الباب ليطل علينا.

وكذلك في تورينو، ودخلنا أرض توسكانيا السعيدة، ودنت ساعة النزول وكانت أوجستا قد نامت فعلًا فلم أشأ أن أيقظها إلا في اللحظة الأخيرة؛ لأن القطار يقف بالمحطة أكثر من عشرين دقيقة.

٣

فلورنسا

عند وقوف القطار نزلنا وتقدم حمالون لنقل متاعنا، واخترنا فندقًا له مركبة تنتظر الواصلين في تلك الساعة المتأخرة من الليل، وقفز إلى جوارنا رجلان فظيعا الشكل مريبان فلم نلتفت إليهما وإنْ يكن رابني من أمرهما أنهما لا يحملان متاعًا وقد أخذا يسترقان النظر إلينا، ولكن أوجستا كلمتني بغير انقطاع عن جنوى وليون وشاطئ البحر، وذكرت أسماء مصورين وشعراء، فدهشت لعدم المناسبة بين هذا الموضوع وبين تعب آخر الليل.

وبعد ربع ساعة وصلنا إلى الفندق وقيدنا اسمنا واخترنا غرفة واحدة. فما كان من الرجلين المصاحبين لنا إلا أن انحنيا على دفتر قيد المسافرين في الفندق، وأخذا

اسمينا جهارًا وحييا كاتب الفندق وانصرفا، فنظر إلينا الرجل باسمًا وقال: لا يزعجكما مسلكهما فهذا واجبهما عند وصول قطار الليل، ونظام الشرطة يحتم أن نبعث إليهم ببيان في الصباح ولكنهم لا ينتظرون، فابتسمت أوجستا ولم تجب، ولزمتُ الصمت مقتديًا بها.

ولما خلونا في غرفتنا قالت: ألم تفطن إلى أنهما من رجال الشرطة السرية.

قلت: كلا!

قالت: ولأجل هذا أخذت أثرثر وأذكر أسماء المدن والأدباء والمصورين لأصرف عنا ذهنهما.

قلت: وماذا علينا أنحن ثائرون فارون من وجه العدالة، وأنا حديث العهد بشهادة الليسانس وهل أنت من ربات السوابق؟ إن هذا التمثيل منك يثير الشبهات ولو كنت شرطيًّا لارتبت في مسلكك.

قالت: غاظني أن نبدأ اليوم بفتنة العجوز ونختمه بمصاحبة الخفية في مركبة الفندق ولم أتعود شيئًا من هذا أبدًا، قلت: لأنك لم تسافري في قطار الليل الذي يصل بعد نصف الليل بساعتين؛ ولأنك في صحبة رجل والأزواج دائمًا موضع الظنون أكثر من امرأة وحيدة أو رجل بمفرده.

ونمنا نومة هنيئة وتعمدنا أن نتأخر في الفراش إلى ما بعد الضحى، وأن نستحم بماء ساخن وأن نفطر في غرفتنا وأن نبقى بها إلى موعد الغداء، وقد أشرتُ عليها بالغداء حيث نحن وأن لا نخرج إلى المدينة استكمالًا لراحتنا وأن لا نغادر الفندق إلا في اليوم التالي بعد أن نكون رسمنا خطة منظمة لعيشتنا في المدينة، وأن هذا أصلح لنا وأسلم عاقبة، وبعد فليس وراءنا واجب نؤديه غدًا وليس لنا معلم يحاسبنا فما يضرنا لو أخذنا يومًا هدنة بعد كل هذه الأسفار والمتاعب، ولا سيما وأن للغرفة شرفة مطلة على شارع نهر الأرنو وشباك يطل على حديقة غناء، فوافقتني وطلبت إليها أن لا تفض أربطة المتاع، ولا أن لا تفتح إلا حقيبة واحدة وهي التي تحتوي مناماتنا ومباذلنا وبعض أدوات التطرية والترفيه والثياب التحتانية، وأن نبقى يومًا وليلة كاملين بثياب التفضل لنستمتع بالراحة، فتمنعت أولًا استعجالًا برؤية المدينة العجيبة، ثم نزلتْ على رأيي كعادتها، وكان يومًا من أهنأ الأيام امتنعنا فيه عن الكلام وتقليب الماضي، وصمنا فيه عن القراءة واكتفينا بالنظر إلى النهر والحديقة والتهام الإفطار والغداء والعشاء وشهود الغروب، وفي أثناء الضحى قالت لي: تسمح لي بكلمة؟ قلت: نعم.

قالت: هذا الجسر الذي تراه من بعيد التقى عليه دانتي وبياتريس.

فتذكرت أنها أرسلت إليّ مرة بطاقة مصورة (كارت بوستال) فيها صورة دانتي وملهمته التي صعد مع روحها إلى السماء لينظم جنته وجحيمه.

قلت: زيدي ويا حبذا لو كان الكلام كله من هذا القبيل مؤيدًا بالمستندات فإن حجتك ثابتة بالبطاقة.

ثم سمعنا ألحانًا جميلة تتصاعد إلينا من الحديقة.

جولة في مدينة فلورنسا، ساحة القصر العتيق

في صباح اليوم التالي ٣٠ يوليو سنة ١٩١٠ خرجنا من الفندق، واتجهنا إلى ساحة القصر العتيق بلازو فيكيو وكان الوقت مبكرًا والنسيم عليلًا على أننا كنا في آخر شهر يوليو، وكان الجو مشبعًا برائحة وروح رائحة الأزهار والربيع وروح الجمال والتاريخ والجلال والذكريات.

شعرت للمرة الأولى بأنني في بلد عجيب خالد ساهر، ونظرت في الوجوه، وجوه الرجال والنساء والأطفال، فإذا طابع خاص من طوابع الجمال والفتنة والنبل، شعب رافع رأسه يحلم بالماضي ويستمتع بالحاضر ويثق بالمستقبل وخاصة النساء وهن العذارى والغواني بنات توسكانيا، وكلهن ذوات خفر وحور وسمرة جذابة وشعر أسود فاحم وأعين ساحرة وأهداب طويلة، وأفمام دقيقة كثمر الكريز وقدود فارعة وخصور نحيلة وسيقان جميلة وأقدام مستوية، وأيد ناطقة ذات أنامل كالعناب وحواس مرهفة ورءوس كرءوس الطير في لفتاتها وأعناق كأعناق الظباء، رأيت هؤلاء رائحات غاديات يسرن غير عجلات، بل مستأنيات كأنهن يتمتعن بكل لحظة من الزمن وبكل نظرة تلقى عليهن أو يلقينها على الناس والأشياء في ثياب فضفاضة ثمينة تزينها محاسنهن ذوات أطراف موشاة، وأذيال تجر وراءهن ولا يعلق بها تراب؛ لأن شوارع فيرنزه لا تراب فيها وبعضها من المرمر، وهي محفوفة بالحدائق والبساتين والتلال العالية المكسوة بالخضرة الدائمة.

وهؤلاء النساء والفتيات سبحان الخلاق العظيم هن حفيدات ربّات الجمال والحجال اللواتي أخلدهن المثالون والمصورون في لوحات تزداد حسنًا كلما تقادمت العهود عليها.

أية خسارة أصابتني بما قضيته في السياحة والأسفار قبل أن أرى تلك المدينة، كنت طائشًا جهولًا ما دام في الدنيا بلد كهذا، ولا أراه ولا أزوره ولا أقيم فيه ولا أختلط بأهله

ولا أمتع النفس بخياله وجلاله. لم تكن الوجوه وحدها والأبدان، ولكن المباني المشيدة ومنعطفات الطرق والجماد والوجوه توحي وتلهم والجماد ينطق والضوء، وللضوء هنا تأثير عجيب وهنا العقل والروح والعاطفة، إن المشاعر تتنبه وتتجه إلى السمو وإلى المعالي وإلى المعاني الرفيعة، لا بد أن يكون في جو هذا البلد وفي هوائه وأرضه وسمائه ما لا يوجد في بلد آخر، إن مدينة ميونيخ تشبهها من بعيد، فلورنس كالصوت الجميل وميونيخ صدى الصوت يأتي من بعيد، إن الله أعد بقاعًا من الأرض وشرفها وجمّلها وزينها وأحسن خلقها، وجعلها فتنة خير وأبدعها وجعلها كنوزًا وجنات لخلقه. وهذه المدينة في مقدمتها ولعلها تبعث يوم القيام على صورتها وحالتها وهيأتها.

ليت لي حظ كتابة كتاب كامل عن فيرنزه تاريخها ومعالمها وجمالها وأبطالها وفنونها وماضيها وحاضرها، إذن لكتبته بحب وشغف وسعادة لا تحد. كل خطوة في هذه الأرض مباركة ومحفوفة بالهناء، وكل نظرة ترتد هانئة وهي تستزيد وكل نفس يتردّد في جوها ينعش النفس، وكل كلمة ينطق بها اللسان تثبت في الذاكرة وكأنها تؤدي معنى جديدًا، ليست المعاني السابقة في جعبته شيء يذكر. ما رومه وما باريس وما لندن وما برلين وفيينا؟ فيرنزه وميونيخ والقاهرة تلك مدن الجمال والجلال والسحر الحلالّ.

وفي الحال وبعد النظرة الأولى عددت نفسي فلورنسيًّا روحًا وفكرًا ومزاجًا، ووددت أن أعيش فيها وأن أسكنها وأن أعشقها وأعشق أهلها ولا أموت فيها أبدًا؛ لأن من يعيش فيها لا يموت أبدًا. أرأيت هذا هو الشعور الأول الذي صادف قلبي، ولا يزعمن أحد أنني كنت مفتونًا أو مسحورًا بصاحبتي، فقد كانت هي الأخرى مفتونة بما ترى ولم أسألها قط أن سبقت لها نعمة هذه الزيارة، لاعتقادي أنها نعمة تتجدد في كل مرة بل في كل يوم.

الكنيسة الكبرى (الدومو)

وقد حدث لي أنني رأيت الكنيسة الكبرى التي تسمى الدومو أي: القبة وأقسم غير حانث أنني استبنت فيها عنصرًا من عناصر الطبيعة مع أنها بناء من صنع الإنسان، بناء ضخم من المرمر الملون ولكني اعتقدتها بستانًا أو بحيرة جميلة أو صورة فخمة من صنع الخيال وشعرت بالحاجة الملحة لرؤيتها في كل يوم. ولم يكن لأية عاطفة دخل غير عاطفة الجمال، فإن داخل هذا المعبد المسيحي مقبض ومظلم ترى الناس فيه كالأشباح

ولا تشعر بأي جاذبية للروح، وأنا لا أعتدي على العقيدة المسيحية التي كانت سببا في تشييدها في القرون الوسطى، ولكن أؤكد وأقسم وأثبت أن مهندسيها وواضعي خططها أو راسمي تصميمها وبانيها ومشيديها كانوا وثنيين من عباد فينوس ومنرڤا، وكل أرباب الجمال العتيق العريق كانوا ڀاڀين لايدينون بالمسيحية وكانوا يستلهمون الجمال وحده في وضع الأساس ورفع الجدران، ونصب الأعمدة وتنسيق الزوايا والأركان، ولا أدري عدد أساتذة الفن الذين اشتركوا في صنعها، ولكن أعلم أن جيوتو الجبار صنع بابها من مصراعين من خشب الساج وزين كل مصراع على حدة الأول جعله للجنة والثاني للنار، باب كنيسة يمثل النعيم والجحيم في صور بارزة من البرنز والنحاس، وقد جعله الفنان العظيم فتنة للعابدين وسوف أعود إليها. وأنا أتكلم عن الصباح الأول وأستطرد، وكم من استطراد يقودني القلب والعقل إليه وتدفعني الذكريات إليه دفعًا.

جلسنا في مقهى في ساحة القصر العتيق ومن العجب العاجب أن هذا المقهى يشبه بعض مقاهي القاهرة التي تصفّ مقاعدها في الطريق، وبينها مناضد نحاسية صغيرة وكل شيء مصنوع يسيطر عليه الفن والجمال، وطلبنا فنجانين من القهوة وتنسمنا هواء الصباح واحتسينا قهوة الصباح، وشربنا مع كل حسوة معنى من الجمال والرقة والرفعة وفعلت بنا القهوة فعل الخمر المعتقة، وكانت أوجستا غارقة في بحر التفكير لماذا؟ هل ندمت لأنها أوحت إليّ بزيارة هذا البلد فخشيت عليّ الفتنة، أم أنها أدركتها الغيرة من انشغالي بمحاسن البلد عن محاسنها، أم كانت سعيدة طروبًا تشاركني فرحتي وتحمد الله على أنها كانت في إيحائها موفقة، أنا الذي اخترت البلد وأنا الذي اتخذت تذاكر السفر إليها من جنوى، وأنا الذي فاجأتها مفاجأة سارة، لعلها هاجت شجونها من تذكر أحباب بذي سلم فأوشكت أن تمزج دمعًا جرى من مقلة بدم، «وذو سلم» هذه قد تكون جنيف أو بطرسبرج أو موسكو.

سقيفة لوچيا

وقالت لي: انظر هل رأيت وراءك؟ وكنت إذ ذاك مأخوذًا بواجهة القصر العتيق وساعته الكبرى التي تشبه وجه الزمان وتزري بألف ساعة لوستمنستر.

فنظرت ورائي وإذا بي أرى سقيفة ذات شرفة مرتفعة عن مستوى الطريق بضع خطوات، وقد صفت فيها تماثيل من البرنز في مجموعة منسقة على ضخامتها وفخامتها تشبه الدراري المنتظمة في سلك، والسلك صار عقدًا والعقد في جيد والجيد لحسناء

فاتنة والحسناء الفاتنة هي المدينة، تلك السقيفة اسمها «لوچيا» وهي في أفخر وأعرق ساحة.

أرجو أن من يقرأ هذه الصحف أن يعفو عني ويعذرني إذا لم أعد إلى ذكر المحاسن والمفاخر والمباهج والمشاعر التي هاجتها في نفسي تلك الإقامة السعيدة في هذا البلد. فإنني إذن لا أنتهي ولا أفرغ ولا أشبع ولا أكلّ ولا أملّ، بل إن القول يتجدد ولا يتكرر والعواطف تنهال والمعاني تنثال، والمجال يتسع والطرق تتشعب والذكريات تتداعى والأعلام تترى، ويصبح الحديث مزيجًا من الجمال والتاريخ والأدب والسياسة والفن والشعر والدين والحق والباطل والإيمان والتقوى والفساد والموت والظلم والعدل والجور والقسوة والفسوق والإلحاد، ولست أنا بسبب هذه أو بعضها فقد وضعت قديمًا كتابًا عن نهضة الإحياء، «إحياء العلوم والآداب والفنون» ودرست هذه الفترة من الزمن دراسة وافية ونقلت كتاب «الأمير» لمكيافيلي أحد أعلام هذا البلد، وقرأت تاريخ إيطاليا لجويتشارديني أحد مؤرخي هذا البلد وأحببت ليونارد داڤنشي وميكل أنجلو وبوتشيلي بعض سادة الفن في هذا البلد، وترجمت لجيورولومو ساڤورنا رولا أحد أتقياء هذا البلد وشهداء هذا البلد، وقرأت نعيم دانتي وجحيمه وكوميديته الربانية التي نظمها مستوحيًا حبه لبياتريس إحدى فاتنات هذا البلد، وكذلك قصص بوكاتشيو أكبر قصاصي هذا البلد وواصفي حياته في جده ولهوه، وفي صحته ومرضه وفي شقوته وسعده. وإنني لأحب هذا البلد وأعيش وفي قلبي ركن لهذا البلد وفي نفسي حنين لهذا البلد كأنه حنين لوطن الجمال، وإن كنت أحببت تلك المرأة الذكية فقد أحببتها حقًّا في هذا البلد وأدركت أن كل ما سبق وما لحق من عشرتنا وأفكارنا وقربنا وبعدنا كان مقدمة لحياتنا في هذا البلد، ونتيجة لفراقنا بعد أن فصلنا عن هذا البلد.

قمنا من المقهى كالمشدوهين المأخوذين نود لو أن سبقنا إليه من أعد لنا مسكنًا وبوأ لنا منزلًا وجهز لنا طعامًا وفراشًا ومكتبًا ومركبة لنروح ونغدو. ولكن أوجستا نابغة في التدبير؛ ولذا بادرت بشراء «دليل الغريب النازح إلى ما في فيرنزه من المساكن والمطارح» والتعريب من عندي، وأخذنا نطوف بالبيوت، وقد وقعنا في غلطة كالتي وقنا فيها مع الكونت فياسكو أو بونچورنو في ضواحي راپالو. ولكن وقعتنا هذه المرة كانت مع شريف ظريف نسيج وحده يلبس لبوس القرن السابع عشر، ويعيش بمفرده ويؤلف كتابًا في تاريخ العالم ليس له أول يعرف ولا آخر يوصف، فتلطف بنا وهو جد متأنق وأرشدنا إلى بعض الشوارع التي يغشاها السائحون في الربيع من الإنجليز

والأمريكان، وهي الآن لا شك خالية؛ لأن ساكنيها نزحوا بعد طول الإقامة، فاتجهنا إلى ساحة كبرى تتفرع من شارع المحكمة العليا والمكتبة العامة، ولعلها ساحة ميكل أنجلو ومنها إلى شارع ليونارد داڤنشي، وإنك لا تجد في فيرنزه إلا ساحة أو شارعًا أو زقاقًا أو طرقة أو عطفة تحمل اسمًا تاريخيًّا له رنين وله حنين له وقع في النفس.

وفي هذا الشارع الجميل اهتدينا إلى بيت سنيورا ماريا ساباتيني الداية، وهي تؤجر مسكنها وفيه غرفتان وحمام ومطبخ وشرفتان على الشارع والحديقة، ونرى من نوافذه الشمس والقمر ونطل على الخضرة والماء، وكل أثاثه جميل وجديد وهذه النعمة لقاء خمسين فرنكًا في الشهر، وأنها تسلمنا المسكن تو الساعة، فعقدنا ودفعنا وأسرعنا إلى الفندق فنقلنا أمتعتنا على مركبة يجرها جواد وأعطينا السائق عنوان البيت، وفي الساعة الثالثة بعد الظهر كنا جالسين على مائدة الطعام نتغدى بالأكل الشهي الذي أعدته صاحبة البيت إكرامًا لضيافتنا، ثم ودعتنا وانصرفت بعد أن دلت علينا البدال والبقال والعطار والقصاب واللبان والبواب، وكل من تستقيم الحياة في البيوت بمعونته أو خدمته والفضل في هذا اليسر «لدليل الغريب النازح إلى ما في فيرنزه من المساكن والمطارح».

وذقت نعيم الاستجمام بعد الاستحمام، وفي الساعة السابعة فاجأتني أوجستا بعشاء من صنع يديها، وكانت هذه المرة الأولى التي بذلتْ يديها المخلوقتين للأقلام والقراطيس والمحابر ولمفاتيح البيانو وتنسيق الكتب والتحف، سخرتهما للطهي وتقليب الطعام قلعًا وقرعًا في الأوعية والأواني، وغرفها في الصحون والأطباق بالمغارف الغلاظ، وغسل الملاعق والشوكات وتصفيف الأدوات على منضدة الطعام، واستعجال بائع الثلج والفاكهي وغير ذلك من معدات العشاء. فهانت الدنيا في نظري وعزّ عليّ أن تنزل أوجستا بجلال قدرها وجمالها وأناقتها إلى مستوى الطاهية، فاحتججت عليها ورجوتها أن تستأجر «مرماتونا» وهذه كلمة إيطالية عريقة، وقد آن أوانها، فأقسمتْ ووكدت غير حانثة أنها لم تتذوق لذة كالتي ذاقتها وهي تعد هذا الطعام لنا، ولو أنها كانت بمفردها لفعلت هذا لنفسها ولم تشرك أحدًا في صنع طعامها، نعم لم يسبق لها «أن وقفت أمام النار» ولم تغسل «المواعين» ولم تقلب طعامًا مطبوخًا ولم تغرفه لأحد، ولكن من يدري لعل هذا الفن مكمل لثقافة المرأة وكان ينقصها، فأراد الله بها خيرًا. وهكذا كان عقل هذه السيدة يتكشف عن جواب لكل معضلة، وعن حل لكل مسألة وصدق من قال: إن الحب، لا الحاجة، يفتح الذهن ويفتق الحيلة.

وحدث في هذه الليلة أننا جلسنا لنقرأ وأخرجت كتابين الأول لهيبوليت تين والثاني لجون رسكين، وكلاهما في وصف آثار فيرنزه وشرح لفنونها وتراجم مقتضبة للفنانين والكتاب والمفكرين، وهما من كتب السياحة الراقية وليس لهما مثيل في اللغات الأخرى. لقد ودعنا رينان بتوديع جنوى وافتتحنا عهدًا جديدًا.

ورسمت أوجستا خطة فوضعت بيانًا للمصورين والمثالين وحصرت المتاحف وما احتوى كل منها من صور وتماثيل. وعرفت على الخريطة من دليل فلورنس للسائحين أماكن المكاتب والكنائس الشهيرة وبيوت أبطال التاريخ لنزورها، وأخذنا نقرأ كتاب تين وما تزال تلك الكتب عندي. وقرأنا لنصف الليل؛ لأننا امتلأنا حياة وبهجة وحبًّا للاطلاع، وكان الجو حارًّا فأشارت عليّ بالاستحمام قبل النوم، فإنه أجلب للنعاس وأدعى للراحة، فلما خلوت بنفسي قالت من وراء الباب: «أدعك ظهرك باللوفة (كذا)» وقد عرفت هذه الأداة النباتية العجيبة مني، فإنها أدعى لتنبيه الدورة الدموية بعد طول المطالعة وأضافت بصوت متهدج «لو أنني لم أتعود أن أخدم أحدًا في الحمام ولا ولدي نفسه، لدخلت عليك لأدعك ظهرك»، ففهمت أن عاطفتها قد بلغت الذروة، ولم أجد ما أجيب به على قولها. وخرجت ملتفًّا ببرنس ولبست ثيابي وقصدت إلى فراشي في الغرفة المطلة على الحديقة.

هذه الليلة من الليالي التي لا تنسى، وكنت طالما ذكرت لأوجستا ليلة وصولي إلى بيت راسين، وما لقيته من المسرة ولذة النعيم عقب السفر والمطر والجليد وجعلت لهم عليّ يدًا بما أذاقوني من الراحة بعد التعب، ولعلها تذكرت تلك اليد عندي، فأرادت أن تجعل لنفسها أخرى لا تقل عن يدهم، ولكن هذه اليد الجديدة تمتاز بأنها صادرة عن الحب والإخلاص وامتزاج العقلية والروحين، وأن الأخرى كانت صادرة عن المصلحة الباحتة، ولكنها لا تنسى ولا ينسي الجميل إلا الجاحدون ومن يشكر الله أو الناس فإنما يشكر لنفسه.

إن حياة الفن تقتضي حياة فنية والحياة الفنية هي البوهيمية، ولكننا لسنا فنانين ولا ناقدين فنيين وإنما هي أديبة ووالدة في إجازة وأنا طالب حقوق في إجازة، ولكنني شديد الشغف بالفنون الجميلة ولكنه شغف نظري، ونكبتي أنني لا أهدأ في مكان ولا أضيع وقتًا ولا أعترف بأن لبدني عليّ حقًّا وأنني حيث حططت رحالي أدعو ربي زدني علمًا، وأبدأ أسأل نفسي وأسأل الناس ماذا يمكن الإنسان أن يعرف ها هنا، وأي كتاب يقرأ وأي مكان نزور، فأخلق لنفسي متاعب حيث يجب أن أستريح وأرجو من العدم

تبعات أتحملها وأتوهم أنها مقدسة وواجبات لم تخطر على بال أحد، وأتخيل أنها أصبحت محتمة الأداء، هذه كارثة بل كوارث!

ستيفن باركر

وكنت فيما مضى لقيت مصورًا أمريكيًّا في مصر اسمه «ستيفن باركر»، وتوثقت بيننا عرى المودة؛ لأننا غادرنا مصر في باخرة واحدة «برنس لدويج»، وصادف أن كان رفيقنا في الرحلة «بير بوهم ترى» الممثل الإنجليزي.

ولما افترقنا في مرسيليا قال پاركر: إن عنوانه الدائم فرنس ليمونز بقصر ستروزي بفلورانس، وأهدى إليّ بعد ذلك ديوان شعر من نظم صديقه قضى نحبه في مقتبل العمر في فيرنزه، واسم الديوان «قصائد منظومة بفلورنس». شاعر ومصور ورحلة بحرية مع ممثل شهير، أيقتضي هذا أن أبحث عن مقر الشاعر قبل موته ومعاني شعره ومقر باركر في يومنا هذا؛ لأنني في فيرنزه، ولم أعرف الشاعر قبل موته والصديق المصور رحل إلى أمريكا، ولكنه داء دفين لا علاج له يجب أن أفي للذكرى، ويجب عليّ أن أقصد إلى مكتب فرنس ليمونز وأسأل عن باركر وعن صاحبه المتوفى، لا بد أن أرى الأماكن والأشخاص والأشخاص الذين رأوا الأشخاص وإلا فلا راحة لي ولا هدوء بال، وأسأل نفسي وأنا أتجشم المشقات إذا لم ترد العناية أن أبحث وأفحص، وألتقي وأتعلم وأتلقى فلم وضعت في طريقي هؤلاء الأشخاص.

ولذا ذهبت إلى پالاتزو ستروزي وولجت بابها، وسألت عن ستيفن باركر فأجابني أنه في أمريكا الآن وأن أي مكتوب أسلمه إليهم يتعهدون بتوصيله إليه، وكانت أوجستا تقول لي: وماذا يجدي يا حبيبي هذا التنقيب والتفتيش فأقول لها: الوفاء. ها أنا في فيرنزه وربما كنت لا أظن أنني واردها فلا مانع من أن أتفقد صاحبي وأسأل عنه، ولعله هو الآخر ما كان يظن أن أصل إليها لانشغالي بطلب العلم في فرنسا، ولعل خطابي يبلغه فيذكرني ويذكر وطني ويذكر صاحبه الذي قضى نحبه في مكان بعيد عن بلاده، فتضحك ثم تصمت وتفكر وتقول: هذا معنى عجيب من معاني الحياة.

٤

كنز فنون ومعرض جمال

كانت الرابطة الأولى بيني وبين فيرنزه أنها كنز فنون ومعرض جمال ومدينة نادرة مثل أثينا في العصور القديمة بل هي أثينا القرون الوسطى. نعم لم يظهر فيها فلاسفة كسقراط وأفلاطون وأرسططاليس ولا شعراء كهومير وسوفوكليس وأوربيد وإيشيل، وسبب ذلك أن الدين المسيحي عقيم، بمعنى أنه لا يولد الأفكار؛ لأنه يسد أبواب الفكر المطلق، ولكن ظهر فيها فلاسفة وشعراء وساسة وفنانون. ألم يكن نيكولا ماكيا فيلي فيلسوفًا في الاجتماع والسياسة والتاريخ، وقد تطورت الأزمان. ودانتي اليجري كان شاعرًا ولكنه شاعر حكيم قد ألم بالدنيا والآخرة والجنة والنار، وساڤونا رولا ألم تكن له فلسفة في الأخلاق والإصلاح لقي في سبيلها حتفه، وليونارد داڤنشي لم يكن مصورًا ومثالًا فحسب، بل كان أيضًا فيلسوفًا ومؤلفًا ومخترعًا ومكتشفًا وعابدًا من عباد الجمال والحق والخير. لكل زمان أفكاره ومبادئه، إن المسيحية العقيمة بالمعنى الذي ذكرت أغلقت أبواب الفكر، وتوعدت رجال الفكر، ألم يعدموا برونو إحراقًا، ألم يلقوا بجاليليه من حالق، ألم يؤسسوا محكمة التفتيش، ألم يكن كريستوف كولومب فيلسوفًا اكتشف قارة جديدة بفكرة تخالف المسيحية؛ لأن المسيحية لا تدل أتباعها على أن الأرض كرة مستديرة.

فهذا البلد ليس كغيره من البلاد، إنه يحمل طابعًا خاصًّا به وإنه لتفوح منه عطور التاريخ وقد مرت به عواصف قواصف وحدثت فيه أحداث كالتي مرت بأثينا ورأى طغاة وجبابرة كالذين رأتهم أثينا أمثال أسرة مديتشي وبورچيا، وتحملت هذه المدينة واقعات حروب وذاقت آلام الجوع والمرض وذلك الحكم الأجنبي، ولبثت جمهورية وطمعت في جيرانها وطمع فيها القريب والغريب. ولكن هذه المدينة كانت دائمًا كالملكة المتوجة الباهرة الجمال لا يفنى شبابها، ولا تذوي محاسنها ولا يذبل ربيعها بل تتجدد حياتها في كل حين كما تتجدد مياه نهرها وتزدهر أزهارها في كل عام، وكما تعشق نساؤها وتتزوج وتحمل وتلد، وتقذف إلى الحياة فتيانًا وفتيات منهم النوابغ والعبقريون الذين يحملون الشعلة المقدسة.

مكيافيلي وساڤونارولا

وقد حملت نفسي تبعة جديدة، لا بد أن أستعين بنسخة إيطالية في إتمام ترجمتي لكتاب «الأمير»، وما دمت في بلد مكيافيلي لا بد أن أتتبع مواطنه، فأزور بيته ومغانيه وأقرأ من مؤلفاته ما أستطيع ولا بد أن أزور قبره في كنيسة سانتا ماريا نوڤيلا، وبيته ما يزال قائمًا في رقم ١٧ ڤيا جويتشارديني ومؤلفاته محفوظة في بيته، كما رأيت آثار ساڤونارولا وخط يده وتفسيره الإنجيل وبعض ثيابه والصليب الذي صلب عليه، أما بدنه فقد حرقوه بأمر الكنيسة وذروا رماده في نهر الأرنو كما فعلوا في أشلاء بعض الأولياء عند المسلمين في بغداد قبل ذلك بخمسماية عام. وهنا كتب عن مكيافيلي وعن ساڤونارولا وعن ليونارد وبوكاتشيو، فلنحصل منها ما يصل إلى يدنا ومن تصاويرهم وآثارهم.

وما دمنا بصدد هؤلاء العظماء فكيف لا ندرس حركة النهضة كلها (رينسانس) في القرون الثالث والرابع والخامس والسادس عشر، يقظة أوروبا بعد القرون الوسطى المظلمة.

ولا بد أن أوجستا أوشكت أن تفقد صوابها من هذا الهوس، ألم أكن متهوسًا في حب المعرفة ومجنونًا بالوقوف على كل شيء إجمالًا وتفصيلًا، نعم إنها كلها أشياء خليقة بالدرس والبحث، وإنها جديرة أن توقف عليها الأعمار والأموال ولكن أين الأعمار بل العمر الواحد الذي أستطيع وقفه على هذه الأمور كلها، وأين الأموال التي يحتاج لها بعض فروع أصل واحد من هذه الأصول. وهل يمكن لرجل واحد أن يحب كل هذه الأشياء ويتقنها، إنني أكره التخصص وأمقت الرجل الذي يصفونه بأنه متخصص في قراءة الوثائق الخاصة بعلاقة فرانسوا الأول بليوناردو أو بصلة ليونارد بكونت سفورتزا، وبتاريخ صورة جيوكوندا، وبتحقيق شخصية السيدة التي جلست للمصور حتى أتم رسم وجهها وعينيها وفمها وصدرها ويديها، ولكنني إذا شغفت بموضوع أجد نفسي كأحد هؤلاء المتهوسين بالتحقيق والتدقيق وفيهما تذهب الأعمار.

لقد قرأت قبل زيارة فلورنس كتاب الزنبقة الحمراء لأناتول فرانس وأعجبت بها. إنها قصة غرام وغيرة للكاتب نفسه وقد وصفها وروى واقعاتها في ذلك الإطار العجيب إطار فيرنزه، لا بلد في العالم تصلح للحب مثل بعض مدن إيطاليا كالبندقية وروما وفيرونا وبادوا؛ ولذا أتخذ شكسبير بعض هذه المدن مسرحًا لقصصه الغرامية العنيفة (أوتلو — روميو وجوليت — وحتى شيلوك اتخذ لها إطارًا إيطاليًّا).

فلم يكن أناتول فرانس مخططًا بل ترسم خطوات سابقيه ولا سيما الناجحين، فوفق توفيقًا عظيمًا في اختيار الزمان والمكان، ولعله لم يحسن اختيار المعشوقة فقد اكتوى بنار حبها.

وليس من السهل أن تعيش في البلد وتعاني وتعشق، وتفكر ثم تنقل هذا بسرعة البرق إلى صفحات كتاب يباع ويشترى، لا بد للعاطفة أن تعتّق وتختمر كالجيد من الشراب الذي يطيب ويجود بالدفن في الدنان والخوابي ثم يخرج من بعد دفنه أي: يبعث من قبره. ولا يكون غير هذا إلا إذا كان العاشق الكاتب محترفًا ومرتزقًا وفي حاجة إلى الاتجار بعواطفه وأخبار عشقه.

لقد كان فرانس في هذه القصة في منتهى الرقة ثم في منتهى الوحشية، ولم يذكر فلورانس إلا لممًا، ليقنع القارئ بأنه رأى وأحس ولكن الحافز الأول عنده كان الحب، وكان الحب يمكن أن يحدث في باريس أو نيس أو تولوز أو في أي مكان آخر.

ولأجل هذا أردت أن أستشير صديقتي فيما أفعل قبل أن أضيع الأيام والليالي هباءً، فلم أجئ إلى فيرنزه لأحب، إن الحب مستطاع في كل زمان ومكان ولكن إضافة الجمال إلى النفس وازدياد المعرفة، وإطفاء نيران الشوق للحقيقة، ولو كانت نسبية ليست ممكنة في كل زمان ومكان.

٥

محاسن وأضداد

يكاد من يقرأ هذه المذكرات يظن أن أوجستا دامانسكي فيليبوڤنا كانت ملكًا طاهرًا وأنها خالية من العيوب، أو أنني على حداثة سني، ولم أكن تجاوزت الثانية والعشرين، وأتيت في مقتبل العمر حلم الشيوخ، أو أنني على الأقل لطول العهد ودورة عجلات الزمن تعمدت أن لا أذكر عنها إلا الخير، ولكن هذه الفكرة تنطوي على حسن الظن بها وبي وهذا شيء جميل ولكن الحق أجمل، ولا أنكر أنني عاشرتها وعاشرتني وأعيننا مفتحة ووعيت معايبها الإنسانية ومعايبها الخاصة بوصفها امرأة روسية مجهولة المذهب والذهب والذهاب (أي: الدين والمبدأ السياسي وغايتها من أسفارها)، ولم يكن من هذه شيء يهمني؛ لا لأنني اعتبرت معاشرتها تسليةً ولهوًا ولكنني عرفتها في حاضرها ولم أكن أعزم على أن أتزوج منها حتى أدقق في معرفة ماضيها، فقد عرفتها من سنتين

والدة ذات ولد تعيش مستقلة في صحبة أمها وطفلها، وسواء أكانت مطلقة أم مفارقة أم هاربة من وجه زوجها، مظلومة أو ظالمة فلست أعتدي على عرض رجل ولا أعمل على تدمير حياة أسرة أو خراب بيت أو تشتيت شمل أم وأب وابن؛ لأن شيئًا من هذا لم يكن في طبعي ولا تطيب معه لذة ولا يتفق مع أغراضي في الحياة التي تطالبني بالهدوء والطمأنينة والبعد عن المشاكل.

ثم إن لهذه المرأة جوانب أخرى، فهي أكثر ثقافة وتهذيبًا ووحيدة لا رقيب عليها، وأنها على كل حال غريبة عن أهل سويسرا المبغوضين لديّ؛ لتفضيلهم المادة على كل شيء، والذين يودون لو استطاعوا أن يبيعوا الماء والهواء أو يرهنوا الجبال والبحيرات ليحصلوا على المال، وأنها من شعب عظيم يفنى في سبيل الحرية، ويهلك في محاربة الظلم، ولهم نوابغ أحببتهم وقدرتهم وعرفتهم من ثمارهم، أمثال تولستوي وتورجنيف، ثم إنها أنضج وأعقل وأذكى وآمن عاقبة، وأنها غريبة مثلي وكل غريب للغريب نسيب، ومهما وصلت بنا خطة الحوادث فلن يقال: إنني أفسدت بيتًا أو فرقت بين من جمع الله بينهما.

وفيما عدا ذلك رأيت وخبرت أنها امرأة من بيت كريم، والقرائن على ذلك ثقافتها ومستوى معيشتها وأدب نفسها، ولكنني كنت ناقدًا أثناء ذلك أدرك عيوب الشخص الذي أحبه أو الشيء الذي أستحليه، وقد عرفت عيوب أوجستا معرفة تامة وعرفت أنها تبذل قصارى الجهد لتظهر أمامي بمظهر الكمال المطلق مثل الأوانس أو الأرامل اللواتي يخفين حقيقتهن أثناء الخطبة، حتى يقع الرجل في الفخ فيذوق في شهر العسل مرارة الحنظل!

كانت أوجستا غيورًا شديدة الغيرة وساخرة لا تفوتها النكتة اللاذعة، وكانت محبة للمال لا لتوفره ولكن لتوفر أسباب راحتها، وكانت تعتقد في نفسها العلم الواسع والخبرة العميقة، وكانت تخفي عني أكثر مما تبدي، والذي نفعني ونفعها أثناء عشرتنا أنني لم أظهر كل ما كنت أشعر من حب وإعجاب، وما فلتت مني فلتة تدل على مقدار تعلقي بها وما ظنت يومًا أنها أصبحت ضرورة لازمة لحياتي. وإنني ما ارتحت إلى حديث امرأة ولطفها أو معاونتها العقلية كما ارتحت إليها. وكان في هذه السيدة نصيب وافر من مواهب الأمومة فهي في حاجة لأن تحيط أحدًا بحنانها، ولو لم يكن ابنها، فأمومتها فياضة من جميع النواحي ولم تكن متصنعة في هذه العاطفة أبدًا، فقد حرصت على حياتي وسهرت على صحتي وفرحت لنجاحي، ولم تحاول مرة أن تعطل

عملي أو تحول وجهتي أو تحبط همتي أو تغريني بطعام أو شراب، أو لهو يعود علي بالضرر ولو كان وهميًّا، وكانت تغضب إذا دخنت سيجارة أو إذا قدم إنسان كائنًا من كان قدح خمر، أو أغراني شخص بالسهر أو عرضت نفسي لتعب يزيد عن طاقتي أو بذلت جهدًا قد تسوء عاقبته، أو أهملت في واجب نحو وطني وقومي وأهلي، وهي لا تعرف أحدًا منهم ولا تربطهم بها رابطة.

وقالت لي يومًا: إني أحبك حبًّا مصحوبًا باليأس؛ لأنني لا يخطر ببالي أن تتزوج مني، وإذا شئت وأردت وصممت فإنني أمتنع وأمانع وأقاوم ولو بالقوة وأفر منك ولو بالحيلة وأقاطعك ولو فيه ضرر عليك وعليّ، فهذه مسألة لا يجوز أن تخطر ببالك، ونحن لم نجتمع بفعل المصادفة والأقدار لأربطك إليّ وأقف عقبة في طريقك، فلا شك أن لك مستقبلًا سعيدًا ومن عناصره زيجة موفقة بفتاة من بنات وطنك ولغتك تعمل على إسعادك، وتعطيك نسلًا وهناءً وحياة محفوظة بالمسرات، ولا أقبل أن أسطو على ثقتك وقلبك فأغتصبها؛ لأن الظروف جمعت بنا في بلد ناء عن وطني ووطنك، ولا أحب أن يأتي وقت تبغضني فيه وتندم على ما فعلت بسببي وتقول: كانت هفوة شباب وغلطة طيش وخديعة امرأة لا ضمير لها. هذا كله يا حبيبي لا أريده وقد حسبت حسابه في يوم وليلة، ولا أخفي عنك أنني فكرت كثيرًا يوم تركنا مثوى راسين (بنسيون) في أن نفترق في لطف ومودة، وأن أختلق عذرًا أو أنتحل حيلة تسهل فراقنا ولو بادعاء السفر إلى روسيا، وأسافر فعلًا إلى الحدود ثم أعود إن لم تواتني الشجاعة على مصارحتك بالأمر، ولكنني أيقنت أن استمرار عشرتنا أمدًا ما لا يضرك مطلقًا وقد ينفعك؛ ولذلك كنت متلهفة على الاجتماع بك بعد فراقنا في جنيف، وأقول: إنني لم أشعر بأنني عروس تزف إلا في ذلك اليوم.

ولكن هذه المرأة التي ذابت في فيرنزه رقة ولطفًا وعطفًا هي التي قلت لها يوم غادرنا بيت راسين عندما داعبتها ضاحكًا: ماذا كنت تفعلين لو أنني أطعت إيعاز هؤلاء الناس الذين يزعمون أنهم يرعون مصلحتي، وسافرت عائدًا إلى ليون أو فضلت أن أقيم معهم، فأغضي عن هفوات العجوز بيدو وأحملها محملًا حسنًا وأنها تبذل لي النصح؟ فاصفرّ وجه أوجستا وارتجفت شفتاها وأوشكت أن تنفجر ولكنها كظمت غيظها وقالت: لو حدث هذا فلا شيء يصيبني وربما كان خيرًا لك ولي، إنني لا أرغمك على شيء فشاور نفسك قبل أن تقدم على عمل تأسف عليه، أتظن أنني أتذلل لك أو أتعلق بأهدابك أو أتشبث بأذيالك. إنني أشكرك على ما منحتني من الهناء أثناء تلك

الفترة وشددت أزري وكفي. وقد أفترض أننا لم نلتق ولم يكن أحدنا في منهاج صاحبه فعلام ننسج لأنفسنا خيوط الكدر.

ولما رأيتها قد تسترسل تحت سلطان الغضب، فيزل لسانها بما لا يمكن الصلح بعده، وكنت أحرص في كل حال على أن لا أكسر زجاجة قلبها، فضحكت وقلت: ها أنت غضبت وأنت ترينني جالسًا معك في البيت الجديد فكيف تفكرين في كل هذه الخطوات والفروض والظنون؟ إن الدنيا هينة عندي في جنب رضاك. وكان صلحًا سريعًا بعد غضب سريع، وقد أرشدني قلبي إلى ما أرشد إليه صياد بغداد إذ قال للجن: لا أصدق أنك وأنت عملاق لا أبلغ أخمص قدمك كنت حبيسًا في هذا القمقم الصغير، فأثبت له الجن أنه كان مسحورًا ثم دخل سجنه النحاسي ليقنعه، فبادر الصياد إلى سدادة القمقم ووضعها على فوهته، وكذلك أوجستا فإنها لما علمت أنني اشتريتها بخصومها ووجدت الثمن بخسًا أخلصت لي وأظهرت لي أنها متفانية ولحقت بي إلى شاربونيير وكأنها قفزت في عالم مجهول؛ لأنها لم تكن تعلم ما يصادفنا في الحياة، ولكنها كانت مصممة على أن تصحبني وتعينني حتى أفوز في الامتحان لترى بنفسها نتيجة عشرتنا؛ ولتثبت لي أنها كانت عنصر خير ونجاح، وأن ظنون آل راسين قد خابت وأن نار مكايدهم قد خبت، فكان من حظها أنها راهنت على جواد رابح.

وإذن فلم أكن فريسة وهم في علاقتي بها ولم أكن من الجهل بأخلاق النساء في الدرجة التي توهم بها حداثة سني؛ لأنني وإنْ لم تسبق لي صلة وثيقة كهذه الصلة فإن القراءة والمراقبة والملاحظة تكفي. ولو كان حبي أعمى أصم إذن لازدريته وازدريت نفسي، ولم يكن ليرغمني على البقاء عليه أي هوى؛ لأنه لا حب إلا مع البصيرة الصافية وكذلك كما قال العرب قديمًا وجوته حديثًا: لا بصيرة لمن لا يحب.

لا أنكر أنني عاشرت أوجستا في أول الأمر على دغل، وأنني كنت أحذرها وأخشاها وأسيء الظن بها، حتى إنني فررت من وجهها فسافرت من لوزان إلى باريس، وكنت حسبتها امرأة الأقدار Femme fatale التي يجب على الرجل أن يهرب منها لينجو بحياته، ولكن كان هذا وهمًا من أوهام الشباب والأدب والفن، كما كنت أتوهم أنني قصير العمر وأنني أقضي نحبي في مقتبل الشباب.

نعمة الأسفار

وأظن أنني كنت أغالي في تقدير آرائي قبل أن أسافر إلى الأقطار البعيدة عن وطني، ولو أنني خلدت إلى أرض مصر التي نشأت فيها لعشت ومت على وتيرة واحدة. ولكن نعمة الله عليّ بالأسفار إلى سوريا ولبنان وتركيا واليونان منذ السابعة عشرة من عمري، ثم مواصلة الرحلة بعد ذلك بأعوام إلى أوروبا وإنجلترا والإقامة في فرنسا غّيرت حياتي، وبدَّلتْ نظرتي إلى الكون والوجود وإلى شخصي وجعلت الأفكار التي ظننتها ثابتة الأساس راسخة الأركان تتهاوى وتتداعى كالحجارة في جدار يريد أن ينقض، وإذا بكثير من الحقائق التي غرست في نفسي أوهام وأخيلة، وأن بيني وبين حقيقة واحدة لا جملة حقائق أبعاد شاسعة ومسافات بعيدة. ثم إن أسفاري في ثلاث ممالك في العهد الأخير وفي أكثر عهود الدنيا رخاء من شأنها أن تتيح للإنسان من سعة العقل، ورحابة الصدر ما يجعله قابلًا لكل صورة من صور الفكر البشري، وكأن الحوادث نفسها التي تتولد عن التنقل تطلعك على اختلاف أطوار الجنس الإنساني اختلافًا لا يكاد ينتهي، ولكل خلق من الأخلاق المختلفة قد اكتسب حق البقاء لصاحبه مستقلًّا عن سواه، ومنذ حللت مدينة فلورنس مهد الإحياء (رنيسانس) لمحت في فرح ورهبة بعض الأشياء الأزلية الخالدة أو القوانين العامة، وأظن المرجع لهذا الكشف يعود الفضل فيه إلى روح البلد وإلى تلك المرأة.

رأيت تحت هذا، الاختلاف بين أهل سويسرا وفرنسا وإيطاليا وكنت من قبل أعرف بريطانيا وأيرلاندا وألمانيا والنمسا، لمحت وحدة جامعة ومظهر هذه الجامعة إحساس عميق بتقدير قيم الأشياء، وهذه القيم تكاد تكون متشابهة في أصولها عند جميع الأمم في كل بلد وفي كل عصر وهي الحق والخير والجمال. وفي فيرنزه هذه بالذات رأيت العناصر الثلاثة مجتمعة، وفي سويسرا رأيت الحق يعلو أحيانًا على الرغم من قوة الظلم والباطل، وفي فرنسا رأيت كثيرًا من الخير، ولا أنكر أن للعاطفة التي كانت تملأ نفسي دخلًا عظيمًا في انتباهي ويقظتي وتفتح ذهني، وليست الأحاسيس والمشاعر وحدها هي التي تتيقظ، وترهف بل صفات العقل والروح أيضًا تنمو وتدق وتصقل. وقد يستعين الإنسان بالحب والصداقة الحميمة إذا كان محبًّا للاطلاع أو متوقد العجب، لا تنطفئ من نفسه جذوة الشوق إلى المعرفة والسعي في الوقوف على ما يعتقده حقيقة سواء أكانت ظاهرة أو خفية. وقد يجتمع الشوق إلى المعرفة والتشوف والحب إلى التنقل في وحدة تؤنسها صداقة وثيقة، وأمن منتظر أن يكون طويل المدى؛ لأنه لا

يوجد أطول من آمال المحبين من طبقة المتأدبين وعشاق الفنون الرفيعة إذا لم يكونوا في حاجة للعمل الملح بأسباب العيش ولديهم الفراغ للتأمل ولو إلى أمد. وقد يعينك أن تكون متوكلًا لا متواكلًا، معتمدًا على تصرف الأقدار كثير الصبر واسع الصدر، محدود المطالب قليل المطامع مع غير تشدد في أن تكون طبائع الناس وفق رغائبك، وأن لا يجعل لصغائر الأمور شأنًا في حياته، وقد أرغمت نفسي في هذه السن الفطيرة على أن لا أبالي شيئًا، فأساس حياتي الزهادة وعدم الاكتراث للزعازع، وتقدير الشر الطارئ قبل الخير المنتظر، وهذا الترويض لنفسي أمكنني من ترويض غيري دون أن يشعر بضغط أو إرهاق.

هل كانت هذه الظواهر phenoméne عناصر خلق يتكون أو طبع موروثة تغذيه الغريزة الشرقية الإسلامية، أم شعر الخيام والمعري أم فلسفة شوبنهاور وقد تركتْ كلها أثارًا قوية منذ حداثة سني، فقد كان من أمراض نفسي أنني أندمج في حياة المفكرين الذين أحببتهم سواء أقرأت كتبهم أم عاشرتهم، كان الأدب والتاريخ جزءًا من حياتي. هل كنت أعيش في الخيال أم في الحقيقة. هذا البلد كله خيال؛ لأنه شعر وسياسة وجمال ودين وحب؛ وكله حقائق لأنه تاريخ وجمهوريات ونهضات وحروب، وقد صرت رجلًا في طرفة عين، رجلًا شرقيًّا في حضارة غربية، رجلًا لا يملك شيئًا من حطام الدنيا ويتوهم أنه من أغنى الناس.

عود إلى فلورنسا

إن فيرنزه نفسها لا تحتوي الفنون الرفيعة وضروب الجمال والشعر، بل هي نفسها آية متجسدة ومعجزة وكتلة من نور الطبيعة والعقل الإنساني والإلهام الرباني تشع بأروع المعاني الخالدة، لا يستطيع الإنسان أن يعبر عما ينثال على ذهنه ومشاعره من الأحاسيس والعواطف القوية إلى درجة الانفعال متفرقة ومجتمعة، وإن الهزة التي تعروني الآن للذكرى المجردة كانت تعروني كل يوم كلما أسير في الطرق، وأدخل المتاحف وألقي نظرة ولو عابرة على تمثال أو بناء.

إن يد الطبيعة الصناع هي وحدها ذات الفضل الأول في هذه المدينة فقد وضعتها في واد جميل، وجعلت حولها تلالًا سندسية ذات مناظر فتانة وشقت ذلك النهر «لونجارنو» ثم توجتها بمرتفعات ڤيزوليه التي تبسط للنظر ما خفي من الجمال لسالك الوادي، وتفسح أمامه الآفاق فتبدو آيات الله في محاسنها. وإن الطبيعة هي

التي جعلت الأرض خصيبة والأجسام السليمة والقدود الممشوقة والأعين الساحرة، حتى عند الرجال، وهي التي كوّنت العقول والأخلاق والمواهب ووضعت في الأعين من قوة النظر ودقة الفهم والتقدير، وفي الأيدي من القدرة على الحركة والاتزان، وفي الذوق من خلال التمييز بين الألوان في الطبيعة وبين الاستطاعة على تمثيلها بالمزج والخلط بينها. وأودعت القلب كنوزًا من الجمال وأوحت إلى صاحبها أن يفسرها، ويعبّر عنها ويبرزها ويظهرها بالألوان تارة وبالنحت والحفر في الأحجار والمعادن تارة أخرى، كما أودعت في اللسان الإنساني وما وراءه من ذاكرة وبلاغة وحسن انتقاء وعاطفة جيّاشة تمكنه من التعبير بالشعر والنثر. فكأن التعبير بالموسيقى والشعر والقصة والتصوير والنحت هو وظيفة هذه المدينة، وكأنها مخلوقة لتكون لسانًا ناطقًا وعينًا مبصرة وأذنًا مرهفة وذوقًا حساسًا. فمقامها بين المدن بحسب فهمي في تلك الفترة كمقام الأنبياء بين الأمم، ودليلي على ذلك كثرة ما حشدت الطبيعة في تلك المساحة الضيقة من العباقرة والنوابغ وأرباب الفنون وأصحاب العقول وربات الجمال، وذوات المحاسن الفاتنة وأنطقتهم جميعًا في فترة واحدة من الزمن أو في فترات متقاربة، ومن عجائب الخلق ومعجزاته أنها قد تجمع للفرد الإنساني الواحد جملة من المواهب، كما صنعت لليونارد داڤنشي ولميشيل انجلو ولدانتي ومكيافيلي، فإن دانتي لم يكن ناظم الكوميديا وحدها، بل كان واضع لغة جديدة وراسم خطة جديدة للحياة «ڤيتانوڤا»، فكان مجددًا ومنشئًا، وفعله في إيطاليا مثل فعل زرياب المغني المصلح الاجتماعي في الأندلس، وكان عاشقًا مثاليًّا لبياتريس خلق مثلًا أعلى جديدًا، ووضع مذهب التسامي في الحب وهو مذهب يصون الرجل عن التنزل إلى درك الشهوات بل يدعوه إلى أعلى ويصعده درجات، وأقنع أمثاله وأشباهه بأن هذا التسامي ممكن ومستطاع، وأن علاقة الرجل بالمرأة ليست غايتها النسل وحده أو قضاء الأوطار العابرة، بل إن لها غاية أرفع وأعلى وأبقى وأدوم.

كانت هذه الخواطر تملأ نفسي وفكري طول إقامتي وفي كل خطوة وعند كل نظرة، وقد غبطت الإنجليز الذين اتخذوها مباءة ومثوى يتسللون إليها من كل حدب في الربيع، وإن كان معظمهم مقلدًا ولا سيما طبقة الأغنياء والنساء الباحثات عن المغامرات، وكذلك أهل أمريكا، إلا أن مجرد العيشة في هذا الجو خليقة أن تلطف من خشونتهم وتلين من غلظتهم وترقق من حاشيتهم، فإن الثقافة الروحية تروض الوحوش الضارية، وإنْ يكن الألمان قد استفادوا من إيطاليا أكثر من الإنجليز وتركت حياتهم في أدبهم وحكمتهم آثارًا أقوى، أمثال جوته ولسنج ونيتشه وشوبنهاور بينما

جاء بيرون إيطاليا، ولا سيما البندقية يبحث عن العشق المحرم وقد قرأت مكاتيبه الخاصة وهي تروي أحوال حبه وتسرد أسماء معشوقاته، ولكن قارن بين ما كتب وبين ما خطته يد هنري هينه (وقد قرأت كتبه في فيرنزه)، فتلقى الفرق الشديد في الاستلهام بين الرجلين، وتعطيك المقارنة فكرة صادقة عن الرجلين والشعبين.

لأجل هذا أو لبعض هذا نظرت إلى المرأة التي كانت تعاشرني نظرة جديدة، واتخذتها صديقة ودليلًا ومرشدة ومعينة وشكرت لها أنها أرادت من كل قلبها أن تجاريني في مسلكي وخطتي، وللمرة الأولى وجدت أن الجمال المادي والمعنوي والجو المنعش الذي يحيط بي لا يدفع بي إلى نزوات الشباب أو رغبة انتهاز فرصة الحرية والحياة في أوانها، فاتخذت غذاءً للروح وسكرت من هذه الخمر الحلال وأعرضت عن كل ما عداهما.

كنت واعيًا جدًّا ويقظًا وكنت مدركًا لكل معنى فلم أحفل بشيء قدر إشباع نهمي من هذا الجمال وتلك الفرصة المواتية، وكانت أوجستا سعيدة فرحة مرحة بأنها أسدت إليّ هذا الجميل، وأنني قدرت النعمة قدرها وحمدت الله ثم شكرت لها هذه المعونة.

٦

أثر فلورنسا في النفس والعقل والعواطف

لست بصدد ذكر حوادث الحياة اليومية ولا بوصف خطط المدينة، ولا بسرد معالمها وأعلامها أو الإمعان في ذكر تاريخها، فهذا كله قديم ومدون، وكذلك لست بسبب تعداد الآثار الفنية في متاحفها وقصورها، فكتب المؤرخين وأهل الفن كفيلة بذلك، ولكن الذي أكترث له هو أن أصور أثر هذا العالم الجميل في نفسي وفي عقلي وفي عواطفي ومشاعري، وأنني كلما كتبت أو شرحت أو حاولت التفسير والوصف أشعر بعجز اللغة عن التعبير وقصور الشعر والنثر عن التمثيل، أو تقديم صورة تقرب مما يختلج في النفس، وقد تأكدت أن الإنسان يرتج عليه أمام أقوى المؤثرات فيعوزه النطق ويبقى باهتًا مشدوهًا حيال ما يراه أو يسمعه، وكان من قبل يظن أنه قادر على الإفصاح بعد الإدراك فإذا هو يجد العيَّ مكان البلاغة والعجز مكان القدرة، فلا يرضى أبدًا عما يصنع أو يكتب أو يقول.

إنني أرثي لمن يلجئون للكتب للاستلهام في مثل هذا المجال أمثال ستندال من أشهر كتاب فرنسا، بل أول من طبق علم النفس في فن القصص، فإنه لم يستلهم

الكتب في تدوين رحلته في إيطاليا بل سرق ونهب واختلس من أسلافه فدلّ بذلك على فقر روحه، وكذلك صنع ديماس الكبير، وأعجب كيف عمى هذان الكاتبان الكبيران وصمّا عن قراءة الكتاب الأعظم الذي فتح الله صفحاته لهما وبسطها بين أيديهما.

إن فيرنزه (ما أجمل هذا الاسم وما أوقع أثره في سمعي وفكري!) مثل الداية الماهرة والمولدة الحاذقة، تعين كل ذات حمل على وضع حملها ولا تصف ولادة بأنها عسرة قط، فإن فيرنزه تولد بنات الأفكار وتخرج الحي من الحي بل تخرج الحي من الميت، ولا يدخلها قط إنسان عنده مثقال ذرة من موهبة ويستنشق هواءها ويشرب ماءها ويأكل من خبزها، ويلقي نظرة على خضرتها الخالدة ثم يبطئ في التوليد أو الإظهار ما لم يكن عقيمًا مغرقًا في العقم كالصخر الصلد أو الأرض الجرداء، ولم أفز بشيء من هذه المواليد لفقر طبيعتي وجمود قريحتي ولم يزد حظي عن تفتّح ذهني وشعوره بنور جديد لم أكن من قبل أرى منه شعاعًا، وأخذت معنى جديدًا للحياة ولونًا جديدًا للأشياء والعواطف، وهذا ظفر كبير وخير كثير. لو كنت من أرباب المواهب ولو كامنة لخرجت من فيرنزه شاعرًا أو ناثرًا أو مصورًا أو مثالًا أو على الأقل ناقدًا، ولكنني وا أسفاه خرجت صفر اليدين باكيًا على أن الأقدار لم تهبني موهبة أو لم تتح لي فرصة كافية للحضانة والتوليد.

بين الفنانين البدائيين والمصريين القدماء

ومن لواذع الكلام التي تلقيتها من صديقتي أثناء مرورنا بمجموعة من تصوير مناظر دينية من صنع أوائل الفنانين، ويطلقون عليهم اسم الفطريين أي: البدائيين وهم الذين خطوا أبجدية التصوير في القرن الثالث عشر، ذهلت من تسميتهم وأعجبت بأعمالهم ولمحتُ أثر ذهولي في وجهها، وكانت تعلم أنني زرت متاحف رومه والبندقية وبادوا وبولونيا من قبل. فقلت لها: لم لا تسخرين من جهلي؟ فقالت: لم وأنا أعلم أن فرصة دراسة هذه الآثار لم تسنح لك من قبل بما يكفي لتكوين القدرة على النقد، غير أنك لا ترغب في أن تعجب بالأشياء تقليدًا بل اقتناعًا وهذا يقتضي دراسة عميقة طويلة المدى، وعلى كل حال فلستَ متخصصًا في نقد الفنون، ولا تدّعي ذلك فلو أردته فلا يتحقق لك إلا بعد أعوام وطيّ الأرض ونشر الكتب واللوحات والتماثيل في أنحاء الأرض القديمة والجديدة، فأعجبت بها وزدت احترامًا لها؛ لأنها كانت صريحة، وقلت لها أمر يدهشني في المقارنة بين هذا الفن وفنون المصريين القدماء. فهؤلاء البدائيون الفطريون

primitifs الذين لا يرجع عملهم إلى أكثر من سبعة قرون يتحدون مع المصريين القدماء في شيء وهو الموضوع الديني وبساطة التخطيط والألوان، ولكن المصريين نقشوا أو نحتوا منذ خمسين قرنًا وفنونهم متشعبة، وهنا لا نرى إلا الأم والطفل ويوسف النجار وبعض المجوس يقدمون التمجيد والتقديس للوليد العظيم، أما مصورو مصر القديمة فكانوا يغترفون من بحر بل بحار ويحارون فيما يختارون وإن صورهم لناطقة وألوانهم لثابتة وحجارتهم تكاد تتكلم وتشير وتنادي.

فقالت أوجستا: أنا لم أزر مصر ولم أر فنونها وإن كنت قرأت عنها كثيرًا، ويمكنني أن أقول: إنه لا محل للمقارنة بين هذه الفنون وبين فنون بلادكم. فهذه الصور التي تراها المصورة بأقلام الفطريين كلها من صنع الخيال؛ لأنهم لم يكونوا درجوا على اتخاذ المثل الحية ولم يجرؤ واحد منهم على رسم جسد عار مثل ما صنع اليونان، وصنعت مصر قبلها وكانت العاطفة الدينية وحدها هي التي تدعوهم لاتخاذ الفن معبرًا عن العقيدة لتمجيد الأم والطفل والميلاد السعيد. أما عندكم فقد قرأت أن تقاطيع الوجوه وقسمات الجسم، ناطقة بأشباه أصحابها من الملوك والأمراء، وإنما الذي يؤسف له أن المصورين لم يعنوا بتسجيل صور أفراد الشعب، فقلت لها في رفق: من قال لك ذلك لم يصدقك، فإن الجدران في المعابد والمقابر حاشدة بصور الشعب في الجيش وفي الأسواق وفي الحياة اليومية وفي الصيد والقنص وفي الجنائز، وكذلك أوراق البردي، حتى إن صورة كيلوباترا وأقاربها وحاشيتها من الإغريق تحمل طابع الجنس اليوناني الذي انحدرت من أصلابه، وهي خواص سحنية مميزة تخالف خواص الجنس المصري.

قالت أوجستا: إني أرى التصوير المصري القديم يدخل في اختصاص التاريخ، وهذه التصاوير تدخل في محيط الفن لسبب واحد وهو أن الفن المصري انقطع بانقضاء الزمن فكل الوجود عندكم في الماضي، أما هؤلاء الناس فقد واصلوا العمل ولم ينفرط عقدهم، وصارت سلسلتهم متصلة الحلقات، أما أنتم فتوقفتم، ولو أن الفن المصري اتصلت حلقاته لبلغتم شأوًا بعيدًا وكذلك في كل ناحية من ناحيات الفكر، فانظرْ ماذا صنع قرنان أو ثلاثة من الزمن في هذه البلاد. وماذا كنتم أنتم تصنعون في خمسين قرنًا. فهل تعلم السبب؟ قلت: ربما الانحدار والتدهور والعقم في المواهب، أجابت كلا! بل الدين الإسلامي؛ لأنه حرم عبادة الأصنام، كما صنع دين اليهود ومتى صار شيء غير معبود صار مكروهًا وبغيضًا ومرذولًا، ألا ترى أن هذا الفن الأوروبي بدأ بالدين

وتمجيد العذراء والمسيح والقديسيين وكذلك اليونان جعلوا فنهم مظهرًا لآلهتهم، فمن هي ڤينوس ومنرڤا وأبولو، أوليسوا آلهة وأربابًا وربّات. وكذلك اليهود جاء دينهم بالتوحيد والتنزيه، تنزيه الإله الواحد عن الشبه والتمثيل والتصوير، فصنع الجمال عندهم وعندكم يعد عبادة للمادة (تقصد إلى الشرك) هذا وحده أدّى إلى قتل مواهب الجمال فيما عدا الشعر والنثر والفلسفة. فدهشت من كلامها وقلت لها: ولكن ليس في الدين الإسلامي ما يحرم الجمال وتمجيده وتصويره. أجابت: إذا كان ما تقول صحيحًا، ولا إخاله كذلك فلا مصلحة لك في قول ما يخالف الحقيقة في مسألة عامة بحافز الوطنية، إن مصر هي مصر وطبيعتها ونهرها وجوها وواديها وخصوبتها هي هي، وشعبها كذلك ويمكن القول: بأنها ارتقت وترفهت وتعلمت واستوعبت ومناظرها باقية وأبناؤها زادوا ثقافة وتهذيبًا وامتزاجًا بالشعوب في كل أنحاء العالم، فما الذي عاقها عن إنتاج ما يفوق إنتاج أجدادكم.

الفن بين المصريين القدماء والمصريين المحدثين

يجب أن أرجع بضع سنين في مصر، منذ سنة ١٩٠٢ كان يدرس لنا الرسم في المدرسة الثانوية أستاذ إنجليزي طيب اسمه أندرسون، وكانت تبدو عليه بساطه أهل الفنون وهو أول من علمنا النقل عن الطبيعة في الرسم، فدربنا على تصوير كأس أو إناء أو زهرة طبيعية وجعل لنا ستوديو أو غرفة خاصة بالرسم (مرسم) في المدرسة، وكنا من قبل نجلس على مقاعدنا في الفرقة فكان لهذا الانتقال أثر في أنفسنا، وفي تلك السنة قال لنا عرضًا بالعربية: كل رسومكم زي الزفت كيف تكونون أحفاد الذين خلقوا البدائع في الصعيد وسقارة؟ أليست لكم أعين وذوق؟ إنكم ترسمون مجرد خطوط ولا تحسنون، وكيف رسم أجدادكم الألوان الباهرة؟ وفي آخر الدرس قال بالإنجليزية: زوروا آثاركم واذهبوا اليوم إلى معرض الصور الحديثة بشارع قصر النيل والدخول فيه مباح ومجانًا، فعقدت العزم على الذهاب بعد انصراف المدرسة وزرت المتحف وكان كل شيء في الأحياء الإفرنجية من القاهرة غريبًا وجديدًا؛ لأنني كنت أعيش في حارة أبو نبوت وحارة الوزان بدرب الجماميز بجوار المدرسة وهو حي أرقى نوعًا من حي الأزهر الشريف، وكنت أتهيب المشي في الشوارع الجديدة النظيفة ولكنني تشجعت، وهناك وجدت أندرسون نفسه وبعض الأجانب يلتفون حول اللوحات ويتكلمون، ورأيت من صنعه بعض لوحات ولا سيما صورة لمعبد أبي سمبل، وأدهشني أن تقاطيع الملوك

والآلهة كانت ظاهرة واضحة مع أن كل التماثيل كانت في وضع واحد وهو الجلوس، والأصل منحوت في صخور الجبل وهذه الصورة الزيتية تمثل الصور الحجرية. وأخذت أتردد على هذا المعرض، وأجتذب إليه بعض رفاقي في المدرسة ورأيت أغلبهم لا يكترثون.

وأخذت أتتبع المعارض وكانت تعقد وقتًا في الربيع من كل عام. وكانت المجلات الإنجليزية المصورة بالألوان أحيانًا تغريني، واشتريت مرة مجلة باسم «ستوديو» وهي مصورة وقرأت بعض النقد في الصحف الإنجليزية، فأردت تقليد كتابها، وفي سنة ١٩٠٥ للمرة الأولى كتبت في جريدة اللواء مقالة صغيرة في وصف أحد المعارض ولم يكن نقدًا ولا تقريظًا بل مجرد سرد ووصف. وأخذت أسأل ماذا يمنع المصريين من تقليد الأجانب؟ ولما سافرت إلى أوروبا في سنة ١٩٠٦ أقبلت على المتاحف إقبال الجائع المحروم ولم أترك متحفًا لم أزره في نابولي وروما وفينسيا وبولونيا وبادوا وفيرونا وجنوى، فإنه لا تخلو بلدة إيطالية أو قرية من متحف مهما صغر؛ لأن في كل قرية أو بلدة كنيسة وفي كل كنيسة تصاوير قديمة وحديثة وتماثيل، وقد شهدت ألوف اللوحات في إيطاليا وفرنسا وهولاندا وبلجيكا وإنجلترا وسويسرا وميونيخ وفينا واللوڤر ولكسمبورج خصوصًا، وكان يعينني دليل بديكر وهو دليل أدبي فني يلفت أنظار الجهلاء أمثالي إلى شأن اللوحات والتماثيل المهمة. وأذكر أنني رأيت عشرات الآثار الجميلة، منها تمثال لاوكوون، ودرس التشريح لرمبراند وتمثال ڤينوس العارية المكسورة الذراع، وتمثال موسى في الفاتيكان من صنع ميكل أنجلو وله نموذج من الجبس في مكان آخر، واهتممت بتصاوير رفائيل وانقبضت من الفن الإنجليزي بقدر ما انشرح صدري للفن الأسباني لازدهار ألوانه وبراعة مصوريه.

الدعوة إلى تأسيس مدرسة للفنون الجميلة

وبعد أن عدت إلى مصر جعلت همي أن أدعو إلى تأسيس مدرسة للفنون الجميلة، كالتي رأيتها في باريس في شارع بونابرت وكانت الدعوة إلى مثل هذا العمل في سنة ١٩٠٦ تعدّ من هراء القول وصاحبها من السخافة بمكان، ولكن الله أدركني بدليل حاسم، وهو أن المرحوم مصطفى كامل وكان على قيد الحياة تقدم إلى مجلس نواب فرنسا بعريضة باسم مصر تستنجد فرنسا ضد بريطانيا ورفع إلى المجلس في نفس الوقت لوحة مصورة بالزيت تمثل مصر مقيدة بالأغلال الإنجليزية، وقد وقف لفيف من أهل مصر فيهم مصطفى كامل والشيخ علي يوسف وغيرهما يرفعون العريضة إلى فرنسا وتمثلها

فتاة جميلة كريمة، وهذه اللوحة تقدمت سنة ١٨٩٣ على ما أتذكر فاتخذت منها حجة لضرورة تعليم التصوير وصنع التماثيل؛ لأنها على الأقل تنفع في مسألتنا السياسية. ولكن الحكومة المصرية في سنة ١٩٠٦ كانت واقعة تحت أقدام الإنجليز وعلى رأس الوكالة البريطانية عتلّ زنيم معتد بعد ذلك أثيم، فكان يسخر من كل نهضة أو حركة فكرية وكان يحب أن تبقى مصر في جهالة سوداء لترسف في أغلال الذل والاستعباد إلى الأبد، فكيف يسمح وهو القابض على زمام المال والمعارف بتأسيس مدرسة للفنون الجميلة أو تشجيع النحت والتصوير، وطالما انتقدت فنون مصر الحديثة التي تتجلى في تزويق بيوت العائدين من الحجاز وهي تمثل جمالًا ورجالًا ونساء لا يختلفون عن الجمال، ثم كانت تطبع صور تمثل أبو زيد الهلالي والزناتي خليفة ودياب بن غانم وهي صور بشعة فظيعة، وكان هذا هو المظهر الوحيد لفنوننا الجميلة في سنة ١٩٠٦.

فلما اعترضت أوجستا على فقرنا الفني لم أستطع أن أشرح لها الأسباب على حقيقتها؛ لأن الشرح كان يقتضي أن أذكر نقائص أمتي وعجزها وضعفها. نعم إنها كانت تعرف وترى بعض نواحي جهادي بالصحف والمؤتمرات، وهي أمور عامة ولكنني لم أرد أن أذكر لها الحقيقة كاملة في كل ناحية من حياتنا. وكم من ناحية راكدة ومتقهقرة ومتدهورة تحتاج فيها مصر إلى الحياة والانتعاش والازدهار من ١٩٠٦ حتى الآن وبعد الآن؟!

خلود الفن

ما هذه الثروة يا رباه؟! ما هذه النعم؟! ما هذا الغنى؟! سبحانك ما أعظم كرمك وعطاءك لمن تحب وتختار! ما مال قارون؟! وما كنوز الذهب والفضة؟! ومن هم الأوغاد أرباب الملايين وملوك الحديد والبرنز والجاز والكهرباء والزيت والسموم والهموم حيال هذه الكنوز من العقول والمواهب والجمال؟! إن الذهب والطين والأوحال والرجال والمصارف والبنوك كلها فانية وهالكة، ولكن ذرة من هذه المواهب تزيد في الوزن عنها؛ لأنها خالدة وأزلية؛ لأنها معان ومن فيض الله ومتصلة بالله وباقية؛ لأنها أشعة من نوره، وكل الفنون والأفكار التي ألهمها الله لمخلوق سواء أكانت في الجاهلية أو الوثنية أو بعد ظهور الأديان، وسواء كان الملهم وثنيًّا عاكفًا على الأصنام أو ملحدًا أو مؤمنًا كلها لله وقربان لله ومدعاة لتمجيده وتسبيحه، وأضعف مصور أو شاعر أو فنان وأفقره وأحقره ولو كان لاصقًا بالتراب يعد إنسانًا وقدره أعظم ألوف المرات من

أقدار الأغنياء جميعهم؛ لأن فنه وموهبته ونبوغه جزء منه، أما أرباب الأموال وحتى الملوك فكل ما يملكونه ويتحكمون فيه منفصل عنهم لا يخرجون من الدنيا بشيء منه، وقد يورثونه أبناءهم وأحفادهم ولكن حكم هؤلاء حكم أسلافهم ومورثيهم؛ ولهذا يتفانى صغار هذه الدنيا الذين يسمونهم عظماء ويتهالكون في اقتناء آثار الجمال، ويبذلون أموالهم في سبيل اقتنائها ويتشرفون بالحصول عليها وهم مستعدون لبذل مهجتهم إن استطاعوا أن يتشبهوا بمبدعيها، وقد يكون الشاعر أو المصور أو الموسيقى أو المثال قد مات جائعًا عاريًا مرتجفًا من البرد وتباع آثاره بالألوف؛ لأنه خالد وكل الآخرين زائلون، وهذه المدينة نفسها كانت دليلًا على هذا، فهؤلاء الكوزمات والمديتشات واللورنزات وبيتي وسفورزا وستروز مثلوا أدوار الميسّين أو حماة الفنون والآداب مثل خلفاء المسلمين الذين اشتهروا بحماية الشعراء والخطباء والكتاب، فخلد الخلفاء في أبيات من الشعر ولو لم تكن تلك القصائد ما عرف أحد أسماءهم ولا اكترث بهم.

ويحضرني حوار طريف بين عمر بن الخطاب وبين أحد أبناء هرم بن سنان ممدوح زهير بن أبي سلمى:

قال عمر وكان ناقدًا لبقًا وصريحًا وشجاعًا: لم لم يمدح زهير أحدًا غير جدكم.

قال حفيد هرم: لأن أحدًا من العرب لم يصله كما وصلناه، ولم يعطه ما أعطيناه.

أجاب عمر: إن بيتا من قصيدة من شعر زهير بكل ما ملكتم وورثتم فربحتم وكان مغبونًا في تلك الصفقة.

هذا عقل عربي صميم دقيق الفهم مدرك للحقيقة وكان خليفة راشدًا — رضي الله عنه.

لوحات وتماثيل

لك الله يا فيرنزه! ولكل من تنفس في جوك وعاش على أرضك، وأظلَّته سماؤك في كل الأجيال.

إنني لا أستطيع ولا في بضعة مجلدات أن أحصي ما رأيت أو أسرد ما أعجبني وأدهشني وأذهلني، لا لوفرة التحف وتعدد الألطاف بل لوفرة المزايا الفنية والمحاسن النوعية والمعاني التي لا تحصر لتلك الآثار من تماثيل ولوحات وطراز (تاپيسري)، ومنها القديم المنيف وفيها الجديد الطريف، وفيها تقسيم بحسب الفنانين وآخر بحسب القرون، وتقسيم آخر بحسب المدارس والمذاهب والأنواع كمناظر الطبيعة وصور

الأشخاص والصور الرمزية والخيالية والأساطير من قديم عريق، ومن حديث قريب العهد، وكلها كثيرة العدد كثيرة الاختلاف شديدة التنوع. ففي الماضي كل الوجود، أنظر إلى تماثيل السقيفة (لوچيا) وفيها ميدوزا ذات الرأس التي كل شعرة من شعرها أفعى ملتوية وهي أسطورة أفرغها تشيليني في البرنز، وأنتقل منها إلى تمثال النبي دواد في شبابه في ساحة بياتزا لميكيل أنجلو وإلى تمثال حجري صغير لا يتجاوز حجم اليد والمعصم يمثل ليدا وفرخ الأوز في وضع غرامي خيالي، وهي من صنع ميكل أنجلو، تخيل اليد التي أنتجت تمثال موسى النبي وداود النبي هي التي أنتجت تمثال ليديا ذات الجفون الناعسة تقبل منقار طير، وترقد له رقدة عجيبة لتطفئ شهوتها وقد نشر الفرخ عليها جناحيه، بينما يصعد المصور إلى عنان السماء في موسى وداود، تراه يهبط ليروي بلغة الحجر حب إنسية لطير جامح، ولكن لا فرق في الجمال والمعنى والموهبة بين تمثال موسى البالغ أربعين مترًا مكعبًا من المرمر والفن والجمال، وبين حجم الكف والمعصم من حجر الطلس الأحمر في زاوية متواضعة من زوايا متحف الفن الحديث.

هنا تجد اللوحات التي فيها دعوة الطبيعة الجذابة من أشجار وأنهار وبحار وشموس وأقمار وكواكب، وترى ذلك كله في الجو الصافي الناضر وفي الألوان الرقيقة المتنوعة. وفيها اللوحات الواضحة المنيرة في الرسم والألوان، فتعجبك بضوئها وألوانها وغيرها تعجبك بقوتها في التعبير وثبات التكوين.

ومن أميز اللوحات تصاوير الأشخاص مثل إنتاج ليوناردو ومنها جيوكندا وجان باتيست وفرانسوا الأول ودوقة سفورزا، ومن أعجبها في القديم «العشاء الأخير» يمثل المسيح والحواريين، وبينهم يهوذا الأسخريوطي والفرق بين اللوحات الأولى، فقد صنعها ليوناردو عن الأشخاص أنفسهم أي: نقلًا عن الحياة، أما صورة العشاء الأخير فقد تخيل أشخاصها بأن انتقى نماذج بشرية من أحياء يشبهون في أخيلته وجوه الحواريين، وفي صورة جيوكوندا تجد السماء ثقيلة واطئة تغمر كل شيء في الأفق بضوء غائم تشطره الأشجار بسوقها السود، ومن اللوحات ما أبدعته يد ساندرو (بوتيشلي) وهو يستعمل الألوان فترى الأحمر الوردي في الثياب من المخمل والذهبي العسجدي في الوشى والتحلية والتطريز واللون الأصفر الفاقع، ثم اللون الأخضر في لوحة جوديت ولون الفجر وشفق الصباح ولمعة الخنجر في يدها.

وفي فن بوتيشلي ميل ظاهر ثائر للتجديد بالنسبة لعصره (القرن الخامس عشر)، واحتفاظ قوي مطمئن بالتقاليد. ولكن إنتاج بعض معاصريه من أبناء فيرنزه التي ما زالت وطن الفن الخالد، لا يضارع إنتاجه في صورة الربيع (بريما فيرا) وميلاد ڤينوس وصورته الرمزية عقوبة التميمة. وإنك إذ يبهرك جمال ليوناردو وفيليپو ليبي وساندرو تقدر أسلافهم وأساتذتهم؛ لأن هؤلاء الأفذاذ الذين ذكرتهم لم يكونوا ليظهروا أو يبهروا لو لم يتبعوا السبل التي فتحت لهم بعد جهاد العظماء السابقين.

معجزة الألوان في الرسم

وطالما بهرتني معجزة الألوان ومزجها وأظنها للفنان بمثابة دقة المثال؛ لأن اللون يعطي الحياة، فإن اللون الأخضر في صورة البريماڤيرا لا يقل شأنًا عن لون اللؤلؤ والدر والأصداف التي تملك الألباب في ميلاد ڤينوس، وكذلك الأحمر الأرجواني في تصاوير رفائيل والخمار المخطط في ثياب العذراء من صنعه. إن الحمرة الأرجوانية المشرقة تحت أشعة الشمس تحت ريشة هؤلاء تبدو حينًا قاسية صارمة وحينًا تبدو مهدئة مريحة للعين في ثياب أمير أو زفاف عروس، أو طيلسان مجوسي في مولد المسيح في هذا الضوء الباهظ الذي يغمر كل شيء حتى الملائكة الطائرين فوق السقيفة.

قد تتضاءل كل القيم الفنية في كل شيء كما رأينا في ظهور الكوبيست وروسو ليدا ونييه، وفي مقاييس اللوحات كما رأينا في فن جوستاف دوريه الذي يصور آدم وحواء وجنة الفردوس بحجم ظفر الأنملة (وقد رأيناه في بيته وقد صار متحف آثاره في مونمارتر)، وقد تتضاءل القيم في أخص خصائص الفن، كما نرى في الريالزم والسيريالزم (الواقعي وما وراء الواقعي) وتشويه الخلقة البشرية والاكتفاء بشكل ثلاثي للتدليل على الرأس البشرية (مثل صورة البهلوان) وتصاوير البحر الجديدة، وليس فيها من البحر إلا ألواحًا خشبية يفترض الناظر والناقد رغم أنفه أنها تمثل بقايا السفن! ولكن الألوان لا يمكن الاستغناء عنها، فهي التي تمثل ألوان النور والبرد والضباب في لندن وعلى جسور الأنهار وفي مدينة ليون وانعكاسات الرمادي والأزرق الصافي والأبيض اليقق، وانطباعات اللازوردي وانطباعات البنفسجي والفيروزي والياقوتي وكافة ألوان الجواهر والمعادن.

رسم الوجه

ولنعد إلى مهارة مصوري فيرنزه في رسم الوجه البشري. فمن صنع بوتشيلي صورة ثلاثة رجال الفتى والرجل والشيخ، وأريد أن أعبر عن دهشتي أمام هذه الرءوس الثلاثة، وقد جمع فيها الفن ما لم يسبقه أحد في التأليف بين السذاجة والدقة وعمق المعنى وبعد الآفاق.

ولكن سيد المصورين في كل ما تناوله ولا سيما الوجه الإنساني هو ليوناردو داڤنشي مصور الجيوكوندا ولم أرها في فلورنس؛ لأنها من كنوز اللوڤر وقد سرقت سنة ١٩١٢، وكادت الدنيا تجنّ لفقدها. إنها صورة امرأة ساحرة بابتسامتها ونظرتها وليس فيها غيرهما ولكن لم يصور أحد ابتسامة أو نظرة كما رسمها ليوناردو، إنها معجزة الأسرار والغموض والخفاء، إنها حيلة المرأة ومكرها وحياءها وشوقها وكبتها ورغبتها وصرختها وصمتها وبلاغتها وقوتها وضعفها، لقد فُتنت بهذه الصورة أمدًا طويلًا وما أزال أتحرك لها كلما رأيتها أو تذكرتها، وإن سرها لا يعلمه أحد غير مصورها ويمكنني أن أفسر النظرة والابتسامة، ولكن أفضل أن أحتفظ بسري لنفسي فإن فيه فتنة لغير صاحبه.

بين الأسماء العظيمة لأرباب الفنون الذين رأيت لوحاتهم دوناتيلو وبيليني وچير لانداچو وفرايا بارتولوميو ورفائيل وفيليبو ليبو وڤيروكيو وجيوتو وبنڤنتو تشيليني وعشرات غيرهم، وقد تأثرت بأعمالهم ولا سيما عودة چوديت وهي في متحف أوفيتشي بفيرنزه وهي من صنع بوتشيلي، كذلك المادونا (العذراء) ولكل عذراء صفة تميزها، فالعذارى خالدات بمئات الصور كذلك الطفل يسوع، وإن بوتشيلي العابد المتبتل المصور لميلاد المسيح في أكثر من سبع لوحات هو صاحب مارس وڤينوس وهي صورة وثنية فيها أجمل صورة للجسم البشري، وقد فتن بتصوير موسى النبي في خروجه من مصر على رأس شعبه وتصويره وهو يسقي لبنتي شعيب كما رسم دانتي وبياتريس وكل ذلك في مستهل القرن الخامس عشر، وقد رأيت له في فلورنس وحدها خمسًا وعشرين لوحة في متحف الأكاديمي ومتحف أوفيتشي وقصر بيتي وقصر كابوني (وهم غير آل كابوني الذين جعلت منهم أمريكا السكسونية قتلة ولصوصًا)، وفي كنيسة أوجنيسانتي.

وقد خطرت ببالي مسألة شغلتني وهي كيف صور بوتيشلي العذراء والطفل والقديسين والملائكة والمجوس؟ لقد علمنا أن داڤنشي نقل صورة جيوكوندا عن موناليزا وهي امرأة من لحم ودم أحضر لها ليوناردو الحواة والبهلوانات والموسيقيين والمهرجين

ليطربوها ويلهوها ويعدوا نفسها للسرور والضحك حتى تبدو بأشرح صدر، وأعدل مزاج وأجمل وجه أثناء التصوير، ولكن العذارى والأطفال والملائكة وإلهات الجمال والحكمة كيف صورها بوتيشلي ورفائيل؟ الجواب سهل. نساء زمانهم المعاصرات وقد يكن معشوقاتهم أو معشوقات أصدقائهم أو زوجاتهم أو إخوانهم وبناتهم، فكل امرأة وكل رجل وكل صبي يصح أن يكون نموذجًا بشريًّا ولو كان مأجورًا، ولو كان بائسًا ولو كان متسولًا ما دام المصور يلمح في وجهه معنى من المعاني يصلح لفكرته، وقد تشاء الأقدار أن تخلد المرأة أو الرجل المجهول في لوحة باقية لا تقدر بمال بسبب المعنى والفكرة واليد الصناع، فتصبح قطعة من النسيج الخشن ورطل من الزيت وأوقية من الألوان ولوحة من الخشب بعد أن مرت بمخروط الذهن العبقري أغلى من الذهب والماس والزمردة والبلاتين مجتمعة.

لوحات بوكلين

وما أنس لا أنس لوحات بوكلين التي رأيتها مع أوجستا بعد ذلك بسنة في متحف بيتاكوتيك في ميونخ وفيها غرفة خاصة بآثار هذا المصور وحده وهو ألماني تخصص في رسم البحر، واتخذ له لونًا إلترامارين (الأزرق المستخرج من قاع البحر وهو أغلى الألوان). ولكن بوكلين رسم النامف (وهن نساء عاريات) في غشاء رقيق من ماء البحر وهن سابحات، فالماء يستر ويفضح ويكتم ويفصح ويخفي ويشرح، وهن يسبحن ويمرحن ويلعبن ويضحكن وكل واحدة منهن فتنة، وإنك ترى حبب الماء وزبده وموجاته الصغيرة وتلمس تياره ومده وجزره ولعب نسيمه كما تلمس تلك الأجسام الغضة البضة البيضاء بلون الفضة المشربة بلون الورد حتى الشرايين والأوردة بزرقة الدم النابض والعضلات الناطقة بحركة الحياة، وحتى ثنيات البطون وعاج النهود البارزة، وسواد الأعين الدعجاء وتكاد تعدّ الأهداب.

ولهذا المصور نفسه لوحة نادرة جديرة بالذكر في نفس المتحف بميونيخ وهي صورة عابدي النار وأخرى نعتها «جزيرة الموت».

أما عباد النار ففي غابة مظلمة قاتمة والكهنة أشباح أقزام مجللة بالبياض، أقزام بالنسبة لعمالقة الأشجار وبالنسبة لبعد الأفق. وهم ذاهبون مدبرون مولو وجوههم مقابل أتون صغير فيه نار موقدة وهم مقبلون عليها، وكلما بعد الأفق عن نظرك كلما توارى الكهنة، ولكن الصورة التي تمثل فكرة وليس فيها وجه إنساني واحد تبعث في

نفسك رهبة غريبة هي حالة نفسية للمصور وقت أن صنعها. هل ساح في الهند؟ إن الصورة ليست من صنع الخيال؛ لأنها تنبض بالحياة وإن الغابة تبعث إليك بالرهبة التي توشك أن تكون رعبًا.

وأما اللوحة الأخرى فخليقة بأن تقف القلوب في الصدور وتبعث بالانقباض والضيق «جزيرة الموت»، ما هي إلا قطعة من شاطئ بحر مهجور وجدار متهدم حوله أشجار السرو وفي وسط الجزيرة قبر متهدم. هذه جزيرة الموت رآها بوكلين هي أيضًا، وتأثر بها ورسمها وليس فيها كائن حي لسبب بسيط صحيح وهو أنها جزيرة الموت.

أليس عجيبًا أن يجمع هذا المصور بين الحياة الضاحكة المتحركة المرحة الصاخبة في بنات الماء، وبين الألوان الزاهية الزاهرة حتى كاد لون البحر في الرسم يفوق لون البحر في البحر، ولا عجب فإن الشيء من معدنه لا يستغرب، والفضل فيه للعبقري؛ لأنك لو أخرجت طنًّا من لون «إلترامارين» وكدسته ولم تمر به ريشة بوكلين لما كان يزيد قدره عنه ثمنه بالفرنك أو المارك أو الدرهم والدينار.

ولكن نظرة العين وحركة اليد وعقل الرجل جعلت اللوحة أغلى من البحر. هذا استطراد لم يكن له موضع. ولا سيما وأن بوكلين ألماني حديث (القرن التاسع عشر)، وأنا بصدد أساتذة الفن في القديم لا الحديث، وإنما هو من وحي فيرنزه وقد دلتني عليه أوجستا وصحبتني فحججنا إليه.

ترى ماذا يحتاج الرجل الحديث في ثقافته؟ الرقص والموسيقى والأدب والفنون الجميلة وآداب المجتمع والأناقة في الثياب وممارسة الألعاب ورياضة البدن وسعة الاطلاع وكثرة الأسفار والإلمام بالأخبار، ومعرفة اللغات وحسن المحاضرة وإتقان فن الحديث ومغازلة النساء وإحسان فهم الأعمال، والوقوف على حيل الرجال ومعرفة أخلاق الناس والاحتفاظ بالأصدقاء وعلم السلاح، واتقاء الأعداء تارة بالحيلة وطورًا بالقوة وتدبير المعاش وموازنة المال وتذكر مواعيد المواسم والأعياد ومواليد الأقارب والأحباب ومشاركة القوم في أفراحهم وأتراحهم ... كل هذه وغيرها بعد أن يكون وارثًا مالًا أو متعلمًا فنًّا أو متقنًا حرفة تكسبه القوت والكساء، وتقوم بأوده وأود ذويه وفي كسبه حق معلوم للسائل والمحروم، ثم لا بد أن يكون له جانب مع إله يعبده في أوقات عبادته واحترام لسادته وتوقير لأساتذته وشفقة على الضعفاء والمرضى.

ترى هل يستطيع إنسان أن يقوم بكل واجبه ... بعض واجبه فتصبح الحياة رقًّا وعبودية ... نسيت الحب والزواج والعدل في معاملة النساء والعفة والإباء، الرحمة يا رباه!

٧

بيت ماكياڤيللي

كانت حياتنا في فيرنزه منظمة مرتبة وخططنا معدة ممهدة.

في الصباح نقصد إلى معهد من معاهد العلم أو متحف من المتاحف لزيارة أثر من الآثار المشهورة له علاقة بدراستنا في الأدب أو التاريخ أو الفنون.

ومن هذه الآثار التي زرناها بشغف عظيم بيت مكيافيلي وهو ما يزال قائمًا في شارع جويتشارديني كما كان أثناء حياة صاحبه، وقد تتبعنا خطواته وتقلباته وتطور حياته، وقرأت أثناء تلك الفترة كتابًا عظيمًا وهو تاريخ الجمهوريات الإيطالية تأليف سيسموندي وإلى جانبه جزءًا من تاريخ جويتشارديني وهو وزير فيورنتيني (نسبة إيطالية إلى فيرنزه)، وشهدنا تمثال مكيافيلي في متحف أوفيتشي وزرنا قبر مكيافيلي في كنيسة سانتا ماريا نوڤيلا، وقد لحقه بعض البلى والتهدم ولكنه اسمه مكتوب عليه بوضوح وكذلك تاريخ مولده وتاريخ وفاته.

وكانت الأصبحة رائعة واضحة تغري بالطعام الشهي ورياضة البدن وسرعة الحركة وكثرتها وتبرئ الأجسام من علتها، وكانت أوجستا امرأة صبوحة ذات نشاط ودربة تبكر في يقظتها وتبادر إلى أداء ما يقتضيه الوقت والرغبة فهي مؤاتية، ففي هذا اليوم بكرنا كعادتنا وكانت السيدة المحبوبة تنسجم وتندمج في حياتي بقدرة فائقة، ولا يوجد في العالم امرأة مطيعة مهاودة مسالمة كالمرأة المحبة. وكانت هذه المرأة منسجمة في رزانة وتؤدة وتخفي اشتعالها بالباطن، ولكنها كانت تضيء وتبدو حرارتها ونورها في وجهها ومشيتها وقضاء حاجاتي كأنها أداة موسيقية طيعة، وكأنها كبتت إرادتها وقد عاودها جمال الشباب الأول كأنها عذراء مفتونة فبدت جميلة كثيرة الحركة تعمل أعمال البيت وكأنها ترقص أو تغني، فكان اهتمامها بطلبي كأنها صورة ثانية مني تلبي بل تتنبأ بما أريد، وقد أعدت كل ما تظن أنه ينفعني في زيارة آثار مكيافيلي وتصحبني في حماسة العالم والدليل المتنور وقد جمعت ما استطاعت من الكتب عن مكيافيلي من المكتبة العامة، واشترينا من الكتب مما له علاقة بتاريخ الرجل وعصره من الكتب والرسائل والصور وكذلك عن ساڤونارولا.

وفي فيرنزه أستاذ في الجامعة ألف كتبًا ضخمة عن عظمائها باللغة الإيطالية وكتبه مترجمة إلى الإنجليزية لتنوير الزائرين من الإنجليز والأمريكان، حتى وجدنا

الجو التاريخي وكنا نشتم عبقه كأننا نعيش في زمنه، وترى هذه الفكرة مجسمة فيما كتبته في مقدمة كتاب الأمير وقد أهديتها مطبوعة إلى أوجست فيليبوفنا رمزًا إلى اسمها واعترافًا بفضلها عليّ في تلك الفترة وكان هذا عدلًا وواجبًا علي.

وكنا أثناء تلك الجولات الصباحية كأننا محمولين على أجنحة الملائكة وكأننا عروسان في شهر العسل، حتى إذا جاء المساء كنا كأننا في حفلة زفاف وكل الجدال والأدب وأشخاص التاريخ والفنون مدعوون لدينا يقيمون أفراحنا، ولم يكن معنا أحد من بني آدم غير أشباح الخيال والذكريات والكتب ومناظر المدينة، ولكن هذه الأشباح والأخيلة تتجسد بقوة الحب وبالشوق للمعرفة. وكانت هي تقرأ لنفسها وتكتب وقد تضاعف نشاطها ونمت حيويتها وازدهرت وقالت: إن هذه أسعد أيام حياتها وأهنأ لياليها، وكنا ننام قليلًا جدًّا ولكن مهما قلت ساعات النوم فهي تكفينا للحيوية التي تسري في أبداننا سريان الكهرباء في الأسلاك، فتصير نورًا وحرارة وقوة.

وقد فهمت كيف أن الحب والوفاء والشوق إلى المعرفة تضاعف حياة الإنسان وكيف يكون الجمال، جمال الطبيعة والفنون يضيف عمرًا إلى عمر الإنسان ولعل هذا أحد معاني البركة في الحياة، وأساس كل هذه الأشياء والقوى، الحب وهو أكسير الحياة وليس حب المرأة إلا صورة منها، وعرفت كيف يمكن ازدراء الشهوة البدنية حتى في مقتبل الشباب؛ لأن هذه الشهوة أو الحب الجنسي رغبة عند الجهلاء والأفدام لإكمال المتعة وشعور غامض برغبة التملك، وكانت لدينا شهوات روحية وعقلية كثيرة جدًّا، وقد أردت بتدوين هذه العبارة لأقول: إن كل ما يذكره المحبون عن الهوى العذري أو الهوى الأفلاطوني صحيح، بشرط أن يكون الحب الروحي مستندًا إلى رغبات عقلية تستغرق القوة ولا تؤذي شخص المحب، ويرجع الفضل في هذا إلى اعتدال مزاج المرأة وضعف حيوانيتها لا حيويتها، وأقرر أيضا أنه لا يمكن لرجل أن ينتج أو يفلح أو ينتصر بغير حب وبغير رعاية امرأة محبة، وإني أرثي لفاقدي الرجولة من أرباب المواهب بل أعتقد أنه لا موهبة بغير ذكورة، وما دام الرجل والمرأة واثقين من الاستجابة عند الاضطرار فالحياة مجيبة، وكذلك النمو والعظمة والفوز، ولكن إذا فقد هذا الشرط فلا أظن أن الأمور تستقيم أبدًا.

وذهبنا إلى المكتبة العامة فأعانتني على قراءة القوائم (كتالوج)، وأخرجنا منها الكتب الخاصة ببحوثنا وأهمها عن النهضة «رنيسانس» وتاريخ الفنون وتراجم مكيافيلي وساڤونا رولا، ومن أهم الكتب ما ألفه بروكهارت وسيموندز وهو بالإنجليزية في ثلاثة مجلدات.

بطيخة

وبينما كنا نسير ليلة في الميدان الكبير الموصل إلى منزلنا رأينا نورًا قويًّا وحوله أمة من الناس فقصدنا إليهما وحسبنا أن خطيبًا يخطب أو ممثلًا أو سامرًا حول مهرج باهر أو حاو حاذق. فلما وصلنا كانت دهشتنا عظيمة إذ رأينا قزمًا صغيرًا يتحكم في الجمهور وبين يديه بطيخة ضخمة أطول منه وأعظم وهو يبيع منها بالكيلو في أوراق شفافة، وقد جعل ثمن الكيلو فرنكين (ليرتان) فاشترينا وحملنا، فإذا بالبطيخة مثلوجة وإذا بقشرتها الخضراء رقيقة جدًّا ولتلك الفاكهة لحم متماسك وخفة وحلاوة شديدة ومشبعة، فلم نستطع أكل كل ما اشترينا ولم نزهد في بقيته فأبقيناه إلى الغداة فإذا البطيخة لم تفقد شيئًا من جفافها وخفتها وحلاوتها وتماسكها، وكأنها مقطوعة لساعتها وإن يكن أثر الثلج قد زال منها، فأكلناها بشهية عظيمة، ثم تعودنا في كل مساء أن نعرج في رواحنا على صاحبنا القزم، وكان دقيق الوجه واليدين حاذق القطع بالسكين في تلك البطيخة الضخمة الفخمة التي تشبه صورة مصغرة للكرة الأرضية (مايموند) ولم أر مثلها في باقي حياتي، وإنما رأيت ما يقرب منها في العريش، وأضخم ما رأيت في الأرياف لا يزيد عن ربعها.

وكانت أوجستا تحب الفاكهة فتجوس خلال الأسواق، وتشتري ما يروقها ومن ذلك الخوخ والبرقوق، وأسواق الفاكهة في إيطاليا تقوم على المساومة، ويدخلها الغش والغبن في معاملة الأجانب وفي بعض الباعة غلظة وجفاء طبع إلا القصاب الذي رتبناه، فكان له حانوت من أجمل وأنظم ما رأيت في مدن العالم فهو أشبه بهيكل مقدس؛ لأن له مدخلًا فخمًا مزينًا بالمرايا والمرمر وفي صدر الحانوت منصة عالية من المرمر والخشب الثمين، وأمامه عدد من الموازين اللامعة وقد صفت قطع اللحم وهي مرصوصة كالجواهر المرصّعة من كل جزء من الأنعام، وعلى أنصبة معينة للمفرد والمثنى والجمع من الطاعمين وبأثمان محددة، ثم إنك لا ترى زحمةً ولا دمًا ولا ذبابًا ولا قططًا ولا كلابًا ولا رمادًا ولا ترابًا، وكنت لا آكل اللحم ولكن أوجستا تأكله وتشرب النبيذ، ولم أشأ أن أستغويها للإقلال من أحدهما؛ لأنني أعرف أن أهل روسيا يغادرون بلادهم وفيهم ضعف موروث وميل للتغذية للتدفئة، وما دامت تعد لي طعامًا لا يدخله اللحم ولا تعرض عليّ بنت العناقيد فلا معنى للاعتراض عليها.

ساڤونارولا

وفي يوم ثان زرنا دير الدومينيك وهو الدير الذي نشأ فيه جيورولومو ساڤونارولا وله تاريخ حافل، وقد أصبح الدير كله متحفًا لهذا الرجل العظيم الشهيد الذي ضُحي به وحوكم وصلب وأحرق، لا كتبه وحدها بل جسمه وذُري رفاته في النهر. وكل ذنبه أنه عندما استشرى الشر في المدينة أراد أن يدعوها إلى الخير والاستقامة، وحاول أن يحكمها حكمًا دينيًّا فيه حزم وشدة ولولا مخالفته كنيسة روما وحملته عليها ما تعرضوا له؛ لأن الكنيسة تساعد الحكام الأقوياء ولو كانوا ظالمين بشرط مشاركتهم في استغلال الأمم، ولم يكن ساڤونا رولا ممن يحذقون فن الاستغلال بل كان ثائرًا على كل المظالم ولم يكن لبقًا ولا مداورًا فلقي حتفه جزاء إخلاصه واستقامته، وفي الدير آثاره وصومعته وفراشه وكتبه ومخطوطاته وتصاويره ومحابره وأقلامه، وكان شخصية جذابة وإنْ يكن على نصيب وافر من الدمامة، وقد كان لهذا الرجل أثر في نفسي وكتبت عنه رسالة وافية سلبها الإنجليز فيما سلبوا من مخطوطاتي في تفتيش منزلي في مصر سنة ١٩١٦ (وهو ما كان أدباء العرب يسمونه كبسة، كما حدث لولدي موسى بن شاكر في بغداد، فأخذوا كتبهم ومخطوطاتهم، وهذا عمل الشرطة في عهود الظلم).

وكان لساڤونا رولا في نفسي أثر آخر وهو أنني لما اطلعت على حياة الإمام حسين بن منصور الحلاج وسجنه وصلبه وإحراق أوصاله في بغداد سنة ٣٠٩ هـ (٩٢٢م) — قارنت بينهما، مع أن أوروبا كانت في قرونها الوسطى وكانت بغداد في عصرها الذهبي، ولكن المعقولية كانت واحدة، وقد حملني التحمس أنني نقشت صورة لساڤونا رولا أثناء إقامتي في فيرنزه كما رسمت صورة لأوجستا في ليلة بهيجة، وقلت لها: إن جو البلد يجعل من البليد فطنًا ومن العيي فصيحًا، وممن لا يرسم خطًّا مصورًا ماهرًا، وقد أعجبتها الصورة وهي ما تزال محفوظة بين أوراقي بتاريخها.

بين فلورنسا ونابلي وروما

فيرنزه مدينة نابغة عاشقة ونابولي مدينة مستهترة فاسقة وروما مدينة خالدة منافقة، وقد عشت في المدن الثلاث ورأيت أكثر من عشرين ألف أثر فني بين تماثيل منحوته ولوحات منقوشة، فوجدت في متحف الآثار اليونانية الرومانية بنابولي تيْسًا يلوط بجدي

وفي بومبيء مناظر فحش ودعارة من تماثيل وصور، وقد وضعوها في خزانات خشبية لا ليصونوا أعين النظارة منها أو خوفًا على عفة العذارى، ولكن ليتقاضوا عليها أجرًا، وفي روما علمت أمورًا يحمر لها وجه الشيخ الأشيب والعجوز الشمطاء فضلًا عن الفتى الأمرد والعذراء، وهذه كلها من أسرار الأديرة وبعض رجال الدين.

أما في فيرنزه فلم أر شيئًا من هذا لا في الآثار ولا في الحياة اليومية؛ لأنها مدينة حماها الله من العيب في أدبها وفنونها، فلا تقع العين منها على ما يؤذي النظر أو يخدش الذهن النظيف، وفي زيارة عابرة لمتحف الفنون الحديثة رأينا في ركن مهمل مظلم تمثالًا صغيرًا من حجر الكلس الأحمر، وهو يشبه التيراكوتا Terracotta (الطين المحترق) من صنع ميكيل أنجلو (ولعله صنعه في لحظة مرح أو مزاح) يمثل ليديا، وهي إحدى بنات الأساطير القديمة قيل: إنها كانت ترقد ليضاجعها فرخ أوز عوّام Cygne. ولهذا الطير أثر في الآداب، فقد اتخذه فاجنر في أوبرا لوهنجرين وجعله قائدًا للزورق السحري الذي نقله من مكان إلى مكان.

فلا عجب إذا فكّر فنان أن هذا الطير العجيب (وهو على كل حال أقل غرابة من العنقاء) في أن يجعل فرخ الأوز ذكرًا تشتهيه امرأة (ليديا)، وترقد وترفع ساقيها ويغطيها بجناحيه ويضع منقاره في فمها، وأن تغمض عينيها من فرط اللذة. هذا هو تمثال «ليديا والطير» وهو ما لم نر سواه في فيرنزه مما يجرح شعور العفة، مع أن الجمال والفن يستبيحان كل شيء.

وناهيك بقصص بوكاتشيو وعددها مائة مكتوبة في فيرنزه وكلها مجون ولهو ولعب. ولكن ما قيمة القصص البيكاتشي حيال ما كتبه الآخرون في الشرق والغرب. وإن حب دانتي وبياتريس لخليق بأن يرفع قدر الأمة التي أنتجته إلى درجة القداسة، وفي فيرنزه تماثيل وتصاوير متعددة لدانتي وبياتريس بعضها واقعي وبعضها رمزي، وأجملها صورة لقائمها عند الجسر العتيق على نهر الأرنو، وقد ذهبنا لعبور هذا الجسر، ونشهد موضع اللقاء لننشق عبق التاريخ، وقادتنا أقدامنا إلى سلسلة من الحوانيت القديمة الباقية في مكانها منذ قرون وهي في مجموعها سوق الزخارف والتحف والألطاف والطراز والجواهر والمعادن النفيسة (أشبه الأسواق بخان الخليلي)، فدخلناها وقلبنا أجفاننا في بضائعها الثمينة واشترينا منها ما قدرنا عليه لا ما كنا في حاجة إليه، واتخذنا من بعضها ما يوصف بأنه تذكار ومن ذلك قطعة من الدنتلا تصلح غلالة لثوب السيدة. وهذه الدنتلا عمل دقيق بحجم الثنايا، وأفخر ما تكون في بلجيكا

ومدينة ليل وفي فيرنزه، ويسر كل مشتر أو متفرج أن يرى وجهًا باشًّا هاشًّا ولسانًا عذبًا وصبرًا طويلًا وثمنًا معتدلًا وتحية وشكرًا سواء أتشتري أم لا تشتري وتنظر في وجه كل تاجر أو صائغ، فتجد معنى يدل على النعومة والرقة والعراقة وحسن الأدب.

ولكل بلد أساطير قديمة وحديثة ولفيرنزه أساطير كثيرة، وقد رأينا كتابًا يسجل واحدة منها وهي قصة العشق التي وقعت بين أميرة بلجيكية وموسيقى من أهل البلد، حتى إنها تخلت عن حقوقها الملكية وعصت أوامر والدها (ليوبولد الأول)، وهجرت قصورها وأهلها لتعيش في كنف الموسيقار الفيورنتيني، وقد قنعت بأنغام الڤيولون واستغنت بها عن موسيقى الجيوش البلجيكية، ولا سيما إذا كان معشوقها يطربها في ضوء القمر وقد عاشا في هذا البلد.

قرية فيزوليه

وقد صعدنا يومًا إلى فيزوليه وهي القرية بل الدرة التي تتوج البلد وتزيد زينته، وتبدو من الوادي باقة خضراء كالزمردة فإذا وصلنا إليها تكشفت لنا فيرنزه بمبانيها وقبابها وكامپانيل وهي أشبه بالمآذن، وللمباني بريق ذهبي وقت الشفق كأنها لوحة من صنع أمهر الفنانين وأحذقهم، وأبرعهم في مزج الألوان وتوقيتها، ثم يبدو نهر الأرنو وهو ينساب كالحية الرقطاء بين الأعشاب، ولكنها حية أليفة لا تنفث سمًّا ولا تريم ولا تبطش، ولا حفيف لها إلا حفيف أوراق الشجر التي تحيط بها.

ولم أنس جمال هذا المنظر طول حياتي ولعله من المناظر التي ادخرتها العناية لجنة الفردوس وقد أطلعت الإنسان على طرف منه تشويقًا وترغيبًا، وإنه لمنظر يتبدل ويتغير في كل وقت من أوقات النهار والليل بحسب انتقال الظلال وازدياد الأنوار ونقصها، وبحسب نور الشمس عند الشروق وفي الضحى وعند الطفل ثم قبيل الغروب، وكذلك في ضوء القمر الفضي، وفي الظلام الحالك لا تشعر وأنت في فيرنزه فيزوليه برهبة أو خوف ولا تتوقع خطرًا يداهمك أو أشرارًا يكمنون لك، فهذه المدينة وضاحيتها المتبوّئة عرش الجمال والسلام والأمن والاطمئنان كتبت السعادة لأهلها وأضيافها وحرستها العناية في نومها وصحوها. وعندما كنا في فيرنزه رأينا راهبًا يدعونا لزيارة كنيسة فيها آثار من القرن الثالث عشر (تريشنتي)، فضحكت أوجستا واعتذرنا له وقالت لي همسًا: إنه هو لا الآثار من القرن الثالث عشر.

قصور فلورنسا

ولم أقبل أن نقصر غدونا ورواحنا ونحن نسرح ونمرح على الأحياء الفخمة العريقة الآهلة بالقصور العظيمة، بل أردت أن نزور كل شارع وكل خط وزقاق وعطفة لأشرب روح البلد وأتشبع بها وأجعل خمرتها تشيع في أوصالي حتى تسكرني، وأطيل النظر في كل شيء وأستوعبه، ولم أعجب عجبي لهذه القصور الضخمة التي يرجع بناؤها إلى بضعة قرون، وهي ما زالت فاخرة باهرة ثم إنك لا تشعر ضخامتها، ولكنك ترى ظرفها ورقة تخطيطها ومهارة مهندسيها، والسر في الانسجام ومراعاة النسبة وإتقان الأوضاع والجمع بين السعة والضيق والنور والظل وما يفعل ذلك في فكرنا من أثر الاستحسان واللذة، ومهما أقل عن جمال بلازوڤكيو أو القصر العتيق الذي كان مقر الحكم في القرون الماضية، وأصبح اليوم متحفًا يضم بين جوانحه أغلى وأثمن وأجمل التحف والألطاف من معادن نفيسة وطراز ثمين وتماثيل ولوحات وآثار خالدة على وجه الدهر، ويعد هذا القصر ومتحف أوفيتشي وقصر بيتي من أعظم وأجمل آثار الدنيا وأفخر كنوزها.

وإننا ونحن نطأ أرض القصر ونرقى درجات سلالمه ونجوس خلال قاعاته، ونمتع النفوس بالنظر إلى جدرانه ونستنشق عبق التاريخ وحكمة القرون وجمال الفنون، يملأ قلوبنا وصدورنا، جو نسمات من الحب والإعجاب والدهشة، ونشعر بأن هذه الخطوات التي نخطوها تعد من أسعد خطوات الحياة في أرض مقدسة، هنا يتلاشى ذكر الأقزام والظالمين والملوك الطامعين وتنطفئ الأضواء الضئيلة الخافتة التي أشعلتها أيدي الطغيان ليوم وليلة، وتبدو لأعيننا الأنوار الباقية الباهرة التي تنير الأماكن وتضيئها وتلقي أشعتها القوية على وجوه العظماء والجميلات والحكماء والفاتنات التي حليت بها تلك الغرف السعيدة.

كانت أوجستا تسير بجانبي وقد تتقدمني وقد تتأخر عني وكأنها طفلة غريرة تسير للمرة الأولى في وسط غابة في فصل الربيع، وتمتع نفسها بالهواء والأزهار والأنهار والأشجار الباسقة، وهي مأخوذة ومسحورة وعلى وجهها المتألق نظرة البراءة والفرح والدهشة مع أن هذه لم تكن رؤيتها الأولى لتلك العجائب، ولكن في كل مرة يقع بصرها عليها تنفعل نفسها وينشرح صدرها وتجري في عروقها دماء قوية مندفعة بالحياة والحب، فكانت هي نفسها تحفة متحركة تشاركني في الإعجاب والفتنة بتلك التحف المعلقة أو المسندة، وهي في نظرها كائنات حية؛ لأنها تحمل رسالة العباقرة وأجزاء من

مواهبهم وأشعة من أنوارهم؛ ولذا كنا نسير في صمت عميق كأننا في موكب الملائكة، وإذا تكلمنا يكون همسًا مع أن الكلام بصوت مرتفع مباح بل محبوب في المتاحف، ولكننا كنا نشعر أننا في أماكن مقدسة، في معابد وهياكل تقوم على حراستها العناية الإلهية؛ لأنها معابد الجمال والحق والفضيلة. هنا ألوان ثروة لا تحصى من الألوان. هنا مهارة وحذق على مدى الأجيال. هنا أفكار وعواطف ومحاولات من الروح للتعبير عن انفعالها في كل أحوال النفس. هنا تنطق الأيدي بدلًا من الألسنة وتنظر الأعين عوضًا عن الآذان، ولكنا نشعر بأن كل الحواس تشترك في هذه المتعة، العين والأذن والعقل والقلب، حتى إن اللمس نفسه يحاول أن يشارك بقية الأعضاء في الشعور؛ ولذا وضعوا أوراقًا مكتوبة تنهى الزائرين عن اللمس، ولكن كثيرين من النظارة كانوا على حين غفلة من الأحراس يمدون أناملهم؛ ليستمتعوا بلمس بعض التماثيل كما فعلت أنا في التحسيس على جسم ڤينوس وعلى ركبة موسى الكليم كلما وقع بصري على تمثالهما.

وكانت أوجستا في غاية الحكمة وحسن الذوق، فلم نكن نزور أكثر من متحف واحد في اليوم، ثم لا نستنفد آثارها في يوم بل نبقي ونستبقي كأنا نحسو خمرة معتقة ونتذوق فاكهة نادرة فلا نسرف، ونترك الوقت الكافي لما نشرب لنستوعبه وليشيع في أوصالنا وليفعل أثره، ولنشهد أثره في حياتنا اليومية وفي حركة عقولنا وروحنا.

ليس هذا الكتاب قصة ولا سردًا للتحف ولكنه تسجيل للأحاسيس والمشاعر والعواطف في فترة قصيرة، ولكنها من أكثر الفترات سعادة بل لعلها أسعدها في تلك الأيام وكل ما سبقها ومعظم ما لحقها.

تمثال النبي داوود

وكنا رأينا آثار ميكل أنجلو المحفوظة في فلورنس ولم يبق لنا إلا تمثال داود النبي، وهو موضوع في ميدان خاص به خارج المدينة وللميدان اسم بياتزالا (تصغير بياتزا) وهو على ربوة خضراء محاطة بالأزهار والأشجار.

وقد حدث في هذا اليوم العجيب أننا خرجنا عصرًا لزيارة ذلك التمثال الفريد؛ لأنه بجانب جماله وشهرته له قصة، فإن ميكل أنجلو بعد عودته من روما عثر في الطريق على قطعة ضخمة من المرمر مهملة ومنسية، فطلب إذنًا من المجلس البلدي أن يهبه إياها، ففرض عليه المجلس أن ينحت عليها تمثالًا؛ لأن غيره من النحاتين عجز عن الانتفاع بها وقد كلفت المدينة نفقة في قطعها ونقلها وضربت له موعدًا، فنقلها

إلى مصنعه وفصّل منها تمثال داڤيد صبيًّا يتدرب على رمي الحجارة بالمقلاع. وواصل العمل ليلًا ونهارًا ليفي بوعده وكان موضوع التمثال يلهب عقله وجسده حتى كَلَّ بصره، ولم تضعف رغبته ولم تكل ذراعاه، فكان إذا أقبل الظلام ربط على جبينه مصباحًا معدنيًّا ثقيلًا؛ لأن الضوء لم يكن كافيًا فأعان عينيه بأعينٍ صناعية.

في هذا النهار لم ننس نقودنا ولكن لم يكن في بيتنا ولا في بنكنا ولا في خزانتنا ولا جيوبنا فلس واحد (صلدي)، فلما بلغنا سفح الربوة رأينا بيننا وبينها جسرًا على نهر الأرنو، وعلى الجسر شرطي والشرطي جابٍ يحصل على العبور نقودًا قدرها عن الشخص الواحد خمسة صلدي. فلما بلغنا الشرطي ظننا أنه واقف للحراسة ولم يخطر ببالنا أنه يجمع المال، فتظاهرنا بالبحث في جيوبنا ثم اعتذرنا له بلغته أن ليس معنا نقود.

فدهش الرجل وقال: «نينتي صلدي! باستو! «ليس عندكما دوانيق».

قلنا: إننا غريبان ها هنا.

قال: نينتي صلدي إيه أنكورا فوريستيري. لا نقود معكما وأنتما غريبان! وارتسمت على وجهه دهشة. فعبرنا قبل أن يفيق من دهشته ونحن نضحك؛ لأننا كنا في زمن لا نعرف فيه كيف نحمل الهم وإن كنا لا نحمل النقود، فلما صعدنا رأينا منظرًا عجبًا فإن عبقرية ميكل أنجلو كلها ظهرت في هذا التمثال، داود واقف على قدم واحدة، صبي جميل فاتن عاري البدن وهو يطوح بيده الحجر بالمقلاع، وقد تمكن المثال من إبراز عناصر الجمال في ذلك الجسم الفتي الجمال في الحركة، فكان أستاذ رودان الذي أظهر الحركة في الحجر بتمثال «الرجل الذي يمشي».

ووجه العجب أن السكون من خصائص الحجر، فإذا وفِّق المثال لإظهار الحركة في الحجر كان ذلك إعجازًا، فإذا لم نلتمس الحركة عند صانع موسى فأين نلتمسها؟

وقد أطلنا الجلوس والوقوف والدوران حول التمثال حتى أشبعنا نفسنا بالجمال والإعجاب والعبرة، وأثنينا على المهندس الفنان اللبق الذي اختار هذه البقعة النادرة لتزدان بداود. وبقينا إلى أن بزغ القمر وألقى أشعته على المرمر وفي ضوء القمر كنا نرى وجه النبي وصدره وعضلات ذراعيه وساقيه وجمال قامته المشوقة ووجهه الحلو، ثم طفنا به طواف الوداع ونحن نمنِّي النفس بالعودة إليه ونحن نخشى أن تكون الأولى والأخيرة.

وأثناء عودتنا سردت عليّ أوجستا تاريخ داود ومزاميره وحكمته وحبه النساء وشجاعته في الحرب وصناعة الزرد والدروع، فقلت لها مداعبًا: «من يسمعك يحسبك

حبرًا من أحبار بني إسرائيل في ثوب امرأة»، فحدجتني بنظرة قاسية وتغير لونها ثم ملكت نفسها ولها سيطرة عظيمة عليها، ثم قالت باسمة: أليست دراسة التوراة فرضًا على كل أديب؟ وأنت أحق بها وأجدر مني؛ لأن التوراة نزلت في بلادكم.

وعدنا للعبور فلم نلق الشرطي؛ لأن نوبته تنتهي بغروب الشمس فحمدنا الله على أننا لم نتعرض ثانية لوصمتي الاغتراب والإفلاس، ويسرني أن داود وسيرته مسجلان في القرآن الكريم ثم في بعض الشعر العربي:

ألم ينقضّ داود وليدًا   على جالوت في الهيجا شهابا
إذ اخترق الصفوف إليه عدْوًا   وما بالى السيوف ولا الحرابا
ومن يلبس من الإيمان درعًا   فلن يخشى الطعان ولن يهابا
وبالأحجار لا شيء سواها   رمى الجبّار فانكبَّ انكبابا
وألقى الأعزل الشاكي صريعًا   ليلقى من يد الله العقابا

٨

ليلة لا تنسى

عدنا إلى بيتنا في نور القمر ومر بنا الخباز والبقال والبدال والقصاب وبائع اللبن والزبد، وكنا لحسن الحظ نعاملهم مشاهرة، فأحضروا إلينا ما نطلب ولا أتذكر الآن على أي الوقود كانت تطهي أوجستا طعامنا، ولكن أظن أنه كان موقد الفحم للطهي الكبير وشعلة الكحول للصغائر كالشاي والقهوة فطهت عشاءً حسنًا، وبقينا نتناجى في ضوء القمر؛ لأنه كان يغمر الحديقة التي نطلّ عليها ويغمر شوارع البلد ويخلق في النفس فتنة وشعرًا ويوحي بالحب العنيف، مع أن نور القمر فضي هادئ كان يجدر أن يلهم الاطمئنان والسكينة، ولكن أثر القمر على أوجستا كان قويًّا شديدًا ولعل معظم أهل الفنون والأدب يتأثرون أكثر من سواهم بهذا الجرم السمائي العظيم لعلاقة غامضة بين أخلاقهم وبين الماء، فإن الماء يتأثر بالقمر مدًّا وجزرًا وكذلك حب أوجستا كان يتأثر بالقمر.

فكانت ليلة لا تنسى وقد تكون ذكرى داود تركت أثرًا في ذهنها أو جمال النزهة، أو كلمة الشرطي أو مجموع هذه المصادفات كلها. أكلنا أكلًا حسنًا وتحدثنا حديثًا طليًّا ولم نقرأ ولم نكتب وسهرنا ولم تغمض لنا عين.

وزاد النار لهيبًا أن أنغام قيثارة سفلية كانت تصعد إلينا في رفق من تحت الشرفة، فكانت ليلة كاملة حتى ولو لم يكن معنا صلدي.

تاريخ حياة بنڤنتو تشيليني

وأثناء حديثنا تذكرنا أن أول ما وقع عليه بصرنا في فيرنزه كان القصر العتيق وسقيفة لوچيا، ولكننا كنا في كل ضحى وظهر وعصر وغروب نكتشف جمالًا جديدًا وأثرًا لم نره أو كأننا لم نر؛ لأن الجمال يتجدد، وقد ألحت عليّ أوجستا أن تقرأ لي تاريخ حياة بنڤنتو تشيليني بقلمه، وقد بدأت فلم يعجبني أن الرجل مهوش ومختلق، نعم إنه كان مثالًا ومصورًا وكاتبًا أيضًا، ولكن كان فنه أجمل من أدبه، وكانت مغامرات حبه ومخاطرات حياته ومصادفات نجاته من الغرق والحرق والكمين والحقد الدفين ومن جحر الأفاعي المطيبة واللوادغ أكثر مما يصدقه العقل، فألقينا بالكتاب، واكتفينا بالنظر إلى تماثيل الرجل وهي أصدق أنباء من الكتب.

انفراج أزمة مالية

وفي الصباح حدث أمر غريب قد لا يصدق وقد يصح أن يدرج في مغامرات بنڤنتو تشيليني.

كنا مفلسين وننتظر وصول المال هي من موسكو وأنا من مصر. وقد آليت على نفسي أن أرجوها في تحويل نقودها إلى جنيف لتصل إلى يد زينا القيّمة على بوريس، وكان فيما يصل إلى يدي كفاية وفوق الكفاية، وليس لهذا الإعسار الطارئ؛ أي أثر لأن الثقة كانت في تلك السنوات كبيرة جدًّا والناس لا يكترثون للديون، فإذا لم يكن معك اليوم فسوف يرزقك الله غدًا.

وحدث أن وصل إلينا في وقت واحد في الصباح خطابان، وكنا نتسلم بريدنا من المكتب العام، خطاب لها وخطاب لي والخطابان من بنك واحد في فيرنزه «نرجو أن تحضر لأمر يهمك»، فذهبنا معًا وتقدم كل منا لموظف واحد فقال لي: عندنا حوالة بمبلغ كذا باسمك. وصرفها لي ثم نقدني قيمتها، وقبل أن أغادر المكان دعاني مرة ثانية وقال: حوالة أخرى من نفس المصدر ونفس المبلغ ونقدني إياها. وهذا الأمر نفسه حدث لأوجستا صرفت لها حوالتان بمبلغين متعادلين، وخرجنا من المصرف نجر الذيول تيهًا، وإنما يتيه الفتى إن أيسر بعد إعسار، وكان الحب والجمال والربيع في الذروة.

وخرجنا فسددنا ديوننا للتجار والموردين وصاحبة الدار، واشترينا كتبًا وأزهارًا وثيابًا لها وحليًّا وحللًا، وركبنا «كاروسا» بحصان، أي مركبة فرس مفرد، وطفنا الشوارع، وأكلنا في مطعم واكتشفنا مقهى في ساحة الدومو وهي الكاتدرائية الكبرى التي فتنت بعمارتها وألوان مرمرها، وإن كنت أبغض داخلها المظلم المقبض، وفي هذه القهوة النادرة مقاعد مريحة وأضواء هادئة وأوجه سمحة وأدب لقاء رائع وترحيب وصحف ومجلات من كل مكان، فشربنا قهوة لم نتذوق مثلها وكتبنا مكاتيب للذين فرجوا أزمتنا، وكتبت لولدها والقيمة عليه وأرسلت لهما نقودها، وتعاهدنا على أن لا نحرم أنفسنا من هذا المقهى. ثم انتقلنا فاعتذرت إليّ أوجستا وطلبت فسحة من الوقت تقضيها في بعض شئونها على أن نجتمع بعد ساعة أو ساعتين في البيت؛ فدهشت لأنها المرة الأولى التي تريد أن تفارقني باختيارها ولو لساعة واحدة، فتركتها ولم أكن تعودت أن أسير بمفردي في المدينة إلا إذا كنت في المكتبة. فعدت إلى المقهى لأخلوا بنفسي وأستوعب حلاوة الوحدة، أو مرارتها فإنك كثيرًا ما تجد في ذلك لذة، فجلست وطلبت ورقًا وقلمًا ومدادًا كعادتي إذا خلوت بنفسي في مكان عام؛ لأنني لا أحب أن أفكر إلا في البيت والمثوى، أما المقهى فوقت انتظار يحسن أن يشغل بالكتابة. ولكن فيم أكتب في هذه المدينة وقد تمثلت لي كائنًا حيًّا فيه زرقة السماء ونور الشمس وخضرة الحدائق والنهر المتدفق ثم الجمال، جمال الفنون والوجوه والعقول قديمًا وحديثًا، والأرستوقراطية النجيبة وفنون الحكم والتاريخ المجيد والجمهورية والملكية وتناحر الأحزاب وتزاحم الدين والفلسفة بالمناكب والسياسة والدسائس والأدب والفصاحة والشعر والمظالم والمحابس والمحاكمات والصلب والإحراق في سبيل المبادئ، واللهو والطرب والحب والسلوى وسحر الجفون وسحر الكلام والسحر الحلال والحرام، وأخت هارون وتلميذ هاروت وماروت والسموم في العطور، وفي القبلات وفي طي الخطاب

وفي فرد القفاز وفي علبة السعوط وفي كأس الخمر، وموطن النوابغ الذين ذكرتهم على سبيل المثال لا على سبيل الحصر، نوابغ أشدهم تفاهة هو مثال نابغ ومصور ومهندس معمار ومفكر وشاعر ومؤلف ورواية!

وهي مدينة بطبيعتها تدعو إلى المرح والموسيقى والرقص والغناء وأهلها ذواقون في الفنون كذوقهم في الجمال وفي أطايب الطعام؛ لأنهم يلتمسون الفاخر من كل شيء المأكول والمشروب والمشموم والمسموع والمقروء والمكتوب حتى مجلتهم «مارزوكو»، التي تعودنا قراءتها كانت مفخرة بين مجلات أوروبا، لا إيطاليا وحدها.

وكنت طلبت من أوجستا مطلبًا صعبًا وهو أن تقابل معي في النص الإيطالي كتاب الأمير على النصين الإنجليزي والفرنسي؛ لأنني رأيت من الغفلة والجحود أن ينعم الله عليّ بالكتاب الذي أنقله في بلد المؤلف وجوه وبيئته ثم أقصر في هذه المقارنة ومعي سيدة تتقن الإيطالية، وقد بدأت منذ عام أقرأ ملحمة دانتي، والمدينة النابضة بالحياة والأزياء والأزهار والأنغام تدعوني، ولكن العقل يربطني ويسحرني في هذا المقهى وأنا على قيد خطوات من الحركة، ولم أتعب ولم أمل ولكنني شعرت بنقص في شخصي لغيبة المرأة التي تعودت أن أسمع صوتها، وأنظر إلى عينيها وأتبع خفقات قلبها، وكنت أحسب أنني سأشعر بالقوة في غيبتها، فخططت بضع صفحات تصلح رءوس أقلام لما أحب أن أسهب فيه. فتناولت مجلات مصورة ونظرت فيها كمن يعيش في رؤيا.

وفي ختام الساعتين نهضت وكان الحر شديدًا والشقة بين الدومو والدار بعيدة، فاتخذت مركبة (كاروسا) فبلغت البيت بعد دقائق، وأثناء الطريق نظرت إلى موقف القزم بائع البطيخ فوجدته جالسًا تحت مظلة ضخمة، ولكن الزحمة حوله أقل منها في الليل، فترجلت وقصدت إليه واشتريت نصيبًا وافرًا من تلك الفاكهة اللذيذة التي تذكرني بوطني.

ولما وصلت الدار ودخلت وجدت أوجستا تخلع ثيابها وتضع أحمالها التي عادت بها من المدينة وهي فواكه وأسماك طازجة وثوبًا مطرزًا، ثم اعترضت على تسرعي في الحضور؛ لأنها ستنهمك في إعداد غداء شهي من السمك والمكرونة فقلت لها: «لقد علمتني النهم في الطعام» قالت: لا بأس فأنت في عطلة قلت لها: أي عطلة هذه؟! وأعدَّت الطعام وتغدينا واضطجعنا لنقيل في الظهيرة.

هدية كتب

وسألتها عن سبب غيبتها عني فقالت: أحببت أشياء تحبها أنت وأحببت أن أنتقي لك هدية. أما الذي أحبه ففواكه وأما الذي أهدته إليّ فكتب وتصاوير. أما الكتب فسلسلة أساتذة الفن الإيطالي ميكل أنجلو وجيوتو وڤيريكيو وبوتشيلي وليونارد وتيسيان وڤيليپوليپي. أما التصاوير فهي مجموعة مصغرة لأجمل اللوحات بألوانها ثم للتماثيل التي أحببتها، وقد كتبت على كل كتاب عبارة إهداء خاصة، وأحب أن أسجل بعض ما كتبت تدليلًا على عقلها وأدبها:

> إلى واحد من الصفوة إلى روح منفرد في غمار الزحمة مرغم على الكفاح والجهاد القاسي بقلب رقيق وحس مرهف، إلى حالم قادم إلينا من بلد ناء ذكرى لأيام قضيناها معًا في فيرنزه في صيف سنة ١٩١٠.

وليس في هذا الإهداء وما يماثله في بقية الكتب مديح أو ثناء، وإلا لما سمحتُ لنفسي بتدوينه ونقله لولا كلمة «الصفوة» التي فلتت من قلمها، أما كوني روح منفرد في غمار الزحمة الإنسانية فصحيح ومن الحظ الحسن.

إن هذه الزحمة ليست قطعانًا بل بشرًا وبعضهم قد يكونون ملائكة وأرواحًا راقية ورجالًا كرامًا ونساء خليقات بالحب والتقدير، وأما أنني حالم فصحيح أيضًا؛ لأن كل مشغول بالمثل العليا هو حالم حقًّا ويتبع حظه خطة الأقدار، ولست مرغمًا على الكفاح والجهاد بل خيل إليها وما أنا إلا راغب في الكفاح وبدون الرغبة لا يتم شيء مطلقًا، ولكن قد يبدو أنني مرغم، ولو كنت هاويًا لكانت حياة الرجل مهزلة. وأي كفاح وأي جهاد في حياتي شهدتْ هذه المرأة الطيبة المسكينة الرقيقة الشعور الشديدة الشفقة؟ وقد افترقنا بعد ذلك بسنتين وأنا في الرابعة والعشرين من عمري، فماذا كانت تقول لو كتبت لها الأقدار أن تصحبني عشر سنوات على الأقل بعد ذلك أو عشرين أو ثلاثين، لا شك أنها لم تكن تتحمل ولا تستطيع أن تسايرني في الدنيا لنعومتها واستعدادها لسهولة العطب أو سرعته. ولكن هذا هو الفرق الجوهري بين الأرستوقراطية الأوروبية التي تمثلها سواء في العقل أو في الحال حيال الديمقراطية الشرقية الخشنة، فلقد بدا لمحبوبتي استذكار دروسي وكتابتي للصحف واجتهادي في اجتماع المؤتمرات، ودخولي الامتحانات وانتظاري الرزق في بلد غريب، أنني مرهق وأنني أستدر الحنان والشفقة، وكانت جد مخطئة ولكن عن حسن قصد وشفقة، فقد علمت عني شيئًا وخفيت عنها

أشياء، فقد كان وما زال وسوف يكون بإذن الله الكفاح والجهاد والمصابرة عناصر حياتي التي لا أعيش بدونها والهواء الذي أتنفسه والمجال الحيوي الذي أعيش فيه وبه وله، وأنه لا يخفى عليّ شيء من مصاعب الدنيا ومصائب الحياة وخصوصًا إذا أراد الإنسان أن يتحرى الحق جهده، وأن الكفاح وحب الحق والسعي جهدي إلى التشبه بأهل الفضل غايتي التي أسعى إليها، ولكن أوجستا الرحيمة أشفقت على شبابي ولعلها حسبت لبعض النعومة في خلقي وحب الترف أنني كنت خليقًا بأن أعيش عيشة المترفين المعتمدين على ما ورثوا من آبائهم وأجدادهم، ولعلها كانت ترى أن في مثل هذه الخطة لو سلكت الأقدار معي ضمانًا مؤكدًا لدوام علاقتنا وحبنا وراحة بالنا، وعلى كل حال فهذه نزعة يهودية رأسمالية لم أكن أحب أن ألمحها في صاحبتي.

تناقض في الأخلاق

ولكنني انطويت على نفسي؛ لأنه لا شك كنا في كثير من الأخلاق على طرفي نقيض، ولعل هذا التناقض كان سببًا في توثيق مودتنا، فقد كنت ثائرًا على المظالم في وطني وفي كل الأوطان، وكانت هي ممن يركنون إلى الحكم القيصري ويستندون إلى أعوانه وكنت أنا ممن يبغضون المال لذاته وكانت هي ممن يعتزون بالثروة الثابتة والمنقولة، وكانت هي ميَّالة للنكتة التي تبدأ بالمزاح وتنتهي بالاستهتار والازدراء اللاذعين، وكنت أنا أميل إلى الجد والشفقة على الضعفاء وأنأى بجانبي عن الشماتة وتحقير الضعيف، وكنت أحب الحياة وأتحملها وأرى المحافظة عليها واجبًا مقدسًا ولا أحافظ على حياتي مدفوعًا بالضرورات، ولكن قيامًا بالواجبات، وقد تنزل بي الخطوب وتنغص الهموم حياتي ويغمر السخط على مصير الأمور قوة نفسي فتخور عزيمتي أحيانًا وأبرم الحياة أحيانًا وأزدريها، كما حدث لي في السنوات الثلاث من ١٩٠٢ إلى ١٩٠٥، وكما حدث لي أثناء إقامتي في ليون قبل أن ألقى أوجستا في لوزان وجنيف، ولكنني مع ذلك سألت الله أن يبقي على حياتي التي أبغضتها لا مستجيبًا لميل أو هاربًا من خوف ولكن ملبيًا لنداء الواجب، وقد تقدمتُ إلى خدمة الغاية بالمحافظة على حياتي محافظة ظاهرية لأثبت رغبتي في الحياة، لا إعراضي عنها ولا احتقارها. لكن أوجستا وأنا أعذرها كل العذر شرعت بضع مرات في الانتحار بالسم، فمرة تداولت مع كاتبة يدها وكاتمة أسرارها «زينا» باللغة الروسية، وبدأ على وجهها من الانفعال ما كفى إلى فهم معاني الألفاظ المغلقة دوني في اللغة الروسية، فجاهرتها بأنني فهمت قصدها وعجبت له واحتججت

عليه وعاتبتها. وفي مرة ثانية تجرعت السم فعلًا على حين غفلة مني وفي ضوء القمر؛ ولسبب تافه سخيف، وتعبت في تمريضها.

إذن كنا في أمور كثيرة على طرفي نقيض، ولكن كنا في أمور كثيرة على تمام الاتفاق، ويظهر أن أسباب الوفاق رجحت أسباب الخلاف فدامت المحبة وكان ربحها من عشرتي في العاطفة والكفاية والثمرات أرجح من كسبي؛ ولذا رضيت بالشركة رضى التاجر الحصيف الذي يتبع منفعته.

ولكنني لا أغمطها حقها، فكان جانب كبير من سلوكها صادرًا عن إخلاص وحب وعطف صادق. وكانت أحيانًا تضيق بي ذرعًا لصبري ومجاملتي وتحاشي أسباب النزاع معها؛ لأنه لا توجد امرأة على سطح الأرض تركن إلى سلم دائم مهما كانت مصلحتها تقتضيها، وقد أعجبني منها أنها جعلت الحب وكل ما يتصل به في المكان الثاني لتقنعني بأنها غير متكالبة على ما يتفانى فيه النساء في مثل شبابها وجمالها، واشتعال خيالها بنار الرغبات، وكان حظها في عشرتي غير موات فقد كنت في أول أمري ناقهًا وفيما تلا تلك الفترة كنت مشغولًا بالامتحان، والآن غارق في دراسة هؤلاء العباقرة من أهل فيرنزه ورجال الإحياء جملة، وفي أشد الشوق لمعرفة كل ناحيات إبداعهم وألوان حياتهم ومدى عبقرياتهم، وقد وجدت فيما قادتني هي إليه من الأدب والجمال وتصاوير الوجدان وألوان الأحاسيس ما ملك عليّ نفسي، وما لم ألمسه من قبل في سياحة أو زيارة أو دراسة سابقة، وأحببت أن أكون أديبًا متذوقًا وناقدًا منصفًا لجميع هذه التيارات القديمة والحديثة التي اجتازتها هذه المدينة.

وبالجملة كنت مجنونًا بالفنون والجمال والأدب والتاريخ والسياسة، وكانت أوجستا مجنونة بي ولم تجن بالفنون إلا مسايرة لي، أقصد إلى الجنون الثاني؛ لأن هذه المرأة المطلعة المثقفة لا بد أن رأت وقرأت قبلي بدليل أنها أرشدتني وقادت خطواتي، وقد هداني الله إلى انتهاز هذه الفرصة الفريدة لأصقل نفسي على حساب الحب، وكان إخلاصي للمعرفة والجمال أكثر من إخلاصي للحب. وهي متفانية في خدمتي، وكنت أستطيع الاستغناء عنها وهي لا تستطيعه عني، ولكنني لم أرغب في التخلي عنها قط إذ لو كنت حاطب ليل في فيرنزه فلم يكن يعوزني، وكان اتصالي بفتاة حسناء مثقفة من أيسر الأمور، وأقل ما أفيده إتقان لغة القوم وتفهم البلد والناس عن صديقة أصيلة.

حسنات مقابل إساءة واحدة

وفي عصر يوم من الأيام سبقتني إلى مكتب البريد بدقائق معدودة، فلما بلغتها رأيتها تتحدث إلى رجل أنيق جميل باللغة الروسية، فوقفت بعيدًا حتى انتهت من حديثها، وبدا مني كأني أريد الانصراف لأترك لها فرصة الصفاء وعدم التدخل كما تقضي به آداب الاجتماع الأوروبي حتى ولو كانت زوجتي، فأسرعت إليّ وإلى جانبها ذلك الرجل فقدمته إليّ بأنه روسي مهذب لمحها وعرف جنسها من سحنتها، فكلمها فرحبتُ به ودعوته إلى المقهى فاحمر وجهه، واعتذر وحيّاني وانصرف، فساد بيني وبينها صمت وظهر على وجهها الانفعال والغيظ، ثم انهالت عليّ بالنقد والعتاب؛ لأنني أسأت الظن بها ولم أعاتبها ولم أغضب ولم أظهر الغيظ، فكان جوابي سكوتي وصمتي ولما زادت انفجارًا صبرت وعضضت شفتي، وكانت تخبط خبط عشواء وتمشي على غير هدى، ثم قالت لي للمرة الأولى والأخيرة في حياتها: «أنت منافق»! فذعرت وأيقنت أنها فقدت عقلها؛ لأن تلك الصفة التي نسبتها إليّ في ساعة جنون أبعد شيء عني، وأدركت فورًا أنني لو أجبت أو أظهرت الغضب لعلني أفرّج كربها، وأحلّ عقدة ضيقها وأوسع فتق الخلاف.

فصبرت وكظمت غيظي وذكرت لها في نفسي كل محاسنها وعفوت عن هفوتها فبلغ بها الغيظ أعلى درجاته وكادت تتميز، وفجأة تركتني وقالت: سأتركك ولن تراني بعد اليوم، ثم سارت لا تلوي على شيء وتجلَّى فيها الخلق الروسي العريق، وربما نبضت عروقها بدم آخر أشد خطورة من الدماء الروسية، ولم أعهد فيها تلك القوة على السير السريع في اتجاه مجهول فلم أبال بها، وعوّلت على أن أعود إلى البيت فورًا لأحزم متاعي، وأدرك أول قطار يصادفني في المحطة، وعولت في نفسي على أن أعود إلى فيرنزه بعد أيام لأضع حدًّا بين هذه الفترة وفترة جديدة أكون فيها حرًّا طليقًا من قيود صداقة ظهرت فيها الصديقة بهذا المظهر.

وسرت في طريقي متمهلًا صارفًا ذهني عن التفكير فيها.

ولما بلغت البيت وجدته مظلمًا فصعدت ووضعت المفتاح في ثقبه، وعالجته حتى انفتح الباب. وعبرت العتبة وأشعلت السراج في غرفة الجلوس، وأخذت أقرأ وأفكر قليلًا في هذا البيت الصامت، ولا أدري كم طالت جلستي ولم تذهب بي الظنون أي مذهب، بل قصدت إلى النوم حتى الصباح وقمت إلى غرفة النوم لأضع ثيابي، فلما ضاءت الغرفة رأيت منظرًا مدهشًا. أوجستا جاثمة في ركن تبكي بكاءً مرًّا، فلما رأتني نهضت

وطوقتني بذراعيها واندفعت تبكي وتعتذر وتستغفر وتقول: «لقد عدت إليّ. سامح جنتي وتجاوز عن سيئتي وارحم ضعفي فقد كدت أفقد عقلي خوفًا من سوء ظنك بي إلى آخر ما قالت، فطيبت خاطرها وجففت دموعها، وصارت المرأة الناضجة القارئة الكاتبة بين يدي كالطفل الخاطئ النادم، فقلت لها: خير ما نفعل أن ننسى، ليس بالمستحسن أن نسترسل، هيا اخلعي ثيابك وأعدي طعامك واصنعي لنا مجلسًا. فعادت إلى البكاء تسألني هل عفوت عني حقًّا قلت: «هل أنا البابا وأنت تشترين الغفران مني، كلا لم أعف لأنني لم أشعر بذنب».

قالت لي: قلت لك كلمة كبيرة وقد أحنقتني وأنت لم تخطئ في حقي أبدًا، وأخجلتني فصغرتُ في عين نفسي.

قلت لها: لقد أحسنت إليَّ في القرب والبعد وتحملت لأجلي، فهل أنسى كل هذه الحسنات المتعاقبة لقاء إساءة واحدة أنا أعلم أنها وليدة الغيظ والغضب؟

قالت: أصادق أنت، أصادر هذا القول عن قلبك.

قلت: نعم نعم.

واطمأنت وعادت الحياة إلى مجاريها، ولكنها بقيت أيامًا لا ترفع نظرها في وجهي، وتتعمد أن تتحاشى نظري من فرط الحياء، وأخيرًا سألتها من هذا الرجل الأنيق.

قالت: إنه بلاء من السماء. إنني أغادر مكتب البريد رأيته يتبعني ثم سألني بلغة روسية فصيحة ولهجة مهذبة عن جنسي واسمي فقلت له: إنني روسية مثلك ولكن اسمي لا حقَّ لك في معرفته وإن كنت دڤورنيك (وهو بواب العمارة ورمز التجسس) أو موظفًا في الأوخرانيا (مكتب الاستخبار)، فنحن في بلاد أجنبية وأنا سيدة متزوجة من رجل أجنبي، فاحمر وجهه وقال: أخطأت يا سيدتي أنا غريب ها هنا وقد رأيتك فرأيت قطعة من وطني، فقلت له: لست أنا الروسية الوحيدة الفريدة في فيرنزه، إن البلد يزخر بالروس واعلم أن زوجي عما قريب يصل إلى هذا المكان، وهو رجل حاد الطبع قوي المزاج شديد الغيرة، فإن رآك معي فقد يحدث ما لا تحمد عاقبته وقد حذرتك. فقال لي: أنا فلان وصفتي كيت ومكانتي كذا وكذا. فقلت: لم أسألك عن شيء من هذه التحف. ثم أقبلت وقلتُ: ها هو رجلي جاء فابتعدْ عني، فاضطرب وارتبك وكنت أنتظر منك أن تدنو مني وتتأبط ذراعي وأن لا تخذلني أمامه بطول الأناة والصبر، وأنا أعلم أنك تغلي كالمرجل وأنني سقطت من عينك وعزمت على قطيعتي، وأنا أذكر أنك قلت لي: أما مسائل النساء فأنا لا أتلمس فيها الأدلة والبراهين بل إن أضعف شبهة تصبح عندي يقينًا، ورأيتك تبتعد وتنتظر ثم تدعوه إلى الجلوس في مقهى.

قلت لها: ألم يكن هذا منطقيًّا على قواعد الأدب الاجتماعي، وهل كنت تنتظرين أن أجرد سيفي وأدعوه للمبارزة مثل بنڤنتو تشيليني، يقتل المزاحمين على معشوقاته لأتفه الأسباب، وينتحل أضعف الأعذار لإراقة الدماء؟

فضحكت وقالت: ولكنني لست معشوقة.

قلت لها: ولست أنا بنڤينتو وليس محرمًا عليك وأنت سيدة بالغة رشيدة وأستاذة أن تخاطبي رجلًا في غيبتي ما دمت واثقة من نفسك ثم إنك حرة.

قالت: لست حرة، إنك تقتلني، لو كنت حرة ما كنت الآن في هذا البلد، أنا تابعة لك ... أنا طائعة، أنا جاريتك ... نعم لم أنتظر أن تنهره أو تعنفه، ولكن انتظرت أن تأخذني من يدي بدون تحية له ولي؛ لأنني ملكك والمالك لا يستأذن مملوكه.

فقلت لها مداعبًا: يا مملوكتي صمتًا.

وهكذا انتهتْ هذه المشاجرة الوحيدة الفريدة في بابها.

وبعد أن أكلنا قالت لي: لا أحب أن أختم ليلتنا هكذا بل لا بد أن نخرج ونمشي في ضوء القمر ثم نعود معًا كما كنا نعود كل ليلة، وأنا لا أتطير ولكن لا أحب هذه العادة.

فقلت لها: الحق بيدك ولكنني متعب، لنفرض أننا خرجنا، ولنتخيل الأماكن التي مررنا بها فمن أصعب الأشياء على نفسي أن أعود إلى ثيابي بعد أو وضعتها لأجل وهم أو طيرة.

وأخذت أفكر في فراشي قبل النوم فيما وقع، فاهتديت إلى أنه خير ما وقع لنا في أيامنا وخير ما يصادفني في المستقبل ولكنه وقع عرضًا بغير قصد، فإن خير ما تعامل به المرأة المحبوبة أن لا يظهر الرجل كل عواطفه ونحوها وإلا زهدت فيه. ولم أرتبْ قط في روايتها عن ذلك الرجل المهذب، فإنه روسي أصابته نوبة حنين إلى الوطن، ولعله لا يعرف لغة البلاد أو ورد فيرنزه تقليدًا لغيره أو انتجاعًا للصحة أو مقتفيًا أثر أحرار هاربين، فأراد الاتصال بمن يصادفه من أهل جنسه.

عود إلى ساڤونا رولا

وفي الصباح خرجنا كعادتنا، أردنا أن نحقق بعض الأمور في شأن ساڤونا رولا، فأخذنا سمتنا إلى متحف سان ماركو وفيه صورته من صنع بارتولوميو، وعثرنا على صومعة ساڤونا رولا التي عاش فيها راهبًا قبل ظهور دعوته وهي غرفتان صغيرتان جدًّا لهما سقف على هيأة قبو بأبواب مستديرة ونافذتين ضيقتين مستديرتين، في الأولى

منهما كرسي خشب كان يجلس عليه الراهب وصندوقان، الأول فيه ملابس كانت له مكتوب عليه بالإيطالية اسمه كاملًا، وأنه صلب وأحرق بفلورنس بأمر أهل المدينة سنة ١٤٩٨، وفي الصندوق غير ملابسه الصوفية الخشنة (بيضاء وسوداء) مسبحة كبيرة، وفي صندوق صغير مخطوط بيده فيه بعض تفسيره الإنجيل والتوراة وعلبة فيها صورته محفورة في الخشب، وفي غرفة نومه صليب منقوش وصورة المسيح من صنع فرايا بارتولوميو، وفي غرفة كبيرة مجاورة عظام ساڤونا رولا كتب عليها تاريخ صلبه، وعلى قبره تمثال لرأسه من صنع ميكال أنجلو نقلًا عن صورة فرايا بارتولوميو ولوحتان الأولى تمثل سيره إلى محل الصلب وإحراقه مع صاحبيه، وحولهم رجال الحكومة والكنيسة والشعب يعتدي عليه ويسبهم ويقذفهم، وبين محل الإعدام وبين قصر الحكومة جسر مؤقت سار عليه الثلاثة إلى محل الصلب.

المؤتمر الوطني سنة ١٩١٠

١

برقية استدعاء لحضور المؤتمر الوطني

وبينما كنا عند مكتب البريد بميدان القصر العتيق نسأل عن المكاتيب التي ترد إلينا وتحفظ به قدم إليّ أمين البريد رسالة برقية صادرة عن باريس، ففضضت غلافها وأظهرت دهشتي لوصولها إليّ ثم اكتشفت أنها أرسلت أولًا إلى ليون، ثم أرسلت إلى فيرنزه وإذا فيها طلب سفري فورًا إلى باريس لمباشرة تنظيم المؤتمر الوطني الثاني الذي تحدد انعقاده في ١٤ و١٥ و١٦ سنة ١٩١٠ بعاصمة فرنسا، ويستحلفني كاتبها بكل عزيز ومقدس لديّ أن لا أتخلف وأن أبادر بالسفر، وأن أتذكر وطني وحاجته إلى خدمتي إلى آخر هذه الجمل الحماسية التي لم أكن بحاجة إليها؛ لأني أتلهف على قيامي بالواجب، ولا يقف بي ولا يعوقني إلا ضيق ذات يدي.

ولكنني بادرت وبعثت إلى المرسل وهو المرحوم الدكتور المخلص منصور رفعت الذي لقي حتفه في مدينة فينا في أواسط الحرب العالمية الأولى، وهو شقيق المرحوم إسماعيل لبيب أحد أصدقاء المرحوم محمد فريد بك المخلصين، أرسلت إليه برقية أطمئنه بمبادرتي إلى إجابة طلبه؛ وليبلغ تحياتي إلى محمد فريد بك الذي ذكر اسمه وأنه في انتظاري، وقد شعرت فعلًا بهزة إذ كنت في أقصى درجات السعادة العقلية، وكنت هادئ البال مشتغلًا بالدراسة الفنية وإتمام تعريب كتاب الأمير لمكيافيلي، وكنت متمتعًا بصحتي في وسط هذا الجو الساحر الفاتن، ثم حملت هموم الرحلة الطويلة الشاقة وحسبت ألم الفراق بيني وبين تلك السيدة التي أخلصت لي وأطاعتني وتبعتني

وخدمتني وفرحت بنجاحي، وبذلت جهودها في تنويري في الفنون وأعانتني بدراستها ومطالعتها.

وقد وقعت بيني وبين نفسي في ورطة خليقة بشتات الذهن وضعف الإرادة والتردد، ولا سيما وأني أقوم برحلاتي وتنقلي على نفقتي وأضيق على نفسي ليزيدني الله علمًا وخبرة. وقضيت ليلة على أحر من الجمر، وقد سألتني أوجستا ما عسى أن يكون في تلك البرقية التي لم أفاتحها في أمرها، وفي الصباح أفضيت إليها بنصها ووضعتها بين يديها وأظهرت لها ردي عليها.

فامتقعتْ وتغير وجهها ثم قالت: ما لم أكن أنتظره منها، قالت: هذه برقية مزيفة بعثت بصورتها لأصدقائك لتتركني وتتخلّى عني بعذر ظاهر، وهذه حيلة قديمة مطروقة وخطة معروفة مألوفة وحيلة لا تنطلي على مثلي وإن ظننت أنك تخدعني بها لتغدر بي فقد أخطأت، وكان أولى بك أن تصارحني أنك مللت عشرتي، وأن نفترق أصدقاء بدلًا من أن تجهد ذهنك ليتفتق لك عن هذه الفتنة إلخ.

فأصغيت إليها في صبر وشفقة وعرفان بالجميل؛ لأن هذه الثورة لا سبب لها إلا شيء واحد وهو تعلقها بي وشعورها بانقضاء أجل هذه الفترة من حياتنا، وانطواء بساط هذا الفردوس الأرضي فجأة وبغير انتظار، وذهبتْ بها الظنون كل مذهب وتخيلت حياة الوحدة وفقد الصديق وعيشتها في بيئة لا تلائمها، وإن يكن فيها ولدها وحشاشة قلبها وفلذة كبدها، فعجبت في نفسي كيف أن حب المرأة لرجل قد يتغلب على حبها لولدها ما دامت مطمئنة على حياته، وإن كان بعيدًا عنها وإن كانت عائلة الشرار جاي اليهود والروس المقيم هذا الولد في كنفهم يفتئون يخزونها بالإبر في مكاتيبهم وهي تعلم كيدهم وغيظهم وحيلتهم. ثم بعد أن شفت غليلها الأنثوي من القدح والهجاء، وسوء الظن بي وهي فريسة الغيرة والأوهام، انفجرت باكية فصبرتُ عليها حتى فرجت كربها ثم قلت لها: سأهدم أوهامك وظنونك ومطاعنك بكلمة واحدة. لقد عزمت على اصطحابك فترافقينني إلى باريس ولا تفارقينني أبدًا، وكنت في عام ١٩٠٨ قد سافرت إليها لتلتقي بي، وبحثت عني في فندق نوتردام دي لاجارد في شارع فوچيرار ومعك والدتك وابنك. فها هي الفرصة قد سنحت لنزور باريس معًا، فنمر في طريقنا بجنيف لنأخذ معنا زينا وبوريس، وإنني على كل حال شاكر لك فضلك وإخلاصك، وأنا أعرف الدافع والباعث على غضبك وحزنك وأن ما عندي يزيد مرات على ما عندك، وهذا سبب حيرتي وارتباكي ليلة أمس، وعندما نصل إلى باريس بإذن الله سترين بعينك إنْ كانت

البرقية مزيفة أم صادقة، وإن كان محمد فريد رئيس الحزب يدخل في دسيسة كهذه ليعين أحد أبنائه على التخلص من سيدة. وبما أنك تكتبين إلى الصحف الروسية، ومنها برافدا وجازيت البورصة فلا مانع من أن تكتبي إليهما بعض الرسائل عن المؤتمر المصري، وأظن هذا يضع حدًّا لكل نزاع بيننا.

فسكتت واطمأنت وابتسمت وسألتني متى تعقد العزم على السفر، قلت لها: بيننا وبين انعقاد المؤتمر خمسة عشر يومًا وأظنها كافية لاتخاذ أهبتنا واستعدادنا وسفرنا ووصولنا، وأنا أضع بين يديك وضع الخطة وتحديد الأيام والأوقات للرحلة. فأطرقت وقالت: دعني أفكر، وقلت لها: لا نغير نظامنا هنا حتى الساعة الأخيرة، ولا نبادر بلمِّ شعثنا إلا في آخر اللحظة، فأفطرنا وخرجنا وأنا أشعر بحزن شديد على مفارقة فيرنزه وجمالها وفخامتها وجوها وآثارها، وعشنا من تلك الساعة في جو الوداع وهو جو أليم يقتل الفرح وهو مثل حالة الإنسان الذي يعرف دنو أجله بالدقيقة والثانية. فبحت لها بتلك العاطفة فبكت وقالت: إنها تأكل قلبي فلماذا تحرك شجوني، قلت لها: ليس الفراق إلا مقصورًا على البلد وهي بحمد الله باقية قائمة، والعود إليها من أسهل الأمور ولا سيما في الخريف، فتكون أجمل منها في الصيف، قالت: لكنني أشعر بأننا لن نعود إليها أبدًا وأن هذه هي الزيارة الأولى والأخيرة لنا فيها، وأنها كانت فلتة من الدهر وكانت خلسة في غفلة الزمن وهيهات أن تجود الأيام والليالي بهذه الفرصة مرة ثانية!

فقلت لها: يا لك من متطيرة! هيا بنا نقصد إلى كنيسة سانتا ماريا نوڤيلا التي أحببت عمارتها وتصويرها، فادخلي وأبقى في انتظارك حتى تصلي وتجمعي عواطفك وتتوجهي إلى ربك أن يعيدك إليها، فضحكت ضحكة ساخرة وقالت: أنا لا أحب كنائس النصارى أقصد إلى الكاثوليك ولا أؤمن بدينهم. لست حرة الفكر ولا ملحدة ولكنني لا أعبد آلهتهم، قلت: ومن تعبدين إذن؟ قالت: أعبد إلهك! إلهك أنت، قلت لها: هذا حسن جدًّا فصلي إلى إلهي وابتهلي إليه. قالت: إذن لا حاجة بي إلى كلام الكنيسة وأصنامها، أليس رب موسى وعيسى ومحمد في كل مكان؟ فوقفت في طريقي وقلت لها: أجل. أي: نعم بلى! قالت: انتهينا أتوجه إليه في أي بقعة وفي أي وقت أن لا يفرق بيننا، فجرحت هذه الكلمة قلبي فقلت: آمين، وتجدين أنني ارتبطت بهذه الرغبة على أن يدوم صفاء قلبك ووفائك.

فكرة خاصة بفيرنزه

وبدأنا سيرنا في الطرق وتنفيذ خطتنا فقالت لي ونحن نمر بشارع تورنابوني: ألست ترى فكرة خاصة بفيرنزه غير جمالها وطقسها ومقاصفها، أريد ماذا ترى وراء هذه المظاهر الفخمة الفاتنة؟

قلت لها: نعم لقد شعرت أن المدينة كائن حي كامرأة ذات حسن خالد، فهو يتجدد في كل عصر بل في كل عام وكل فصل وصباح ومساء. قالت: هذا تكلمنا فيه ولكنه خاص بالمظاهر المادية هل عندك غير هذا؟ قلت: كلا ... لا بد أن أفكر أمدًا حتى تختمر فكرة المدينة في ذهني، قالت: لقد خطر ببالي فكرة أظنها تسربت إليّ من مطالعتي في كتاب تين وكتاب سيسموندي في تاريخ الجمهوريات الإيطالية «البندقية وفيرنزه وجنوى»، ورجع ذهني إلى تاريخ أثينا فوجدت أوجه مشابهة كثيرة بين البلدين في الوضع الطبيعي ونقاء الهواء ومهارة أهل الفنون وخصوبة الأرض وجمال المناظر، غير أن الفوارق في العقول، فأهل أثينا لهم عقول اتجهت إلى الفلسفة والسياسة، فجنت عليهم الفلسفة والسياسة جنايات كثيرة فعاشوا في حروب وجدل وكفاح أحزاب، وتزاحم بالمناكب على الزعامة والشهرة، أما فيرنزه فقد اتجهت عقول أهلها من قديم إلى الأدب والفنون، فتهذبت أخلاقهم وصفت سرائرهم وتدمثت أخلاقهم وظهرت عليهم آثار النعم وعاشوا معظم أوقاتهم في سلام، ولم يقسوا على أحد من زعمائهم غير المسكين ساڤونا رولا؛ لأنهم استضعفوه كما استضعف الرومان عيسى المسيح، قلت لها: هل الرومان أم اليهود استضعفوه؟ قالت: اليهود أبرياء من دمه؛ لأنه منهم ونبغ فيهم ويسوءهم أن يعدم، ويسرهم أن يجدد ملك سليمان، ولكنه يسوء الرومان أصحاب السلطان.

قلت: أسمع هذا الكلام للمرة الأولى في حياتي، ولكن نحن لا نحقق من كان سببًا في صلب المسيح حسب عقيدتهم، وعلى كل حال فأنا لا أعتقد أنه صلب بل شبِّه لهم حسب نصوص ديني فاستمري في كلامك، قالت: إذن أهل فيرنزه حكموا على واحد فقط وقضوا عليه؛ لأنه أراد أن يجمع في يديه سلطة الدين والدنيا وأراد أن يأمرهم بالاستقامة، وينهاهم عن الحب والمرح والخلاعة وأفراح الحياة وهذه تجري في دمائهم، أما آثينا فقد قتلت سقراط رجل الحق والخير ووضعت قوانين دراكون الشهيرة بقسوتها، وقتلت مئات من زعمائها وسجنتهم ونفتهم كما يخبرنا بلوطارك حتى ثمستوكليس الذي خلصهم من الفرس ونصرهم في موقعة ترموپوليس الحاسمة أرغموه على الفرار بحياته، فلجأ إلى ملك الفرس عدوه القديم فأكرم مثواه، والضيافة

من أجمل خصال الشرق، وفعل أهل أثينا الأفاعيل بديموستين خطيبهم وزعيمهم حيال فيليب المقدوني وناصبوه العداء، وسمعوا فيه الوشايات وحكموا بسجنه ونفيه، فاضطر للموت مسمومًا، هذه المآسي الدامية وعاقبة الفضلاء لا نرى لها مثيلًا في فيرنزه مطلقًا، فلم يقتل دانتي ولا ميكافيلي ولا بترارك ولا ليوناردو وكانوا كلهم على نقيض معاصريهم، ومرجع هذا إلى اختلاف المعقولية مع اتفاق في الجو والطبيعة والجمال والحذق. ونسيت شيئًا وأن الفصاحة الكلامية لم توجد عند أهل فيرنزه، ولا الجدال العتيق ولا صنعة الأفوكاتية ولا سفسطة بروتاغوراس. وتوجد النزاعات والخصومات وتنمو في كل بلد يكثر كلام أهله ويشتهر المحامون والخطباء، وتشقى البلاد كما هي حال فرنسا الحديثة. أليس عند كل أمة قضايا؟ طبعًا نعم ولكن في فرنسا كما كان في آثينا يوجد محامون أكثر من القضايا والمتقاضين حتى وضع راسين أو كورني لا أتذكر مسرحية المتقاضين Les Plaideurs فما قولك في هذه الفكرة؟

فقلت لها مبهوتًا: أنت التي تظنين أرغب في فراقك وأحرم نفسي من حبيبة وعالمة وحكيمة ومعلمة وصديقة. ولو أنني لم أر في شوارع البلد رجلًا يقبل سيدة لقبلتك فأنا أقبل يدك التي يزينها هذا الميثين (قفاز من الدنتلة أسود اللون للأنامل والمعصم)، فضحكت وقالت: أنت تتملقني، إن أفكاري لا تزيد عن أفكار امرأة وأظن أن اجتماعنا يلهمني، فإذا افترقنا عدت كالصخرة أو الأرض المجدبة أو حفنة تراب. قلت لها: يحق لي أن أقول هذا، فقد غيرت نظري في كل شيء، قالت: ولكن آدم هو الأصل وحواء خلقت من أضلاعه، قلت: يا عزيزتي هذا رمز إلى أنها كانت تسكن جوانحه فلما انفصلت بقي بلا قلب حتى عثر عليها.

في متحف أوفيتشي ومتحف جلاريا

وفي هذا اليوم قصرنا زيارتنا على التزود من بعض آثار متحف أوفيتشي، فرأينا «بشرى العذراء بالملك» من صنع كريدي والعذراء تعبد طفلها من فن كوريجيو ومادونا ديلاربي ديلسارتو، وعذراء رفائيل مادونا ديلكارد يلفو، وهذه أعيان تماثيل العذراء غير ما هو محفوظ في المتاحف الأخرى، ولا سيما صنع بوتشيلي. ثم وقفنا أمام فينوس مديتشي وهي التي عثر عليها في زمن مديتشي فنسبت إليهم ولكنها بيقين من صنع الإغريق، وكذلك تمثال الطفل الذي يخرج شوكة في قدمه اليسرى، ثم تمثال المعوز يتطلع إلى السماء في طلب الرزق، ثم تمثال المتصارعين، وهذه الأربعة التماثيل من أبدع

ما صنعته الأيدي بعد إنتاج سيد الجميع في الصناعة فيدياس اليوناني، ثم ميكل أنجل الفيرونتيني، ثم ودعنا لافلورا لوحة تيسيانو الخالدة الجمال الزاهية الألوان الساطعة الجبين الفاتنة الأعين البديعة التكوين الحالكة الشعر النقية الثوب الحاملة الزهر. ثم صورة ليبران لنفسها بريشتها وهي صاحبة العصفور بالقفص، وكنا رأينا صورًا للمصورين أنفسهم بريشتهم مثل ليوناردو ورامبراند وميكل أنجلو وبويتشيلي. ورأينا لوحة ماريا مادلين لدولتشي وهي حلوة كاسم مبدعها ولوحات لبوتشيلي والأعمار الثلاثة لجيورجيوني وإنزال المسيح عن الصليب من صنع الراهب الأخ بارتولوميو، وهو الذي أخلص لساڤونا رولا وأخلده بالتصوير، وهذا الموضوع الذي يسمونه لاپيتا أي حنان الأم مع ولدها وقد عالجه جملة من المصورين، ومنهم ميكل أنجلو وجعله منه تمثالًا لقبره.

ثم خرجنا إلى متحف (جالاريا) قصر پيتي وفيها آثار لا تحصى، منها حواء صنع ألبرت دورير الفرنسي وعذراء أخرى لرفائيل (مادونا ديلا سجيولا، أي: الجالسة على الكرسي)، وفي حضنها الطفل ولعلها أجمل تصاوير العذراء قاطبة، وأخرى من صنعه مادونا الغراندوقه والأسرة المقدسة من صنع ليبي ويوحنا المعمدان في صباه ديل سارتو، وليونارد وله بعد الجوكوندا صورة للمعمدان وهو فتى، صورة فاتنة وعلى فم الصبي بسمة غامضة وتذكرنا ببسمة موناليزا مما دلني على أن السر في الراسم لا المرسوم، ومررنا بالقاعات مرورًا خاطفًا ونحن نترك في كل واحدة منها قطعة من قلبنا، فقالت أوجستا: «الإنسان مسكين كنبتة الخرشوف (أرضي شوكي) يترك مع كل من يحب وما يحب ورقة حتى لا يبقى له شيء!»

التأهب للسفر

وعزمنا أن نتغدى في مطعم؛ لأنها قالت لي: إنها لا تطيق بعد اليوم أن تبقى في البيت وحدها تعدّ الطعام في انتظاري؛ لئلا تفكر في الفرقة فتحرق الأكلة أو تزيد ملحها فضحكنا واختارت مطعمًا ألمانيا (رستوران جامبرينوس) ببياتزا فيكتور عمانوائيل وهي التي تولت عني التفاهم مع الخادم، فأكلنا خضرًا وأكلت هي رو مشتوك وأكلت عجة بيض بالمربى وكرنبًا وسمكًا وفاكهة (خوخ وبرقوق)، وشربنا قهوة مقطرة ودخنت سيجارًا وعرضت عليها بيرة ألمانية، فاعتذرت أولًا ثم قبلت وأحسست أنها انشرحت وسرت؛ لأنها أكلت طعامًا لم تتعب في إعداده، وانتقلنا إلى قهوة چياكوزا

حتى نكسر حرارة القيظ ونثرثر في كل شيء إلا موضوع السفر، وبعد أن استرحنا ساعة أخذنا نطوف بالجسور على نهر الأرنو ولها منظر في الظهر غير مناظرها في الصباح والمساء، وفي الساعة الرابعة أخذنا الشاي في مشرب البيون تقوم بالخدمة فيه إنجليزيات لا رجال معهن، وأوجستا تحب الشاي كما يصنعه أهل إنجلترا، ولكن لا تحب الفتيات الجميلات ولكنها صبرت حتى شربنا، ثم قالت لي ونحن نتأهب للخروج: هذا يوم استثنائي لا نقدر على تكراره؛ لأنه يكلفنا ما لا نطيق، قلت لها: الأمر لك ولأبقين معك ريثما تعدّين الطعام وليكن أكلنا بسيطًا حتى لا يضيع وقتنا في سبيل بطوننا، أما الشاي والقهوة فلا أرضى عنك في صنعهما بديلًا.

ثم أخذنا نتزود للعشاء مما أعلم أنه يسرها ويلذ لها مثل الجبنة البيرجامو والمخللات الحريفة والأنشوا (أسماك مملحة صغيرة) وكاكاو ڤان هوتن، وكانت تنطق الهاء جيمًا مثل الروس وحاولت تقويم نطقها في هذا الاسم، فلم أستطع كما ينطق أهل الصعيد جرجا وإلا فيقولون: دردا والديش بدل الجيش مع أنها في أعلى درجات الثقافة، وتقرأ الأحرف ولا تنطقها تقليدًا بالسماع.

وقد أخذت الليالي طعمًا ولونًا ولذة جديدة، فقد أخذنا نطيل السهر ونكتفي بالقليل من النوم ونعمل على «الخواتيم» أي: ننظر ما ينقصنا في كل شيء مما بدأناه، فإن كنا كتابًا أسرعنا في الفراغ منه، وإن كان فكرة استقصيناها وإن كان متحفًا أو طريقًا أو قصرًا أو جسرًا لم نزره فعلنا.

وأرادت أن تشتري أشياء تجعلها بمثابة التذكار فقلت لها: أخذنا كثيرًا ولا يهمنا إلا الكتب وبعض التصاوير وعندنا منها ما يكفي ولا حاجة لنا في ثياب أو مصوغ، ولعل الله يعيننا في نقل ما نحمل في سهولة ويسر، ولكنها صممت على أخذ هدايا لزينا وبوريس. ثم أطرقت وقالت: على كل حال لا بد لي من النزول بچنيف أمدًا قصيرًا، ولا بد أن أحمل هدية لبيت جاي فقد خدموا ولدي وإن كانوا نغصوا حياتي!

ثم قالت: أتدري أنني لم أعقد العزم بعد على مصاحبتك إلى باريس.

فذعرت وعجبت وقلت لها: لماذا؟

قالت: عرفوك شابًّا عازبًا فيرونك رجلًا مصحوبًا بامرأة وطفل وفتاة يظنونها مربية، ألا تكفي لحيتك في التدليل على تقدمك في السن حتى تأخذ أسرة. فربما بقيت في جنيف إلى أن تعود، إن غيابك لا يزيد في أقصاه عن شهر يمكنني أن أتحمله، ولكن إبهاظ كاهلك بنا في باريس ومضاعفة مشغوليتك وتعبك، لا يجعلك متفرغًا لعملك وأصدقائك وصديقاتك.

فضحكت وقلت لها: أية صديقات تقصدين؟

قالت: المجهولات من بنات باريس اللواتي يغشين المؤتمرات، ويلتففن حول كل شاب وإنك واجد حتمًا روسيات وبولونيات متهوسات ومغازلات ومغامرات، فسفرنا معك يحرمك تلك المتع. وكانت تتكلم بين الجد والمزاح بتلك اللهجة التي تدل على ما تكتم وتخفي، وما خفي كان أعظم.

قلت لها: لقد أردت أن أقطع دابر هذه الظنون والشكوك فلم أستطع ولا حيلة لي.

قالت: وأين ننزل كلنا؟

قلت لها: نوتردام دي لو فيكتوار أو دي لاجار بفوجيرار.

قالت: سنرى عندما يحين الوقت.

وأخيرًا حان الحين وأخذت تعد الحقائب ودَعَتْ مدام سباتيني لتسلمها البيت، وحددنا يوم السفر. وأخذت تبكي بكاء الثاكلات وتودع الغرف وتلمس الأثاث والفراش والمقاعد، وقد تعمدت أن أمزج أمتعتي بأمتعتها حتى لا تشعر بوحشة.

فقالت لي: ربما نفترق في لوزان وأبقى بجنيف؛ لأن لوزان محطة الوصول لقطار ميلان — باريس.

قلت لها: إن حصل هذا فأنا غني عما يكون لي عندك إلى أن نلتقي.

قالت: إذن أنت تبيت فكرة مفارقتي وتريد تلهيني بثياب وكتب. وبكت من جديد.

قلت لها ضاحكًا: أنت المرحة بنت النكتة وأمها، أنّى لك هذا النهر من الدموع؟ إن نهر الأرنو لم يصل إليه هذا القدر من الماء. صوني دموعك فلسنا أول المحبين وآخرهم، وليس اللقاء والفراق كل ما ذقنا في الحياة.

فقالت: الحق أنني لم أشعر بألم كهذه المرة؛ لأننا عشنا وحيدين بلا رقيب وامتزجنا وانسجمنا، ولم تسبق لي هذه النعمة أبدًا فأنت الذي أضعفتني ورققت قلبي وأوهنت إرادتي.

قلت لها: لا تغضبي مما أقول، لست أول رجل عرفته فقد عرفت على الأقل زوجك ووالد ابنك، وهو الذي نقلك من الهوى العذري إلى حب المرأة الناضجة ثم تنسبين إليّ أنني أضعفت إرادتك. ولكن الحق أنك تحاولين إضعاف إرادتي ووهن عزمي وتصرفين رجلًا عن أداء واجبه ولم أعهدك تفعلين بل تشدّين أزري وعزيمتي.

ثم ظهر لي أنني أخطأت خطأً جسيمًا في القولين ونسيت فضلها وشكواها المرة من ماضيها، وما كان يجوز لي أن أتهمها بالقصور وقد بذلت قصارى الجهد في بلوغ

غايتي. ولكنها سكنت وعضت على شفتها وأطالت النظر إلى الفضاء. ثم لمعت عيناها وقالت: أنا آسفة وأعتذر إليك. وكنت مازحة لا جادة، وكان صوتها تهتز نبراته ومن تلك اللحظة جمدت عيناها وطال صمتها ونشطت في أعمال البيت والكتابة، ورتق فتوق ثيابي وجواربي وأخذت تعزل أمتعتي وكتبي عن أمتعتها وكتبها.

فقلت لها: مهما تفعلين فإن هذا لن يزيد عبء الحمل ولا ينقصه فإن كثرت حاجاتي عن طاقتي تركتها بجملتها لك، واعلمي أنني درويش كالذين تعرفينهم في روسيا لست متعلقًا بالثياب والمتاع، وأستطيع أن أعيش سنة بدون شيء مما ترين، فأترك لك حقائبي بما فيها إذا تعمَّدت تركي في لوزان أو جهنم الحمراء وهذه مسألة انتهينا منها. وادّعيت الغضب وحاولت أن أخرج لأؤكد غضبي.

فقالت: لا داعي لتعذيبي في هذه الأيام القليلة أو الساعات الباقية. ثم أنشدت بالروسية أغنية شعبية لبوشكين تكاد تكون:

أنا الجسد وأنت روحي ما لي غنى عنك.
غنى عن الناس لكن لا غنى عنك.
لقد حيرتني وأهنتني واتهمتني وأنت تحاول أن تغير قلبي عليك.
ولكنك تزيد ناري فلا تقابل حبي بضّده.

قلت لها: لقد أفلت زمامنا واختل توازننا وهذا يضرنا ولا ينفعا، واعزمي على مصاحبتي رغم كل الصعوبات، وها أنا أجد لك حلًّا موفقًا لنذهب إلى باريس ولا تتخلفي في سويسرا بأي حال، فإذا استقرت حالنا في باريس، وليكن ذلك في فونتناي أوروز (وهي ضاحية تحبها) ابعثي في طلب بوريس وزينا، فإن باريس أقرب إلى جنيف من فيرنزه، فلمعتْ عيناها من جديد واحمر وجهها ونهضت وطوقتني بذراعيها، وألقت برأسها على كتفي وبكت حتى بلّلت ثوبي. فعجبت وغضبت ولكن تجلّدت وصبرت ثم قلت لها: لقد خارت قواي لست صخرة ولا جليدًا. قالت: اصفح عني. هذه آخر مرة. قلت لها: أكاد أعتذر عن السفر إذا كان يؤدي إلى موتك.

فصحت وتفصحت وقالت: كيف عرفت أنني سأموت؟ هل لو عرفت أن فراقك يقتلني تعدل عن السفر حقًّا؟

قلت لها: بكل تأكيد فليس الواجب نحو الوطن مقصلة لأحبابنا ولست إلا فردًا وغيري كثير.

قالت: ألا ترى هذا عصيانًا وذنبًا في حق الوطن.

قلت: كلا.

قالت: إذن سافر موفقًا سعيدًا، مطمئنًّا هادئًا. وعدني بأن تكتب لي في كل يوم خطابًا، وسأنتظرك إلى آخر نسمة من حياتي، إذا شاءت الأقدار أن لا أصحبك.

٢

محاولة انتحار

شددنا رحالنا وركبنا القطار في المساء وتعمدت هي أن تأخذ التذاكر بيدها وأخفتها عني وجلستْ بجانبي، ومنذ أخذنا مقعدنا تغيرت أوجستا فأحسست أنني لا أعرفها فقد كانت خنصرها مصابة بالدحاس، وتؤلمها وهي مضطرة لعلاجها بمكمدات الماء الحار (ولم أكن أعرف علاج صبغة اليود وهو علاج شاف)، وكانت تبكي فأسألها أن تكف وأكفكف دمعها فتعتذر بأنملها، وأعانها على البكاء أن لم يكن معنا في ديوان القطار رقيب ولا جار، فلم تغمض لها عين ولم يجف لها دمع ولم تأكل زادًا، حتى أورثتني الهم، وحاولت مداعبتها فقلت لها: لعلني مطلوب في الجهادية»، فلم تفهم النكتة؛ لأنها نكتة مصرية باحتة. فخجلت من نفسي وأسندتُ رأسها إلى كتفي كما يفعل المحبون في الأسفار فأبت، ولا أدري كيف قضينا الليلة ولكن أتذكر أننا بلغنا صباحًا محطة بولونيا وفيها يبقى القطار ساعة، فأرادت أن تنزل لتزور كنيسة صغيرة فيها صورة ثمينة لڤنشي وهي صورة المائدة (العشاء الأخير)، ثم عدنا إلى القطار ورأيت وجهها في ضوء النهار، فإذا هو شاحب وعيناها محوطتان من أسفل الجفون بإطار أزرق وأجفانها متورمة وشخصيتها منحلة، أما أنا فكنت منتعشًا من هواء الصباح فلمت نفسي على الابتهاج، وتحسن صحتي حيال حزنها وانحلال شخصيتها حتى في المسير والحركة، فأخجلني تماسكي وصبري حيال جزعها، ولم تذق طعامًا.

ولما ركبنا القطار في طريقنا إلى ميلانو ومررت بالبحيرات والحقول دعوتها للإفطار في مركبة الطعام، وبينا نحن نحظو ونعبر بين المركبات رأيتها تحاول جادة أن تلقي بنفسها بين العجلات، فقبضت عليها بيد من حديد وكادت تجذبني رغم إرادتها لولا لطف الله بنا، فأعدتها إلى مجلسنا ولم يشهد هذا المنظر المروع الإجرامي أحد لستر الله علينا. فلما دخلنا الديوان أقعدتها وغلقت النوافذ والأبواب وكنت أرغي

وأزبد وأرتجف حتى هدأت أعصابي وقلت لها: إنني لم أعزم ولم أنتو ولم أفكر في الانتحار تحت عجلات قطار إيطالي، ولا ذنب لي ولا بلادي وأهلي حتى أموت شهيد الغرام صريع البخار والحديد والنار لسواد عينيك، وليس في وسعي أن أقضي النهار حتى نبلغ غاية سفرنا في مراقبتك والخوف عليك كطفل قاصر يخشى عليك من الأبواب والنوافذ، ومهما يكن بغضك الحياة فليس في خطتي أن أشهد مصرعك مكتوف الأيدي، لا شك يا سيدتي أنك مخبولة وأني أذكر بمزيد الأسى أنك شرعت في الانتحار قبل اليوم وكان عليّ أن أودعك، وسأبقى بجانبك حتى يقف القطار ثم أغادره وأنصرف لشأني تاركًا أمتعتي في أمانتك فقد بلغ السيل الزبى، ولعلك أيتها المادونا الصغيرة تقربين من وطن جولييت لتمثلي هذا الدور، ولكن اذكري أنه ليس من الوفاء لوحيدك أن تفجعيه باليتم، وليس من الوفاء لي أن تقتليني في عودتنا، فإما ... وإمّا.

فرأيتها تركع في ركن وتتجه إلى الشرق وتصلّي، فكدت أغيب عن صوابي وانتظرت حتى انتهت من ابتهالها لمعبودها ... ونهضت وجلست متماسكة الأوصال، وقالت: أنقدتني من الموت المحقق. فشكرًا لك ورددت إليّ عقلي فقد عزمت على الانتحار فعلًا ولم أحاول جذبك معي. وقد تبت.

قلت لها: عفوًا ليس المجال مجال شكر وتوبة. لقد حطمت أعصابي، فلا كنت ولا كانت مصاحبتك ولا فلورنس ولا ليونارد، لقد أيقنت أنك عنصر خمول وقتل للهمة، وبعد فلسنا زوجين ولا خليلين حتى الموت يا سيدتي، وقد عزمت على أن لا أموت بسببك أو سبب أي امرأة أخرى، ولو كنا في مدينة لسلمتك إلى رجال الشرطة، وأخليت تبعتي منك وبلا ريب لن أصحبك إلى باريس بل لن أصحبك بعد اليوم، وعليك أن تعدي علاقتنا منتهية فإن لكل شيء حدودًا. نعم لم أتخذك سلوى ولا ملهاة ولكنني أصحبك لتكوني أداة تعذيب لي ثم سبب موتي. فالزمي مكانك ولا تخاطبيني في شيء حتى يعود لي ثباتي ثم لا يكون كلامنا إلا سؤالًا وجوابًا، لقد خدمك الحظ بخلو الديوان من الرقباء والشهود. ثم أعرضت عنها.

وبعد ساعة سمعت أنينها وهي تقول لي: إن جرح خنصرها يدمي.

فقلت لها: ليس معي ما أسعفها به وليس في القطار أودة عمليات ولا صيدلاني ولا طبيب، فلتصبر حتى ميلانو.

قالت لي: أنا آسفة وأعدك أن لا أعود. وانقلبت طفلة نادمة.

قلت لها: أنت العالمة الأديبة الفنانة المدركة والأم الحنون تفعلين هذا، وقد شرعت في مثله أمامي في جنيف، فهذا داء في العقل لا يفارقك ولا أمان لامرأة تتهدد بالانتحار.

قالت: أنا نادمة أنا امرأة ضعيفة أكاد أجن فاحمني.

قلت: على أن تقسمي بإلهك الذي ما زلت لا أعرف من هو وأي الأرباب هو أن لا تحاولي الانتحار ما دمت معي في هذا القطار.

قالت: أقسم. قم بنا نأكل.

قلت: حتى تكتبي تعهدًا بذلك.

قالت: لا فائدة وكلمتي تكفي.

قلت: اسبقيني ولا أسايرك فإنني ألحق بك.

قالت: نعم. وتقدمت ولم أتبعها بنظري. وبعد ربع ساعة أدركتها في مركبة الطعام تلتهم إفطارًا شهيًّا. ولكنني فقدت شهيتي وعجبت لمعدة النساء التي تهضم الحب والبغض والشروع في الانتحار!

وعدنا إلى المركبة حتى بلغنا ميلانو وهي موقف ساعة، ولا أذكر إن كنا مررنا بتورينو ولكن أذكر أننا مررنا بنفق سمپلون وأذكر أنها قالت لي: قبلّني في الظلام، فضحكت من خيالها وقلت لها: نحن منفردين في ديواننا ويمكن أن أقبلك في النور فلم يكون الظلام، قالت: إن حب الاختلاس ألذ وأمتع، قلت: لم يصل بي التحايل إلى هذا الحد.

الوداع في لوزان

ونزلنا في ميلان وزرنا الدومو وعدنا واشترينا في الطريق فاكهة وطعامًا، وأدركنا القطار وبقينا فيه ساعات طويلة حتى بلغنا لوزان، وكان الصفاء قد عاد لنا وتحدثنا وكاشفتني بأنها عولت على أن نفترق في لوزان وأن آخذ سمتي إلى باريس بمفردي. فعاتبتها وقلت لها: بل أنا باق في لوزان إلى أن تعودي إليّ ولكنها لم تقتنع. ولما أيقنت أننا مفترقان ها هنا ندمتُ على قسوتي عليها، والتمست الأعذار لنفسي. فقالت: لم تقس ولكنك بالغت في تخويفي وأنا متعودة عهود الإرهاب؛ ولذا تجدني لا أخاف من أعدائي فكيف بك وأنت أحب الناس إلي أيها الطاغية الصغير. وأبت أن أبقى بلوزان بغير داع لنعود فنذوق الفراق من جديد، وأبيت أن أستمر في سفري إلا بعد أن تأخذ مكانها في قطار چنيف فقبلت، وقضينا ساعتين في لوزان حتى حل موعد قطارها، فودعتني ضاحكة باكية لله ما كان أجملها وما أعجب الجمع بين الابتسامة الحزينة والعين الدامعة!

افترقنا في لوزان، في محطة اللوزان، وكنا التقينا لأول مرة في شرفة رحبة مطلة على بحيرة ليمان والجبل الأبيض في ليلة البدر، وتحت أقدامنا تلك المحطة بأنوارها

الحمراء والخضراء، وكان ذلك منذ عامين في نفس شهر أغسطس الذي تمتاز لياليه بسقوط النيازك والشهب. لقد ودعتها على المحطة وداعًا مختطفًا وتجلّدت ولكنها لم تتجلد، وكنت أود أن تسرع دقائق الوداع مسرعة؛ لأن الملل دب في نفسي خفية في بطء شديد مع أنني كنت مستهامًا. أما هي فلم يكن الملل قد دب إلى نفسها بل كان يحرقها الشوق الدائم، وتنهشها الغيرة لظنها أن سفري مدبر للخلاص منها.

ونظرت إليها فبدت لي المسكينة بنظرة حائرة ولهانة، وقد كنت لها صديقًا وسندًا وأنيسًا ونديمًا ومحدثًا ثلاثة أشهر. فلما توارت عن نظري كانت تجهش بالبكاء، وأنا أبتسم لأشجعها. ولكنني عندما تغلغل القطار في الأنفاق وغابت لوزان بمعالمها وابتلع البعد شبح صديقتي، حزنت عليها حزنًا شديدًا ولشد ما وددت أن أصطحبها إلى باريس، لولا أنها كانت في شوق شديد إلى طفلها، ولعلي أردت في حنايا وجداني أن أتركها لتجرب الحياة بمفردها لتأسى على ما كان من صحبتنا خلال تلك الأشهر الثلاثة. والمرأة مهما بلغ ذكاؤها وقوة إرادتها ووفرة مالها لا تعدل عندها كل النعم صداقة الرجل وحبه، وقد عزمت على أن أبعث إليها برسالة مطمئنة من محطة ديجون التي يقف فيها القطار السريع برهة طويلة، وأخذت أكتب المكتوب لينعشها غداة غد.

وكان نور المخدع ضئيلًا، وبعد أن فرغت من الرسالة إليها أخذت أضع مشروعًا لنزولي باريس ومقابلة إخواني، وحاولت أن أسدل ستارًا على الماضي القريب وعزمت عزمًا أكيدًا على أن لا أفكر في صاحبتي إلا عند ورود مكاتيبها وحين الإجابة عليها، وعزمت على أن لا أخون عهد الصديقة النائية، وأنا قادم على باريس فتنة أوروبا، وعزمت على أن أتفرغ لعملي.

٣

الوصول إلى باريس ومقابلة الآنسة دي روشبرون

وبلغت باريس في اليوم الثاني ولم تغادر صورة أوجستا ذهني، ونزلت بشارع فوجيرار رقم ٣٢ في غرفة علوية عند كهله مترملة لقاء ثلاثين فرنكًا مشاهرة دفعتها لها فورًا، وبعد وصولي واستقراري اغتسلت ولبست ثيابًا حسنة، وقصدت إلى العنوان المكتوب لي وهو «فاميلي هاوس» على قيد خطوات من بلاس إيتوال (ميدان الكوكب بشانزاليزية)، وهو خان أقرب إلى الفندق منه إلى المثوى العائلي (بنسيون دي فامي). وصعدت إلى

الدرج وكان أول من لقيت وجه امرأة دميمة صفراء هزيلة اسمها الآنسة دي روشبرون، هي نفسها التي كانت تكاتبني منذ سنة تطلب مني مقالة في مجلة تزمع إصدارها نجدة للمسألة المصرية، وقد بعثت إليها فعلا بمقولة عن الثورة العرابية وعن جهاد مصطفى كامل.

كانت تلك المرأة تعمل كاتمة أسرار لجنة المؤتمر الوطني الثاني في باريس، عيّنها في هذه الوظيفة محمد فريد بك رئيس الحزب الوطني بعد أن سعت للتعرف إليه منذ أشهر.

قابلت هذه المرأة وحدها تدق على الآلة الطابعة في الغسق، وكنت أظن سأقابل فريد بك والدكتور منصور رفعت والدكتور عثمان غالب باشا قعيد الوطنية المصرية في باريس وحامد العلايلي، فانقبض صدري عندما رأيت وجه تلك البنت الدميمة، فلما عرفتها بنفسي تظاهرت بالفرح بهذا اللقاء المفاجئ، وأخذت تثرثر بلسان ذرب ونطق فسيح وعبارة بليغة ضاعت كلها محجوبة بتلك الدمامة التي لم أشهد مثلها في أقطار أوروبا، ولا سيما في باريس المشهورة بمحاسن النساء، فسمعت إليها على مضض.

فوعيت من أقوالها أنها تتكلم عن الزعيم الوطني فريد بك بقولها: «فريد»، وتصف حامد العلايلي بأنه «الأسمر الجميل الذي لا يعرف الفرنسية ولا الإنجليزية»، وعن غالب الباشا «الدكتور العجوز» وأنهم كلهم غائبون وأنهم يعيشون في هذا الخان، وتسألني لماذا لم أحضر متاعي وأين نزلت وكيف أصنع لأحضر جلسات اللجنة، وأنا سكرتيرها وأنها سكرتيرة مساعدة لي، ثم أخذت تهذي بقولها: إنها صدمت بلقائي؛ لأنها كانت الفاجرة الماكرة تتخيلني عملاقًا قوي البنية ملتحيًا بلحية بيضاء، وأن أكون من أبطال التاريخ كما دلت عليّ مكاتيبي ومقولاتي التي قرأتها منذ عام، وأنها وجدتني على نقيض ذلك فتيًّا أجرد أمرد قصير القامة، وأنها تعاني خيبة أمل "desepoir"؛ لأنني لست طويلًا عريضًا!

فلم أجب على هذا التودد وقلت لنفسي: «ما أسعد حظ أوجستا. وأنها لو رأت ولو في الكرى وجه أول امرأة رأيتها في باريس لاطمأنت على عفتي وقد تشمت بي!»

فقلت لها: يا آنسة ...

قالت: الآنسة عزيزة دي روشبرون، فإنني فرنسوية نبيلة كما تعلم من تقديم لقبي بنسبة دي، ولكنني مسلمة أسلمت حديثًا، هداني إلى الإيمان فريد.

فلم أجب ولم أدهش وقلت في نفسي: يا لسوء حظ الإسلام وفرحة النصارى بانسلاخك.

وهممت بالقيام. فقالت: إلى أين؟

قلت: أطوف وألف لفة في مقهى حتى يحين وقت مجيء الباشوات والبكوات وبقية الزعماء.

الإعداد لخطابي في المؤتمر

وهبطت الدرج وأنا أشد ما أكون حزنًا، وحمدت الله على أنني اخترت مسكنًا بعيدًا عن هذا المستقر الذي تحرسه عزيزة، وسرت في الطريق فبهرني جمال باريس، ورأيت مقهى بديعًا عليه اسم «كافيه فوكيه»، فأعجبني واخترته مجلسًا وشربت قهوة ممزوجة بالحليب، وأخذت أفكر في الأيام المقبلة، فتذكرت أن عليَّ خطابًا ألقيه في المؤتمر وأن أستبقي عزيزة للنقر على الآلة الطابعة، وأن أشرك العلايلي في كتابة السر، فصممت على أن يكون موضوع خطابي في المؤتمر «وجوب حياد مصر حيادًا دوليًّا احترامًا لقناة السويس»؛ لأنها طريق بحرية دولية. وأردت أن أحدد علاقتي بالزعيم والكواكب التي تدور في فلكه أمثال غالب باشا والدكتور منصور رفعت (وهو شقيق إسماعيل لبيب بك) وأحمد لطفي بك المحامي، فأبقيت هذا إلى أن نجتمع بعد ساعة، ولما انتهيت من التفكير ودونت رءوس أقلام وعنوانات تمثلت لي فرصة سانحة لوجودي بباريس وهي أن أتردد على المكتبة الوطنية لأتم بحثي ودراستي في عهد الإحياء «رينيسنس» في إيطاليا لاستكمال فوائد إقامتي في فيرنزه، ورأيت أن أختم جلستي القصيرة في مقهى فوكيه بأن أكتب مكتوبًا إلى أوجستا لأعطيها عنوان الخان مستقر جماعة المؤتمر وعنوان غرفتي بشارع فوجيرار.

مقابلة محمد فريد

في تمام الساعة السابعة قصدت إلى فاميلي هاوس، فوجدت الحفل حاشدًا بالسادة والأعيان وقد حضروا لتناول العشاء؛ لأنهم مقيمون عائشون نائمون يقظون في الخان على حساب المؤتمر المصري المزمع اجتماعه؛ لأنهم وقفوا أيامهم ولياليهم على خدمة الوطن، فوجبت على الوطن نفقاتهم وهي من الأموال التي جمعت بالاكتتاب ولا أعلم من كان أمين الصندوق.

وفي تلك الليلة الأولى رأيت فريد بك وعشرات من البكوات الذين هاجروا من مصر جماعات وأفرادًا؛ ليساهموا في خدمة الوطن، وبينهم الدكتور محجوب ثابت، وجاء

الأستاذ حسين هيكل مستخفيًا؛ لأنه كان طالب بعثة يخشى إن عرف أمره أن يقتص منه بالحرمان؛ لأن شوكة الإنجليز قوية، ورأيت أحد أبناء إدريس راغب بك وهو أكبر أنجاله سنًّا وكان لا يحسن التكلم بالعربية فقال على المائدة وهو يهمس في أذني: ليه ماتعملوش زي التركي الزغير؟

فاستعدت السؤال لأفهمه وبعد عناء في الاستفسار والاستقراء والتخمين والتنجيم وتقليب الألفاظ والمعاني، ضحكت ضحكًا شديدًا على غير عادتي؛ لأنني اكتشفت أن ابن البيك المصري العظيم يريد أن يقول: لماذا لم تعملوا كما عمل حزب تركيا الفتاة!

فانطلق يخاطبني بإنجليزية فصحى؛ لأنه كان في جامعة أكسفورد وهو يعبر بها أبلغ تعبير ولا يعرف العربية ولا الفرنسية، وهو الآخر جاء مستطلعًا مشتركًا بقلبه وبعض ماله كغيره، ولكني أحببته لجهله وسلامة قلبه؛ لأنه كان بمعزل عن كل شيء يهم وطنه، وذهب إلى تركيا ليعود إلينا بمثال «التركي الزغير»، ولا عجب فإن هؤلاء الناس ترك في دمائهم خضعوا لعبد الحميد طول القرن، فلما ظهر «التركي الزعير» أرادوا تقليده، فأفهمته بالإنجليزية التي يجيدها أننا لا نستطيع تقليد التركي الزغير؛ لأنه «ليس عندنا جيش ولا سلاح ولا أنور ولا نيازي ولا طلعت ...».

ومحمد بك راغب هذا عنوان على عدد كبير جدًّا من أهل مصر الذين يعيشون فيها، وينتمون إلى الدولتين الحاكمتين قديمًا وحديثًا (تركيا وإنجلترا)، ولم أجد وطنيًّا صادقًا إلا الفلاح المتعلم الخالي من مطامع الوظائف. وكان المال دائمًا عقبة في سبيل الوطنية في الأمم الضعيفة المستسلمة؛ لأن الحاكمين يهددون الأغنياء في ثروتهم، كما كان الفقر عقبة أخرى؛ لأن الفقير النابغ عاجز عن التعليم ومحتاج إلى القوت، وفي الحق لا ذنب للفقر أو الغنى وإنما الذنب للصغار والضعة ودناءة النفوس، ولكن على كل حال كان الناشئون في الطبقة الوسطى أميل إلى التقدم والعواطف السامية أمثال مصطفى كامل.

وفي هذه الجلسة العشائية عرض عليَّ فريد بك وألح أن أنزل معهم بالخان؛ لأنه أقرب إليّ وأجدى؛ لأنني أكون ضيفًا على الجماعة (أي: أموال المؤتمر)، فاعتذرت بأنني ألفت النزول بأحياء الطلبة ما دمت طالبًا وأنني أستمتع بخلوة عذبة، وأنني طول اليوم أكون في صحبتهم أعمل معهم، وأنني لا أستطيع الطعام معهم؛ لأنني أتبع تدبيرًا طبيًّا وحمية غذائية، فقبل عذري وإعفائي من ذلك الاختلاط المشوش.

وذلك لأنني علمت أنهم ينفقون من الأموال التي جمعت في مصر على ذمة العمل السياسي، وقد درجت ودأبت طول حياتي على الاعتماد على الله ثم على ما أملك في الإنفاق

على كل عمل عام أستطيعه ولم أعرف ولم أقبل معونة مادية من أحد؛ لأن من يفعل هذا يكون أجيرًا غير مأجور، ودهشت إذ علمت أن البيكوات والسادة الأعيان ينفقون من الأموال المجموعة على معيشتهم، وفيهم أغنياء كثير أمثال عمار بك وفؤاد حسيب بك والدكتور بدران حتى حامد العلايلي، ويرون هذا جائزًا وحلالًا؛ لأنهم يقومون بعمل وطني، ولعل بعضهم اكتتب بمال فاشتركوا جميعًا في الاغتراف منه، فاعتذرت لهم بأنني لم أكتتب بغير عمل ذهني ومجهودي العقلي فلا حق لي في أن أعيش على نفقة أحد، خصوصًا وأنني لست ممن يميلون إلى الترف والأناقة في المأكل والمشرب.

وسألني صاحبي العلايلي كيف وصلت، قلت له: في الدرجة الثالثة، وسألني على المدينة الإيطالية التي كنت بها فلما قلت له: فيرنزه، ضحك وقال: وماذا كان عنوانك يا لطفي، قلت: نمرة ٦ شارع ليونارد دافنشي، فأغرب في الضحك؛ لأنه لم يسمع باسم المدينة ولا باسم الفنان الكبير وأنه كان يتلذذ كلما نطقت بالاسمين بلهجة إيطالية، ودعاني إلى غرفته وأظهرني على حليته وحلله وأحذيته وأربطة عنقه وعصية، وعلى أطقم كثيرة من الأقمصة والجوارب، وحكى لي كثيرًا من مغامراته، وألح من جديد على ضيافته وأنها توفر عليّ كثيرًا وكيف أستبيح لنفسي البعد عنه بحجة الحمَّى (يريد الحمية) والتبذير (التدبير)، فضحكت كثيرًا ثم افترقنا وعدت إلى ركني السعيد في شارع فوجيرار على أن أعود في الصباح الباكر لنبدأ العمل.

وفي اليوم التالي قابلت فؤاد حسيب، وكان كاتبًا بالفرنسية طارئًا على الوطنية وقد تخرج في دير مسيحي وكان قسيسًا حتى أتقن اللغة ثم ألقى ثياب الرهبان، وانضم إلى المصريين يكتب في الصحف الفرنسية.

جواسيس على المؤتمر

ورأيت عمدًا ومشايخ بالعمائم والقفاطين، وكان معهم خالد الفوال بك وهو من أعيان دمياط وموظف بديوان الأوقاف، وكان دائمًا مخمورًا فعجبت لحاله فقال لي خبير به: إنه ليتجسس على المؤتمر وقد دفع مائة جنيه قيمة اشتراكه وهي طبعًا من المصاريف السرية، وكان يتظاهر بالسكر ليأمن المؤتمرون جانبه، ولكن أمره لم يكن خافيًا على أحد؛ لأنه لا يعقل أن يجمع بين وظيفة الحكومة وخدمة الخديوي والوطنية الثائرة على الاحتلال وعلى الخديوي. وكان هناك موظف آخر في محافظة مصر ع. س. وهو شخص ضخم صعيدي الموطن واللهجة، يزعم أنه جاء لأداء امتحان الحقوق، ويتقرب

إلينا بالتظرف والنوادر، وكثرة أخرى من المشبوهين المندسين رسل فيلبيديس وهارفي باشا ووزارة الداخلية.

فلما خاطب بعض المخلصين فريد بك في أمرهم ضحك وقال: «يا إخواني لا تظهروا علمكم بأمرهم، فأولًا: نحن نستفيد من أموالهم التي يدفعونها بمثابة اشتراك، وثانيًا: ليس عندنا أسرار نخشى عليها. وإننا لو أظهرنا اهتمامنا بهم لبلغوا أمانيهم عند سادتهم وكادوا لنا كيدًا» ثم اتجه إليّ وقال: إن صاحبك الروح بالروح الذي اصطفيته في مؤتمر جنيف، حتى جعلناه سكرتيرًا ها هو جاء هذه السنة وقد قيل لي: إنه محمل بأموال الخديوي عباس ليقضي لبانته من التجسس علينا وعليك أنت بالذات؛ لأنه موظف رسمي بالمعية السنية (ديوان الخديو) ومصاهر أحب الناس إلى الخديوي وألصقهم به، هل يمكننا أن نجاهره العداء بتهمة التجسس، يا لطفي دع الخلق للخالق والله منتقم جبار. فقلت له: يا سعادة البيك، أنا لا يهمني هذا الأمر؛ لأنني لست موظفًا ولا عينًا ولا مليونيرًا لأخشى عواقب تجسسهم، وما دمت أنت ترى هذا الرأي فالقول لك. على أنني لا أعرف أحدًا من هؤلاء الناس لغيبتي الطويلة عن مصر.

فربت على ظهري وقال: «أنا أعرف المصريين جيدًا. إن هؤلاء الك … جميعًا غدًا ينقلبون خدمًا لنا وعبيدًا عندما تظهر قوتنا ونصبح ذوي الشأن، فهذه صنعتهم في كل عهد ودولة يعبدون الأقوياء ويخضعون لصاحب الأمر».

وفي هذه الأيام رأيت الأستاذ محمد حسين هيكل وكان يطلب الدكتوراه، وكان يقابلنا ونتحدث معه ونسير معه لكنه كان يبتعد قدر طاقته عن الظهور بمظهر الوطنية المتطرفة؛ لأنه مبعوث على نفقة الحكومة المصرية ويخشى أن تفصله من البعثة المدرسية، ولقيت شفيق منصور وكان حديث الانضمام إلى الحزب الوطني وحديث النجاة من قضية الورداني وتهمة الاشتراك في اغتيال بطرس غالي باشا، وعلمت أن الحكومة المصرية أرسلت لفيفًا من المصريين الموظفين والعاملين وجعلتهم جواسيس على لجنة المؤتمر، ومنهم خالد الفوال بك وعبد اللطيف سعودي بك وآخرون، وقد تظاهروا بأنهم وطنيون لأول مرة في حياتهم، كذلك أرسل الإنجليز جواسيس من الرجال والنساء، وكذلك حكومة فرنسا.

وكان رئيس الوزراء أريستيد بريان ثبت علينا العيون والأرصاد، ولا سيما رشبرون التي انتحلت الإسلام وأطلقت على نفسها اسم عزيزة دي روشبرون وكان لها تاريخ طويل.

ولما أدركت جو المؤتمر حمدت الله ألف مرة على انفرادي وعزلتي واتخاذ مسكني في غرفة في الدور الخامس في شارع فوجيرار عند أرملة مسنة، فكنت أتناول وجبات الطعام في مسكني، وأجتمع بإخواني في أوقات العمل قبل الظهر وبعده.

عبد الحميد سعيد

وفي تلك الفترة رأينا المرحوم عبد الحميد سعيد ولا بد أن يكون منظره قد أدخل البهجة والحبور على قلب عزيزة روشبرون، فقد كان عملاقًا حائزًا لكل الشروط وله لحية كثة وشوارب ضخمة وصوت جهوري كدق الطبول، وله حلية من الذهب والحجارة الكريمة في رقبته وصدره وأصابعه، ويتجمل بالطربوش ويحمل في يده عصا بل هراوة ويقهقه فتهتز أركان المكان. وقد روى لنا هذا البطل أنه ابن باشا ويملك أراضي واسعة في سخاطوب أو طحانوب لا أذكر وأنه منذ وطئت قدمه أرض باريس ليدرس الدكتوراه في القانون لم يغير سكنه في شقة فخمة، ولم يقطع فرضه في الصلاة ولا سنته وأنه أحضر معه ثلاثة خدم أحدهم إمام يؤذن له الأوقات ويؤمه في الصلوات الخمس، وآخر طاه يذبح له الذبائح على القواعد الإسلامية ويطهي له أصناف الطعام التي لا يستغني عنها (الملوخية والبامية والكشك والطاجن والمعمَّر والدمعة والرز المفلفل إلخ) وخادم ثالث (شماشرجي) أي: يعد له الثياب ويعني بها.

فأعجبت به وغبطته على نعمة الإيمان.

وحدث يومًا أن دب خلاف هين بينه وبين أحد أعضاء المؤتمر أثناء انعقاد جلسة من جلسات اللجنة، فنهض عبد الحميد بك سعيد، ورفع يديه حتى كادت تلامس السقف وقال بصوت دوى في العمارة كلها: يا فريد بك والله العظيم إن لم تمنعه عني فإنني أحمله بين يديَّ (وكان خصمه رجلًا قصيرًا هزيلًا) وألقي به من هذه النافذة. أنا والله ما حضرت إلا إكرامًا لك وللطفي باشا السيد، ثم أخذ ينظر إلى الرجل القصير ثم إلى النافذة كأنه يهم فعلًا بقتله. فدهشنا جميعًا ولا سيما أحمد لطفي بك، وقال لسعيد بك: هذا ليس كلامًا يقال. اقعد يا أخي ... أنت في باريس عاصمة فرنسا، وأنت حائز لإجازة الحقوق وتدرس الدكتوراه، ثم تتهدد رجلًا مثلك في لجنة سياسية بالإعدام بدون محاكم أو دفاع فهل هو عبدك، ولو كان عبدك هل هو في أبعاديتك، فأين القانون الذي تعلمته، بل أين الإيمان الذي حدثتنا عنه وأنت عين ابن أعيان، اجلس يا شيخ ودعك من هذا الكلام الفارغ ... إن باريس تهذب الوحش فضلًا عن الرجل المهذب!

فأرغى عبد الحميد وأزبد من جديد وكاد يهدم الهيكل مثل شمشون الجبار، وكان يقول: «عليَّ وعلى أصدقائي يا رب»، فنهض فريد بك وتعلق بإحدى يديه المرفوعتين إلى السقف واحتال عليه حتى أخرجه من الغرفة ... ورفعت الجلسة للاستراحة بعد هذا العناء.

مشاركة الزعماء الهنود في أعمال المؤتمر

وجاء إلينا عنصر جديد من الرجال والنساء، هؤلاء هم الهنود المقيمون في بارس تحت رياسة السيدة الفاضلة طيبة الذكر والأثر الوطنية المخلصة مدام كاما، وكانت تقيم على قيد أمتار من «فاميلي هاوس» بشارع پونتيو Rue Pounthieu رقم ٢٥، وهو حي أرستوقراطي متصل بالشانزليزيه ويعيش في كنفها رهط من الوطنيين الهنود أمثال هارديال وشاتوبادايا وأكبرهم ساڤاركار الذي فر من لندن عقب اغتيال سير كرزون وايلي رأس الجاسوسية الإنجليزية على طلاب الهنود الذي قتله دنجرا الشهير، وسجن الشيخ جاويش بسبب تمجيده بمقال في اللواء بعنوان «اليوم يعدم دنجرا».

وكان سافاركار الطالب الهندي النابغ مقيمًا في لندن فاتهموه بالتحريض كما اتهموا الوزير الهندوكي القديم شيامدجي كريشنافارما. وكان هذا الوزير يصدر جريدة «الاجتماعي الهندي»، ويحمل فيها على الاستعمار البريطاني في الهند حملات صادقة. وكان الإنجليز يطيقونه رغم أنوفهم لمكانته السياسية والعلمية ولوفرة ثروته؛ ولأنه تلميذ سبنسر وقد وقف ثلاثين ألف جنيه على عالم يلقي دروسًا في فلسفة سبنسر في كلية أكسفورد، فكان الإنجليز يخجلون أن ينفوه أو يطردوه؛ لأنهم فتحوا أبواب بلادهم لكل لاجئ سياسي فوجب أن يعتبروه لاجئًا حرًّا وأن يحموه كما حموا ماتزيني، وكما كانوا يحمون في هذا الوقت نفسه لينين وهو يصدر مجلة الشرارة (اسكرا).

فتحملوا كريشنا فارما على مضض وهم يتربصون به الدوائر وهم يحرقون الإرم كلما أصدر عددًا من مجلته الشهرية، وقد زاد النار ضراما أنه خصص جزءًا كبيرًا من ماله لتأسيس وتأثيث بيت الهند "Indian House"؛ ليأوي إليه الطلاب الهنود المغتربون صيانة لهم وحفظًا لصحتهم وأخلاقهم، فقد علم القاصي والداني أن عمل كيرزون وايلي كان أن يضلل الشباب الهندي وهو رئيس لجنة استقبالهم والإشراف على إقامتهم وتعليمهم، وقد ثبت في قضية دنجرا أن كيرزون وايلي كان ينصح للشبان الهنود أن ينزلوا منازل، ظهر للملأ أنها مواخير لينصرفوا عن العلم والأدب والوطن إلى

اللهو والغزل والدعارة، فتنهدّ قواهم ويمرضوا ويموتوا؛ ولأجل هذا قتله دنجرا وقتل معه طبيبًا هنديًّا مسلمًا اسمه محمد علي خان كان شريك كيرزون وايلي، وقال دنجرا في دفاعه: إنه يفضل أن يموت في سبيل وطنه لينقذ مئات الشبان.

وكان شيامدجي كريشنا فارما ماهرًا جدًّا في الفرار ونجا معه في سفينة واحدة إلى فرنسا سافاركار. فلما هجم البوليس الإنجليزي على بيت الهند لم يجد فيه هنديًّا واحدًا فحطَّم أثاثه واستولى على كل ما وجده من أوراق ووثائق وخرب البناء نفسه حتى لا يعود إليه أحد يستظل بظله، وكان كريشنا فارما حصيفًا، فلم تكد قدمه تطأ أرض فرنسا حتى بعث بهبة قدرها عشرة آلاف فرنك إعانة للمصابين بفيضان نهر السين «سنة ١٩١٠». وأرفقها بخطاب إلى رئيس الجمهورية قال فيه: إنه يعتذر لضآلة قيمة المنحة ولكنه غريب الديار مطرود من إنجلترا ومظلوم في تهمة باطلة. فلما طالبت إنجلترا بتسليمه اعتذرت حكومة باريس بأنه لاجئ سياسي ولا ترى الحكومة في مسلكه عيبًا ولا عليه غبارًا. وأقام كريشنا فارما في بيت جميل في أحياء الأعيان، وكانت معه زوجته، وطالما تغديت عنده وقضينا ساعات طويلة في الحديث والنقاش.

أما سافاركار فكان فقيرًا فلجأ إلى مدام كاما يعيش في كنفها. وكان بين كريشنا وكاما عداء شديد سببه التنافس في خدمة الوطن؛ ولأن كاما كانت كالرجل الحازم العازم الواعي بل أشد رجولة وقوة، وكانت سخية كريمة وهي أرملة في الخمسين من عمرها من جنس الپارسي (سلالة الفرس المقيمين في بومباي)، وهي تصدر مجلة باندي ما ترام والعنوان نفسه تحية الهندي لوطنه «عمي صباحًا يا أمنا الهند!»

فهؤلاء الهنود أقبلوا علينا؛ لأنهم انضموا إلينا في العام الماضي ١٩٠٩ في جنيف وجاءت كاما بأبنائها وبناتها وأحجم كريشنا فارما رغبة منه في عدم الاتصال بمنافسته، وحاولت أن أكون حلقة اتصال بينهما فلم أوفق وقالت لي مدام كاما: خل عنك يا ولدي فأنت لا تعرف عمق أحقاد كريشنا ولا تحيط بدهائه وأنا لا أطعن في وطنيته، ولكن أقول لك: إنه موظف قديم عند الإنجليز ولم ينل منهم كل أغراضه وهذا يكفي. ولكنني احترمت كريشنا وأحببته؛ لأنه أعان عشرات الشبان على الكفاح، ولا سيما سافاركار الذي ألف كتابًا في تاريخ الثورة الهندية (١٨٥٧).

ولم يكن سافاركار يدعو إلى الثورة السافرة ولا إهراق الدماء، وإن كان دنجرا من أخص أتباعه، ولكن مدام كاما كانت تدعو لها ولها يد حمراء في قذف القنابل التي أصابت لورد هاردنج نائب الملك في الهند، فقد قالت لأحد خلصائها: إنها انتهزت وجود

بورتزف الثائر الروسي في بارس واتصلت به وجعلته يعلم بعض شبان الهنود صنع القنابل، فصنعوها في بيتها وسافروا بها إلى الهند وألقوها على نائب الملك.

موقف محمد فريد من الزعماء الهنود

كان فريد بك ينظر إلى هؤلاء الهنود شزرًا ويخشاهم؛ لأنه يخشى أن يتهم أعضاء المؤتمر المصري الوطني بالتآمر مع الهنود على الحكم البريطاني وهو يزمع أن يعود إلى وطنه.

ولكن كان ما خاف أن يكون وجاءه السجن والنفي عن طريق كتاب وطنيتي وهو ديوان شعر نظمه علي الغاياتي.

وكنت أقسم وقتي بين مؤتمرنا في فاميلي هاوس وبين مجامع الهنود، ورأيت مدام كاما تتأهب للحضور معنا محفوفة بعشرات الشبان والفتيات، وقد أعدت خطابًا، كما أخذ الشباب المتعلمون في لندن يكتبون لبعض أبناء الأعيان من المصريين المتعلمين في اكسفورد وكمبردج خطبًا يلقيها المصريون، وهم لا يجيدون النطق ببعض ألفاظها لقاء جعل معلوم لفقر الهنود على علمهم وغنى المصريين على عميق جهلهم، وبعض هذه الخطب مطبوع ومنسوب إلى الذي ألقاه كذبًا ومينًا، وكاتبه هارديال الذي كان في تلك الأيام في غاية الفاقة، وكتبتُ باسم فريد بك خطابًا مطولًا إلى مستر بلنت فأجاب بمكتوب طويل إلى فريد بك بوصفه رئيس المؤتمر ومعه خطاب جليل باللغة الفرنسية واشترط أن أتولى تلاوته، وهذا الخطاب نشر بالعربية في مصر مرارًا فلا داعي إلى تكراره، ولكن أقول: إن كل ما تكهن به بلنت عن سياسة الإنجليز الاستعمارية ومسالكهم الملتوية وخططهم الجهنمية قد تحقق كأنه كان يقرأ في كتاب مبسوط.

لقد سرني أنني قابلت لفيفًا من رجال الثورة الهندية في باريس وأكبرهم شأنًا مدام كاما وهارديال وسافاركار وشاتوباديا، وآخرين تجارًا مقيمين في باريس يتجرون في اللآلئ وزرت شيامدجي كريشنافارما، فوجدت راحة وسرورًا ومتعة في عشرة هؤلاء الهنود وهم أبطال ومخلصون وثقات ومتعلمون ومطلعون وعليهم هم الآخرين لفيف من الجواسيس الإنجليز والهنود (ولا سيما المسلمين منهم)، وقد رغب الوطنيون الهنود أن يشتركوا معنا في المؤتمر وأن يشدوا أزرنا بخطبهم وبحوثهم، وكان بعض الأغنياء من المصريين يعارضون في ذلك بحجة أن هذا المظهر يحرج صدور الإنجليز علينا، ويزيد أحقادهم، خصوصًا وأن الهنود يلجئون في بلادهم إلى القوة والمصريون يريدون أن يناضلوا على بساط القانون، ويتخذون ما وصفوه بالطرق المشروعة التي تطمئن

الإنجليز، وكان فريد بك يميل إلى هذا الرأي إلى أن أقنعته وساعدني في ذلك الدكتور منصور رفعت وحامد العلايلي، وأقنعته بأن الهنود يتخذون من مؤتمرنا متنفسًا ولا يجوز لنا أن نمنعهم، وأننا في العام الماضي (سنة ١٩٠٩) اتخذنا أنصارًا من الأيرلنديين والألمان والاشتراكيين الفرنسيين (روانيه وجوريس) فكيف نمنع الشرقيين، وشرحت لفريد بك أن الإنجليز إذا علموا أن لنا أنصارًا من أمم مختلفة يتهيبون جانبنا ويحسبون لنا حسابًا، وأن هذه كانت خطة المرحوم مصطفى كامل في نضاله، وأنه نجح فيه في دنشواي وما بعد الاتفاق الودي بأنصاره من الفرنسيين وأحرار الإنجليز، فاقتنع — رحمه الله — ولكنه اشترط على من يخطب منهم ولا سيما مدام كاما أن لا يذكر المقاومة بالقوة أو تبرير إهراق الدماء (وكانت حوادث المرحوم الورداني ودنجرا يرن صداها في الآذان والأذهان)، فتعهدت له أن أقنع مدام كاما بضرورة عرض خطبتها علينا قبل إلقائها.

حضور كيرهاردي زعيم حزب العمال في المؤتمر

واشتغلنا وتعبنا أيامًا وليالي وكان في مقدمة مساعدينا الدكتور عثمان غالب باشا، وهو مقيم بشارع بولانجيه بباريس وكان يروي لنا من أخبار المرحوم مصطفى كامل الشيء الكثير؛ لأنه كان أكبر أصدقائه من المصريين في فرنسا، واتصلنا بالصحافة وكافة الأوساط السياسية، وحضر إلينا من إنجلترا مستر كيرهاردي زعيم حزب العمال ومؤسسه، وكانت خطتنا أن نعقد المؤتمر في أيام ثلاثة ١٤، ١٥ و١٦ سبتمبر وهي أيام الاحتلال البريطاني بعد موقعة التل الكبير. وفي الأسبوع الأخير قبل الموعد المحدد تفاقمت حوادث التجسس حولنا، وظهر لنا للأسف أن عزيزة روشبرون في مقدمة الجواسيس. ولما بدأنا نكشفها تظاهرت بالغضب وتركتنا.

مقابلة رئيس وزراء فرنسا ووزير داخليتها ومنع انعقاد المؤتمر في بارس

وفي يوم ١٠ سبتمبر وصلت دعوة باسم فريد بك، وأخرى باسمي لمقابلة وزير الداخلية مسيو بريان بقصر وزارة الداخلية فذهبنا إليها ومعنا حامد العلايلي.

وقابلنا رئيس مكتب الوزير فمهد إلي الحديث بأن إنجلترا تنظر إلى مؤتمرنا بعين السخط وأن حكومة فرنسا متحالفة مع بريطانيا منذ سنة ١٩٠٤، وأن الأحوال الدولية

متحرجة وأنّا أحسنّا صنعًا في العام الماضي إذ عقدنا مؤتمرنا بمدينة جنيف وهي جمهورية حرة محايدة، فأجبناه ورددنا حججه فقال: إن خلاص المسألة في يد موسيو بريان، ودعانا إلى مقابلته، وكان في أول الأمر هاشًّا باشًّا ثم تغير وقال: «أنت طالب بكلية الحقوق في ليون وتعلم أن القانون لا يبيح لك الاشتغال بالسياسة»، فقلت له: نعم ولكنني لا أشتغل بسياسة فرنسا ولكن بسياسة وطني، وفرنسا وطن ثان لكل ضيف وهي أم الحرية وحقوق الإنسان، وتكلم فريد بك بعبارات بليغة.

فقال بريان: لأجل هذه الأسباب كلها أنصح لكم أن تعقدوا مؤتمركم خارج فرنسا، وليكن في سويسرا أو في إمارة لكسمبورج؛ لأننا لا نود أن نصدر أمرًا بطردكم من فرنسا (كذا)، وإذا صدر هذا الأمر تحرمون من الدخول وتقعون تحت مراقبة الشرطة السرية. فقلت له: إن فرنسا لا تفعل هذا؛ لأننا دعونا عشرات من أعضاء البرلمان الفرنسي والرايشتاج الألماني والبرلمان الإنجليزي، وأمليت عليه أسماءهم، وقلت: إن هؤلاء إذا صدر قرار نفينا يقدمون استجوابات بشأنه، على أننا مسالمون ولا يزيد عملنا في المؤتمر عن الخطابة والكتابة في حدود القانون، فاعتدل الرجل وقال: «على الرغم من هذا فإنني لا أريد أن أصدر قرارًا بطردكم ولا أريد أن يعقد مؤتمركم عندنا وأنصح لكم بمغادرة البلاد بطريق المودة».

فأشار لي فريد بك إشارة فهمت منها أن لا فائدة من مناقشة هذا الرجل ثم قال له: وكيف يمكننا الآن أن ننتقل بقضنا وقضيضنا إلى بلد آخر، ونغير خططنا وقد أزف الوقت واتخذنا أهبتنا في هذه العاصمة؟

قال بريان: الحقيقة أنني بذلت جهودًا كثيرة لأستبقيكم ولم أتمكن. فنهض فريد بك ونهضنا ونهض بريان لتوديعنا فقلت له مبتسمًا: لم أكن أظن يا سيدي الوزير الأكبر ورئيس المجلس أن كلمة دولة كائنة من كانت تكون هي العليا في باريس، وأنا أقصد إن إنجلترا تحكمت فيهم إلى هذه الدرجة.

فقال الرجل: ماذا تريد أن تقول؟

فقال فريد بك: أنت ونحن رجال قانون ونعد أفراد أسرة واحدة، وأنا أؤكد لكم أننا رأينا جواسيس من دولة أجنبية يحيطون بنا ويتبعون خطواتنا في كل مكان.

فابتسم بريان ابتسامة صفراء وتدلّت شفته السفلى، وكانت مثل شفة العجل الصغير وله شوارب متصلة بشعر كثيف حول فمه وقال: إن الأوهام يا سيدي تجعلكم ترون الإنجليز في كل مكان.

فقال فريد بك: سواء كانت أوهامًا أو حقائق فقد لمسناهم في باريس.

وتظاهرنا كلنا بالضحك لننقذ هذا الموقف الأليم. وخرجنا نجرر أذيال الأسف والندم على أننا وثقنا بدولة تحكمها النساء والإنجليز، واجتمعنا وتحرينا أن لا يكون بيننا ذو ريبة حتى لا يذيع سر هذه الخيبة، وبحثنا وتناقشنا واستعرضنا كل الممكنات والمستحيلات والمدن والدول التي نستطيع الالتجاء إليها قبل أن يعرف الأمر، ويشمت بنا الإنجليز أو يلجئون إلى دسيسة أخرى، فأبدى المرحوم أحمد وفيق اسم بروكسيل وكان فيها معرض دولي، فوافقنا على اختيارها وقررنا إيفاده في فجر اليوم التالي؛ ليهيئ لنا مكانًا وجوًّا للاجتماع فيها بعد ثلاثة أيام.

وقضينا الأيام والليالي الباقية في فضيحة فرنسا بإعلانات الجدران، وبتوزيع منشورات بالأيدي وفي التظلم إلى الصحافة، وقصدنا إلى بعض شركات السكة الحديد لنستأجر قطارًا خاصًّا فرفضت. وبذلنا جهودًا جبارة في لم شعثنا، وحصرنا العمل في خمسة أو ستة أشخاص لم يعلم غيرهم أحد بمقاصدنا ولا باتجاهنا، وعقدنا النية على أن يغادر المصريون المدعوون باريس في القطار السريع الذي يسافر إلى بروكسيل في أربع ساعات، وقد وفق الله وفيقًا في اتخاذ مكان فسيح بديع في قلب العاصمة البلجيكية، وحجز ثلاث طبقات في فندق كبير وكانت بروكسيل مزدحمة جدًّا بسبب المعرض الدولي.

وقد أراد الله أن يعقد المؤتمر الوطني المصري الثاني في نفس موعده الذي كان محددًا لانعقاده في باريس، وقد حضر إليه كل المدعوين والأعوان والأنصار وقد أبلغناهم الدعوة في وقتها المناسب، وعددنا هذا العمل نصرًا من الله.

ويوجد كتاب ضخم مطبوع باللغة الفرنسية فيه أخبار المؤتمر، فليطالعه من يريد الوقوف على أعمال هذا المؤتمر.